أبو الهدى الصيادي

في آثار معاصريه



جمعها وحققها وعلق عليها
حسن السماحي سويدان

دار البشائر
دمشق - سورية

أبو الهدى الصيادي

في آثار معاصريه

بسم الله الرحمن الرحيم

العنوان : أبو الهدى الصيادي
جمعها وحققها وعلق عليها : حسن السماحي سويدان
عدد الصفحات : ٣٩٤ صفحة
قياس الصفحة : ١٤ × ٢٠سم
عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة
رقم الموافقة : ٥٠٣٥٨
تاريخ الموافقة : ٢٠٠١/٤/١٥

دار البشائر
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ شارع ٢٩ أيار ـ جادة كرجية حداد
هاتف : ٢٣١٦٦٦٨ ـ ٢٣١٦٦٦٩
ص. ب ٤٩٢٦ سورية ـ فاكس ٢٣١٦١٩٦

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢م

أبو الهدى الصيادي

في آثار معاصريه

جمعها وحققها وعلق عليها
حسن السماحي سويدان

أبو الهدى الصيادي

- عقلُ ما تجلَّى شعاعُه على داجيةٍ معضِلةٍ إلاّ أنارَها .
- وسيم المحيا ، طلقُه ، فتيُّ العزيمةِ ماضيها .
- طموحُ النفسِ إلى كلِّ سؤددٍ .
- صبورٌ على المكارهِ .
- إذا نال جَشِعَ ، وإذا حُرِمَ شَبِع .
- لطيفٌ ظريفٌ ، لا يُمَلُّ مجلسه .
- شمائلُه أندى من الـزَّهْـرِ ، وهيبتُه أعظمُ هيبةً من السَّبُعِ .
- إذا تقاعسَ تحالمَ ، وإذا قَدِرَ بطشَ غير راحمٍ .
- يُـبدي على صفحتِه ما يريدُ ، ويُكِنُّ في ضميرهِ ما يريدُ .
- لا يخذلُـه تلـوُّنٌ ولا تلجلـجٌ ، لجامُ نفسِـه بيدِه ، يصرِّفُها كيف يشاءُ ، وأنّى يشاء .

وليّ الدّين يكن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد: فقد كان أبو الهدى الصيادي في زمانه مالىء الدنيا وشاغل الناس بحسبه ونسبه، وتصوفه وطريقته، وكرمه وأريحيته، وعلاقاته الودية وغير الودية مع كثير من رجالات عصره .

فمن قرية خان شيخون في محافظة حلب، ومن درويش يرتزق من ضرب الدف ، والتكسُّبِ بالرُّقَى والعزائم ، إلى إستانبول حاضرة الخلافة العثمانية، حيث النفوذ ، والجاه، والمال، والمؤامرات ـ كان صعود نجم أبي الهدى السريع المعجِب .

إن سرَّ تحوُّل أبي الهدى من درويش مدفوع بالأبواب ، إلى رجل يمسك بمقاليد الأمور في الدولة العثمانية ، وتنفذ كلمته حتى على السلطان نفسه[1] إنما يكمن في ذكائه المفرط ،

---

(١) انظر ص (٨٦ و٨٧) من هذا الكتاب .

ودهائه الشديد ، ونشاطه الذي لا يعرف الكلل ، وطموحه الذي لا يعرف الحدود.

لقد اكتشف رجال الدولة العثمانية في حلب ، وأعوان السلطان فيها تلك المواهب في أبي الهدى ، فرشَّحوه لدور كبير ، تدرَّج فيه بسرعة البرق ، ليصل في النهاية إلى القمة ، وليصبحَ الرجل الثاني بعد السلطان.

كان السلطان عبد الحميد يحاول أن يقف في وجه التيارات المعارضة لسياسته في الأناضول والشام والعراق ، ووجد في التصوف ضالته المنشودة ، فتحت غطائه يستطيع أن يبثَّ من الدعاية ما شاء حول شخصه وسياسته الداخلية ، فقرب إليه عدداً من رجال التصوف كالشيخ محمد ظافر المدني ، والشيخ محمود أبو الشامات ، شيخي الطريقة الشاذلية فبنى لهما التكايا الفخمة وأجرى عليهما الأرزاق.

لكن لم تكد تقع عيناه على أبي الهدى الصيادي حتى وجدَ فيه الرجل الذي كان ينتظره لتنفيذ سياسته ، فنصَّبه نقيباً للأشراف ، وشيخاً للطريقة الرفاعية ، وأغدق عليه الأموال والأوسمة والمناصب ، ودعمه بالنفوذ المطلق.

فبدأ أبو الهدى نشاطاً هو أقرب إلى النشاط السياسي منه إلى النشاط الديني ، فركز دعوته إلى طاعة أمير المؤمنين وخليفة

المسلمين ، وملاذ الموحدين ، إذ طاعته من طاعة رب العالمين ، والخروج عليه خروج عن الدين ، ومخالفته تغضب الله ورسوله وصالح المؤمنين ، كما دعا إلى الالتفاف حوله ، للحفاظ على الدولة والملة ، ولتبقى راية الإسلام عالية ، ودعم هذه الدعاية بالمنامات ، والكرامات (والليرات الذهبية) ، والكتب السيّارة مثل «داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد» و«بهجة الزمان في مآثر خليفة سيد ولد عدنان» .

كان هذا التألق لأبي الهدى في سماء الآستانة مثارَ حسدٍ وبغضٍ كثير من الطامحين والمتنفذين ، الذين وجدوا فيه منافساً قوياً لهم ، فبدأ صراع شديد بينه وبينهم ، لم يعرف الرحمة ولا السكينة حتى وفاة أبي الهدى ، وبقيت آثاره إلى الآن .

كان ماضي أبي الهدى ونسبه هو نقطة الضعف التي اعتمد عليها خصومه في محاربته ، فما كان منه إلا أن أعاد كتابة سيرته كما يريدها هو متلائمةً مع وضعه الجديد، خادمةً لدوره العتيد، مؤثقةً بشهادة الأعيان في كل البلدان، لا كما هي في الحقيقة والعيان .

أما خصومه ، فقد نبشوا ماضيه ، وتحرّوا أصله وفصله ، وتصيدوا عثراته وهفواته ، وتتبعوا مكايده ، فأذاعوها ، وألّفوا الكتب فيها. فها هو ولي الدين يكن يكتب «الخافي والبادي

من فضائح الصيادي» وعبد الله النديم يكتب «المسامير»[١] ويضمنه من فضائح الصيادي الكثير.

وكان يقف مع النديم في حرب أبي الهدى جمال الدين الأفغاني، الذي كان يحقد على أبي الهدى ويسمِّيه أبا الضلال، لأن أبا الهدى هو أول من نبه إلى أنّ جمال الدين إيراني شيعي[٢]، ولد في أسد أباد، ودرس في أصفهان، ثم في النجف، ثم طرد من النجف لاتهامه بالزندقة، وله صلات بالبهائية، لا كما كان يدعى أنه أفغاني ولد في أسعد أباد، وأنه سني حنفي.

وعندما حدث الانقلاب العثماني عام (١٩٠٩) وأطيح بالسلطان عبد الحميد، ألقي القبض على الشيخ أبي الهدى، وسيق إلى السجن على الرغم من مرضه، ولكنَّ المحققين لم يجدوا ما يدينون به الشيخ، فأطلقوا سراحه، وتوفي بعدها بمدة وجيزة.

* * *

---

(١) وقد رد عليه شكري مصطفى أحد أتباع أبي الهدى في كتابه «التدمير في صدور أصحاب المسامير» وقد طبع في القاهرة عام (١٨٩٨)م.

(٢) وهذه الحقيقة لم تتأكد إلا في الخمسينات من هذا القرن، عندما نشرت جامعة طِهران وثائق جمال الدين، التي أودعها مكتبة البرلمان الإيراني انظر «حقيقة جمال الدين الأسد أبادي» للدكتور عبد النعيم حسنين، و«جمال الدين الأفغاني في آثار دارسيه» للدكتور علي شلش.

إن كثيراً من الغموض ما زال يكتنف سيرة أبي الهدى، ومعظم ما كتب عنه إما كتبه محب غالٍ أو مبغضٌ قالٍ ، وفي سبيل إلقاء الأضواءعلى سيرة هذه الشخصية الفريدة جمعت كتابي هذا «أبو الهدى الصيادي في آثار معاصريه» وضمنته ترجماته كما دونها معاصروه ، بغض النظر عن موقفهم منه ، وقد قسمته إلى أحد عشر قسماً:

القسم الأول: في سيرة أبي الهدى كما دونها هو ، ونشرها في كتبه ، والتي سميت الترجمة الرسمية ، وقد ذكر فيها نسبه ، ومناقبه ، ونبذة عن حياته وأطواره في الرقي إلى سدة المجد ، والمناصب التي شغلها ، والأوسمة التي نالها.

القسم الثاني: في سيرة أبي الهدى التي كتبها العلامة الجليل عبد الرزاق البيطار، وهي في جملتها مستقاة من الترجمة الرسمية ، **لكنها تتفرَّد بذكر لقاء البيطار بأبي الهدى وانطباعاته عنه.**

القسم الثالث: في سيرة أبي الهدى التي كتبها خصمه الشاعر الناثر ولي الدين يكن ، وهذه الترجمة تناقض ما كتبه الشيخ عن نفسه ، ولكنها تعترف لأبي الهدى بالذكاء والدهاء والسلطان.

ومما تفردت به هذه الترجمة ذكر الصداقة الحميمة التي قامت بين جمال الدين الأفغاني وأبي الهدى الصيادي في بادىء الأمر قبل أن تنقلب إلى عداوة سافرة.

قال ولي الدين: «وكان المرحوم جمال الدين الأفغاني صديقاً لأبي الهدى، وكان كلٌّ يخاطب صاحبه بيا بن العم، ولا يصبر أحدُهما على فراق الثاني يوماً واحداً، فسعى بينهما بالنميمة عبد الله النديم، حتى تنافرا، وبلغت منهما العداوة والبغضاء أن بات كلٌّ يطلب موت بغيضه»(١).

القسم الرابع: في ترجمة أبي الهدى للشاعر قسطاكي الحمصي، الذي زار إستانبول سنة (١٨٩٨) من أجل متابعة دعوى أقامها على المصرف العثماني لاختلاف مالي، فنقل المصرف الدعوى إلى إستانبول، حيث يستطيع أن يربحها بنفوذه، وفي إستانبول تعرَّف الشاعر الحمصي على أبي الهدى الصيادي، فأعانه على الوصول إلى حقه، وأكرمه، فكان لما رآه من أبي الهدى أثر عميق في نفسه، تجلَّى ذلك في هذه الترجمة التي ترضي صاحبها وتطريه.

القسم الخامس: في ترجمة أبي الهدى للأستاذ محمد كرد علي، وقد تميزت هذه الترجمة بالقصة التي حكاها كرد علي عن والده، تبيِّن سرَّ وصول أبي الهدى إلى السطان، وقد شاعت وذاعت، ونقلها كثير من المؤرخين على الرغم من غرابتها!!

---

(١) انظر ص (٩٣) من هذا الكتاب.

القسم السادس: في سيرة أبي الهدى للعلامة اللغوي الفقيه الشيخ محمد سليم الجندي المعري رحمه الله تعالى ، **وهذه الترجمة هي أهمُّ ما كُتب في سيرة أبي الهدى ، لأن الجندي هو ابن الناحية التي منها أبو الهدى ، فتقصَّى أخباره ، وأخبار أسرته ممَّن يعرفونه ، وألقى الأضواء على نسبه ونشأته ، وتعصبه لأقاربه ، كما ذكر بعض الحوادث التي اقترفها أقارب الشيخ ، وأساءت إليه ، والجنديُّ إمام مدقق ثقة منصف.**

القسم السابع : في ترجمة أبي الهدى الصيادي للعلامة الكبير الشيخ عبد الحي الكتاني من كتابه الجامع «فهرس الفهارس» وفيه ذكر لشيوخ أبي الهدى كالشيخ محمود الحمزاوي وغيره ، وفيه أن الرواس هو عم أبي الهدى! وأشياء أخرى.

القسم الثامن : في ترجمة أبي الهدى للشيخ عبد الحفيظ الفاسي من كتابه «رياض الجنة» وقد نقل فيها عن الشيخ الطباخ رحمه الله الطعن في عدالة أبي الهدى ، وتشكيكه في الرّواس[١].

القسم التاسع : في ترجمة أبي الهدى للدكتور سامي الكيالي ، وهي محاضرات ألقاها في المعهد العالي لجامعة الدول العربية ، وألقى فيها الضوء على سيرة ومكانة أبي الهدى الأدبية.

---

(١) ليس الرواس إلا اسماً مستعاراً لأبي الهدى الصيادي.

القسم العاشر : في ترجمة أبي الهدى للأستاذ أدهم الجندي من كتابه «أعلام الأدب والفن» . وفيه أضواء على اهتمام أبي الهدى بالموسيقا .

القسم الحادي عشر: ويتضمن طرائف وأخبار عن أبي الهدى الصيادي ، التقطتها من بطون الكتب ، وهي في جملتها تكشف جوانب هامة عن شخصيته .

عملي في الكتاب:

١ ـ استخراج هذه النصوص من مظانِّها ، وتصحيحها ، والتعليق عليها ، وتبويبها . ـ وقد جعلت تعليقاتي بين حاصرتين تمييزاً لها .

٢ ـ ترجمت لأصحاب هذه النصوص . وأرفقت كل ترجمة بصورة صاحبها .

٣ ـ زودت الكتاب بصور لبعض الأعلام الذين كان لهم شأن مع أبي الهدى .

٤ ـ إعداد الفهارس اللازمة .

وأختم مقدمتي بما قاله مؤرخ حلب الشهير الشيخ محمد راغب الطباخ في أبي الهدى الصيادي في كتابه «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» (٧ : ٣٣١) :

وإنَّا ـ وايم الله ـ لنأسف على ذكائه المفرط ، وسَعة مداركه ، وفضله الجمِّ ، وما أوتيه من واسع الجاه ، ورفيع المكانة لدى السلطان عبد الحميد ـ أن يصرفَ ذلك في ترويج بضاعته ، ونفاق سلعته ، بحيث قضت أحواله وأطواره أن يسيء الناسُ اعتقادَهم بمن تقدم ، ويقيسوا الحاضر على الغائب .

ولو كان صرَف عنايتَه إلى إصلاح الأمة الإسلامية ، ولمِّ شعثها ـ وإنه (والحق يقال) ممن توفرت لديه الأسباب، وتمهّدت له السبل ، ومدَّت له السعادة يدها ، وانقادت له أزمتها ـ لأتى في ذلك بالآيات البينات ، ولحمدت سيرتُه في دنياه ، وجوزي بالحسنى في أخراه ، وخلَّد في بطون الأسفارِ ذكرى حسنةً ، تتناقلها الأجيال ، ولا يمحوها مرور الأيام والليالِ .

وأخيراً الشكر الجزيل لأخي الأستاذ مجد مكي الذي أبدى اهتمامه بهذا الكتاب ، وزودني بترجمة أبي الهدى عند الفاسي وأدهم الجندي ، فجزاه الله كل خير .

وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب طلاب الحقائق إنه نعم المولى ونعم المسؤول وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دمشق ٢١/ ٥/ ١٤٢٠هـ
١/ ١٠/ ١٩٩٩م

حسن السماحي سويدان



أبو الهدى الصيادي في شبابه

القسم الأول

سيرة أبي الهدى الصيادي

كما دوّنها بنفسه



السيد أبو الهدى الصيادي في كهولته

ترجمة

السيد محمد أبي الهدى الصيادي أفندي الرسمية

رضي الله عنه وقدس سره

نسب سماحة السيد محمد أبي الهدى الصيادي إلى جده سيد الوجود صلى الله تعالى عليه وسلم موشحةً بالخطّ الشريف السلطاني ، مطرزةَ الأطرافِ بخطوطِ جحاجحةٍ[1] كثيرينَ ، من العلماءِ العاملينَ ، والسادةِ الأشرافِ الشهيرينَ على مَرِّ القرونِ والأعصارِ ، وتبايُنِ المواطنِ والأمصار :

فنقول : هو السيد محمد أبو الهدى أفندي ابنُ شيخنا الأستاذ الكبير السيد حسن وادي أفندي ، ابن السيد علي خزام ، ابن السيد حسين برهان الدين ، ابن السيد عبد العَلّام ، ابن السيد عبد الله شهاب الدين ، ابن السيد محمود الصوفي ، ابن السيد محمد برهان ، ابن السيد حسن الغوّاص ، ابن السيد محمد شاه ، ابن السيد محمد خزام ، ابن السيد نور الدين ، ابن السيد عبد الواحد ، ابن السيد محمود الأسمر ، ابن السيد حسين

---

(١) [سادة] .

العراقي ، ابن السيد إبراهيم العربي ، ابن السيد محمود ، ابن السيد عبد الرحمن شمس الدين ، ابن السيد عبد الله قاسم نجم الدين المبارك ، ابن السيد محمد خزام السليم ، ابن السيد شمس الدين عبد الكريم ، ابن السيد صالح عبد الرزاق ، ابن السيد شمس الدين محمد ، ابن السيد صدر الدين علي ، ابن القطب الجواد سبط سيد الأقطاب الإمام الرفاعي مولانا السيد عزّ الدين أحمد الصياد ، ابن السيد ممهّدِ الدولة والدين عبد الرحيم ، ابن السيد عثمان ، ابن السيد حسن ، ابن السيد عسلة ، ابن السيد الحازم ، ابن السيد أحمد ، ابن السيد علي المكي ، ابن السيد رفاعة ، ويُقال له الحسن ، نزيل المغرب ، ابن السيد المهدي ، ابن السيد أبي القاسم محمد ، ابن السيد الحسن ، ابن السيد الحسين ، ابن السيد أحمد ، ابن السيد موسى الثاني ، ابن السيد إبراهيم المرتضى ، ابن السيد الإمام موسى الكاظم ، ابن السيد الإمام جعفر الصادق ، ابن السيد الإمام محمد الباقر ، ابن السيد الإمام زين العابدين ، ابن السيد الإمام الحسين السبط شهيد كربلاء ، ابن السيد الإمام الغالب حضرة سيدنا أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وكرَّم الله وجهه ، رُزِقَه من السيدة البتول الزهراء سيدتنا فاطمةَ ـ رضي الله عنها ـ بنتِ سيِّدِ المرسلين ، ورسولِ ربِّ العالمين ،

سيدِنا وسيدِ المخلوقين محمَّدٍ صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم ، وعلى جميعِ النبيين والمرسلين ، وآلِ كلٍّ وصحبِ كلٍّ أجمعين .

[مولده ، وعلوّ نجمه]

● كان ميلاد السيد أبي الهدى أفندي في رمضان سنة (١٢٦٦) في خان شَيْخون من أعمال معرَّة النعمان من لواحقِ ولايةِ سوريةَ يومئذٍ ، وهي الآن ملحقةٌ بولاية حلب .

● وكانت أولُ وظيفةٍ رسمية تولاها هي التوليةَ على خان شيخون ، فوُجِّهت إليه توجيهاً شرعياً بحُكم محكمةِ ولايةِ سوريةَ ، وذلك في سنة (١٢٨٥) تقريباً ، وعمره يومئذ (١٩) سنة .

وقد نصّتْ حجةُ التوليةِ الشرعيةِ على نسبِه الشريفِ من الجهتين إلى الإمام الصياد بن السيد الرفاعي ـ رضي الله عنه ـ ولسيدنا خالد بن الوليد[١] ـ رضي الله عنه ـ من جهةٍ ! وهي وظيفةٌ تُعطَى لصاحبِ الثقةِ العموميةِ ، والمنزلةِ في القلوب ، ولا تزالُ وظيفتُه إلى الآن ، ووكيلُه فيها عبد الرحمن أفندي ، ابن المرحوم أحمد آغا الحسن ، حاكم خان شيخون السابق .

● وفي (١١) ربيع الأول سنة (١٢٨٧) وُجِّهت إليه نقابة أشراف قضاء جسر الشغور ، المضافة إلى ولاية حلب ، وصدر

(١) [انقرض نسل سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه في العصر الأول] .

له منشورُ النقابةِ من قِبل نقيبِ عمومِ الأشرافِ في دارِ الخلافة عندَ قدومِه إليها أولَ مرةٍ ، حيثُ كان قَدِمَ إليها بشأن أوقافِ الحضرة الصيادية ، وعمره يومئذٍ إحدى وعشرون سنةٍ.

● وفي سنة (١٢٨٩) نال رتبة مولوية أزمير ، بمقتضى فرمانٍ عالٍ سلطانيٍّ ، وذلك بناءً على إنهاء[1] نقابة الأشراف الجليلة في دارِ الخلافةِ ، وهي أولُ رتبةٍ نالها ، وسنُّه يومئذٍ ثلاثٌ وعشرون سنة.

● وفي تلك السنة وليّ قاضياً على جسر الشغور ، مع بقاء نقابة أشرافها في عُهدته ، ووجِّه إليه منشورُ المشيخةِ الجليلةِ الإسلاميةِ ، وذلك بإنهاء الولاية.

● وفي سنة (١٢٩١) عُيِّنَ نقيبَ أشرافِ عموم ولاية حلب ، بمقتضى منشورِ نقيبِ عمومِ الأشرافِ في دار الخلافة حين زارها للمرّة الثانيةِ ، وعمره يومئذٍ (٢٥) سنة ، وقُدِّمت التشكرات من جميع أشرافِ ولايةِ حلب وأركانها للمقامات العالية ، وهي محفوظة في الأغلب تحت اليد.

● وفي سنة (١٢٩٢) عُيِّن لعضويةِ مجلسِ المعارفِ ، وعضويةِ مجلسِ التدقيقاتِ الإدارية في نفس حلب ، بمقتضى

---

(١) [اقتراح].

أمرِ الوالي يومئذٍ الوزير أسعد مُخلص باشا [1]، مع بقاء النقابة، وعمره يومئذ (٢٦) سنة.

• وفي تلك السنة أحسنَ عليه جلالة المرحوم **السلطان عبد العزيز خان** بمعاشٍ خصوصيٍّ، بمقتضى فرمان عالٍ، نعتَه فيه بأنّه من السلالة الطاهرة الرفاعية، وضُمَّ إليه على معاشه من النقابة، وسُجِّل ذلك في المحكمة الشرعية، مُطرَّزاً ذلك التسجيلُ بذكرٍ نسبه الطاهر، تحت ختم منير بك زاده، وراغب بك قاضي الولاية يومئذٍ، وهو من أصحاب باية الحرمين، وكان مجموعُ معاشه الشهري يومئذٍ لا يقلُّ عن ثلاثةِ آلافٍ وستمئة غرشٍ في ولاية حلب.

• وفي أواخر هذه السنة فَوَّض له حضرةُ نقيب أشرافِ دارِ الخلافةِ النظرَ على نقباءِ أشرافِ ولاياتِ سورية وديار بكر وبغداد والبصرة بمقتضى أمرِه الرسميِّ، وهو يومئذٍ في حلب.

• وفي سنة (١٢٩٣) فَوَّض له نقيبُ الأشرافِ في دار الخلافة أن يُعطي هو بنفسِه منشورَ النقابةِ لجميع النقباءِ في ولاية حلب، وصدرَ بذلك إشعارٌ رسميٌّ من نقيبِ الأشرافِ يومئذٍ مصطفى عزت أفندي المرحوم المشهور، ووصلَ ذلك إلى والي الولاية

---

(١) [لا شك أن لهذا الوزير دور كبير في ترشيح أبي الهدى للدور الذي قام به، لما عرف من ذكائه ودهائه ونشاطه وطموحه].

الوزير يومئذٍ كامل باشا، وهذا أصدرَ أوامِرَه بذلك إلى الملحقات عموماً، وأُعلن في جريدة «فرات» الرسمية، وسنه يومئذٍ سبع وعشرون سنة، وهذا الأمر محفوظ في اليد إلى الآن.

● وفي أواخر تلك السنة عيَّنَه الصدرُ الأعظم وقتئذٍ رئيساً على القومسيون الخصوصي، الذي كان شكّلَه لحسم المنازعات الزراعية بين الزُّراع وبين الأكابرِ والأعيانِ، وذلك بمقتضى أمرِه الرسميِّ المحفوظ إلى الآن.

● وفي سنة (١٢٩٤) وجُهِّت إليه باية الحرمين الشريفين بالإرادة السنية من لدن جلالة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين أيده الله [١]، وقدمَ إلى الآستانة العليةَ لمصالح النقابةِ، وفي تلك الأثناء دُعي لشرف الحضورِ الأقدسِ السلطانيِّ بواسطةِ **نافذ باشا المشير السرقرناءَ** [٢] **يومئذٍ**، وهي أولُ مرة فاز فيها بشرفِ المثولِ بين يدي جلالته، وسنُّه يومئذٍ ثمان وعشرون سنة، وقضَى حوائجه، وتعطَّف عليه، وأَمَره بملازمة خدمة أعتابه مرة أو مرتين في كل أسبوع، وأغدقَ عليه نعمته.

● وبعد إقامتهِ مُدةً يسيرةً استأذنَ جلالته في السفر، فمنعه،

---

(١) [السلطان عبد الحميد الثاني].

(٢) [القرناء: الحاجب].

ونصّبه رئيسَ مجلس المشايخ في نفس دار الخلافة ، وبموجب الإرادة السنية ، وحُرِّرَتْ له التذكرةُ الرسميةُ من شيخ الإسلام المرحوم خليل أفندي.

● وفي أواخر هذه السنة تُوفيت والدتُه المرحومة [1]، فاستأذنَ في السفر ، وعاد إلى حلب ، وبعدَ إقامتهِ فيها دونَ الأربعة أشهر صدرتْ الإرادةُ السنيةُ التلغرافية إلى والي حلب يومئذٍ بتوجيهه لدارِ السعادة معزَّزاً مكرَّماً ، وكان يصحب معه عند عودته لحلب رقيمَ توصيةٍ بالأمر العالي من الباشكتابة الجليلةِ ، بختم المرحومِ علي فؤاد بك أفندي.

وفي أثناء غيبتهِ عن الآستانة أشاع بعضُ الحاسدينَ ما أكنَّه في صدرِه فكذَّبهم الحال.

● وعند ورودِ الإرادةِ السنيَّةِ بعودته لدارِ الخلافةِ كتب له سمو كامل باشا تذكرةً بخطِّه بالعربيةِ يُبشِّرهُ بذلك ، ويقول له: إنّ ذلك يعودُ عليكم وعلى مُحبيكم بالخير ، بهمة والدكم السيد الجليل ، وهي محفوظة بخط سموه.

● ولما عاد لدار الخلافة أنزله جلالةُ مولانا الخليفة الأعظم ضيفاً كريماً في منزل المرحوم عثمان بك أفندي السرقرناء ،

---

(١) [صُليح من عرب السماطية. انظر ص (١٦٠) من هذا الكتاب].

وأكرمَ مثواه ، وبعد مُدة يسيرة خَصَّص له منزلاً مخصوصاً ، وأمره باستجلاب عائلته ، وكُتِبَ لحضرة الوالي تلغرافياً بذلك من رئاسة القرناء ، وأجرى له المرتّبات العظيمةِ.

● وفي سنة (١٢٩٥) أمر جلالةُ الخليفةِ الأعظمِ باستجلاب والده السيد المرحوم بتلغرافٍ عالٍ للولايةِ فحضرَ ، وأكرمَه غايةَ الإكرام.

● وفي سنة (١٢٩٦) أمرَ جلالةُ مولانا الخليفة الأعظم بقراءة درس العقائد والحديث في الحضورِ الشريفِ بصورةٍ خصوصيةٍ، وذلك بمقتضى إرادةٍ سنيةٍ.

● وفي تلك السنة وجُهِّتْ إليه باية إستانبول الرفيعة ، مع النيشان الثاني المجيدي ، بمقتضى الفرمان العالي.

● وفي أواخر تلك السنة وجُهِّتْ إليه رتبة قضاء عسكر الأناضول ، والنيشان المجيدي الأول ، وصار من الصدور ، وله من العمر يومئذ إحدى وثلاثون سنة.

● وفي سنة (١٢٩٨) أنعمَ عليه بالنيشان العثماني الثاني.

● وفي سنة (١٢٩٩) زيدتْ مرتّباته إلى مثلها مرة واحدة بإرادةٍ سلطانية.

● وفي سنة (١٣٠٠) وُظِّفَ للنظارة على إقراءِ حضراتِ

الشهزادِ[1] أركان العلومِ الشريفةِ الشرعيةِ.

● وفي سنة (١٣٠١) أُمِرَ بتأليف بعضِ كتبٍ شرعيةٍ، فنسجَها على أحسنِ منوالٍ، وتمت في سنة (١٣٠٢).

● وفي اليوم الثالث من رمضان سنة (١٣٠٢) أُحسنَ إليه برتبة قضاء عسكر الروملي، وهي منتهى المراتب العلمية.

● وفي سنة (١٣٠٣) أُحسنَ إليه بالبرنجي العثماني، وبضمائم بعض المرتبات.

● وفي سنة (١٣٠٤) تراأس على لجنةٍ علميةٍ في السراي السلطانية، لفحص بعضِ الشؤون الشرعية.

● وفي سنة (١٣٠٥) أمره جلالةُ أميرِ المؤمنين بتلاوة «شرح العقائد» في الحضور العالي بصورةٍ خصوصيةٍ، وأحسنَ إليه بمداليتي الامتياز الذهبية والفضية.

● وفي سنة (١٣٠٦) أُحسنَ إليه بميدالية اللياقةِ الذهبيةِ، وهي من أخصِّ الميداليات العُليا، وأُحسن إليه بالنيشان العثماني المرصَّع.

● وفي سنة (١٣٠٧) أُحسِنَ إليه بالمنزل العامر، وأُحسِنَ إليه باستثناء العائلة الرفاعية من العسكرية، أسوةً بالعائلة المولوية القادرية، وصدر له الفرمان العالي، وفيها تعلّقتْ

---

(١) [أبناء السلطان].

الإرادةُ السنيةُ لإعمارِ المقامِ الرفاعيِّ الكريمِ من الجيبِ الهمايوني.

● وفي سنة (١٣٠٨) صدرت إرادةٌ سنيةٌ بتعمير عدِة تكايا منسوبة إليه، منها في حلب، ومنها في غيرها، وَوُجِّهت باية إستانبول الرفيعة لابن عمِّه حضرة السيد سعيد أفندي الرفاعي نقيبِ أشرافِ البصرةِ.

● وفي سنة (١٣٠٩) وُجِّهت باية مكة المكرمة لأخيه حضرة السيد عبد الرزاق أفندي، ورتبةُ الأولى الأول لأخيه الآخَر السيد نور الدين أفندي، وأُحسِنَ عليه بالمرصَّعِ المجيدي، وعلى السيد سعيد أفندي المشار إليه بالمرصَّعِ العثماني.

● وفي سنة (١٣١٠) صدرت أوامر بإعمارِ ضريحِ السيد سلطان علي والد السيد الرفاعي الكبير، وأُجريتْ له المرتباتُ السلطانيةُ العظمى.

● وفي سنة (١٣١١) حصلت العنايةُ السلطانيةُ بزيادةِ مرتباتهِ[1]، وبإعطاء الرتبةِ الأولى لنجلهِ الكريم السيد حسن خالد بك أفندي، وعُيِّن صهرُه السيد سيف الدين أفندي الكيلاني القادِري عضواً في المعارف، وأعطِيَ المرصَّع العثماني للسيد سعيد أفندي المشار إليه.

---

(١) [إلى أن بلغت (٤٥٠٠) قرش].

● وفي سنة (١٣١٢) صدرتْ الإرادةُ السنيَّةُ بترفيعِ رتبةِ أخيه السيد نور الدين أفندي إلى رتبة بالا، وبتلطيفِ[1] عِدةٍ من أقاربه.

● وفي سنة (١٣١٣) أُحسِنَ عليه بنيشان الافتخار المرصَّع، ولأخيه السيد عبد الرزاق أفندي ببابة إستانبول الرفيعة.

● هذا هو حال السيد محمد أبي الهدى أفندي الرسمي، وهذه هي شهادة الدولة، وهذه هي ثقة ملجأ الخلافة العظمى، وها هو لا يزال متمتعاً برضى جلالة الحضرة السلطانية، فما عسى أن يقول أولئك المتقولون؟!

● أمَّا تعلُّقه بالعائلات المناسبة له فهي على ما يأتي:

فإنه صاهر السادة القصيرية المشاهير في سنة (١٢٨٧). وصاهر العائلة البدرخانية في سنة (١٢٨٩)، ومصاهرته للسادة الكيلانية كانت في سنة (١٢٩٤).

و[صاهر أشرف بك بن ويس باشا] في سنة (١٢٩٦)[2].

وهذه هي أعظم العائلات في سورية وكلها حريصٌ على الكفؤ العظيم.

---

(١) [إرسال اللطائف وهي الهدايا].

(٢) انظر عن زيجات أبي الهدى ص (١٧٣ ـ ١٧٤) من هذا الكتاب.

بعض تآليف السيد محمد أبي الهدى الصيادي

١ ـ كتاب «نفحة الرحمن في تفسير القرآن».

٢ ـ «المجد المخلَّد في أسرار اسم سيدنا محمد» ﷺ.

٣ ـ «ضوء الشمس في شرح قوله ﷺ: بُني الإسلام على خمس».

٤ ـ «قلائد الزبرجد على حِكَمِ الغوث الشريف الرفاعي أحمد».

٥ ـ «قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر».

٦ ـ «تنوير الأبصار في طبقات السادة الرفاعية الأخيار».

٧ ـ «نور الإنصاف في كشف ظُلمة الخِلاف».

٨ ـ «سلسلة الإسعاد في آل الصياد الأمجاد».

٩ ـ «هداية الساعي في سلوك طريقة الغوث الرفاعي».

١٠ ـ «بغية أولي الأفهام في الفرق بين الحال والمقام».

١١ ـ «الفجر المنير فيما ورد عن لسان الغوث الرفاعي الكبير».

١٢ ـ «المصباح المنير في وِرْدِ السيد الرفاعي الكبير».

١٣ ـ «طريق الصواب في الصلاةِ على النبيِّ الأواب».

١٤ ـ «قُـرَّة العين في مديح الغوث أبي العلمَين».

١٥ ـ ديوان «الفيض المحمدي والمدد الأحمدي».

١٦ ـ الديوان الثاني المسمى «التبيان الجامع بين الحِكمة والبيان».

١٧ ـ الديوان الثالث المسمى «الدر المنتظم مختصر براهين الحِكَم».

١٨ ـ الديوان الرابع المسمى «مرآة الشهود في مدح سلطان الوجود» ﷺ.

١٩ ـ «حضرة الإطلاق في مكارم الأخلاق».

٢٠ ـ «داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد».

٢١ ـ «المدنية الإسلامية في الحِكَمة الشرعية».

٢٢ ـ «تطبيق حُكم الطريقة العلية على الأحكام الشرعية النبوية».

٢٣ ـ «الواعظ المعرب في حقيقة المسلم المتأدب».

٢٤ ـ «الفرائد في العقائد».

٢٥ ـ «الصراط المستقيم في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم».

٢٦ ـ «الحقيقة المحمدية في شأن سيد البرية».

٢٧ ـ «الكوكب الزاهر في مناقب الغوث عبد القادر».

٢٨ ـ «المدد النبوي في حكم العهد العلوي».

٢٩ ـ «قلادة النحر في شرح حزب البحر».

٣٠ ـ «النخبة في أحكام النسبة».

٣١ ـ «روح الحِكمة فيما يجبُ من الأخلاق على هذه الأمة».

٣٢ ـ «سياحة القلم في الحكم».

٣٣ ـ «سلسلة النجاح».

٣٤ ـ «المُشجَّر الأكبر في آل النبي الأطهر»[(١)].

٣٥ ـ «مطالع البدور في جوامع كَلِم الغوث الرفاعي الغيور».

٣٦ ـ «عقود الجواهر في النسب الصيادي الطاهر».

٣٧ ـ «وسيلة العارفين في أخبار سيدنا القطب الجامع المهدي بهاء الدين».

٣٨ ـ «الجوهر الشفاف في طبقات السادة الأشراف».

٣٩ ـ «أسرار الوجود الإنساني».

٤٠ ـ «العقد النضيد في آداب الشيخ والمريد».

٤١ ـ «شفاء صدور المؤمنين في هدم قواعد المبتدعين»!!

٤٢ ـ «محجة السالكين».

٤٣ ـ «الروض البسام في أشهر البطون القرشية في الشام».

٤٤ ـ «ذخيرة المعاد في ذكر السادة بني الصياد».

٤٥ ـ «القواعد المرعية في أصول الطريقة العلية الرفاعية».

---

(١) في الأصل (المشجر الأنور) والتصويب من عدة مصادر منها الكتاني والفاسي.

٤٦ ـ «رسالة في التواتر».

٤٧ ـ «العناية الربانية في مُلخّص الطريقة الرفاعية».

٤٨ ـ «فرحة الأحباب في أخبار الأربعة الأقطاب».

٤٩ ـ «كشف نقاب الإشكال عما زعمه الجهال في كلمة الخلخال».

٥٠ ـ «القلادة العسجدية».

٥١ ـ «غُنية الصادقين في طريقة الصالحين».

٥٢ ـ «غنيمة الطالبين في سلوك طريقة شيخ العارفين».

٥٣ ـ «حديقة الفتح في ذكر الشطاحين والشطح».

٥٤ ـ «السهم الصائب لكبد من آذى أبا طالب».

٥٥ ـ «إبهات الجاحد في إثبات خرق العوائد».

٥٦ ـ «تاريخ الخُلفا ورّاث النبي المصطفى».

٥٧ ـ «آيات العرفان في مولد سيد ولد عدنان».

٥٨ ـ «الفتح الرباني في مناقب الشيخ حسن القطناني».

٥٩ ـ «الغارة الإلهية في الانتصار للسادة الرفاعية».

٦٠ ـ «النور الجلي في أخبار والد سيدنا الإمام الرفاعي مولانا السيد السلطان علي».

٦١ ـ «شفاء الصدور في الفرق بين مرتبتي الخفاء والظهور».

٦٢ ـ «التاريخ الأوحد للغوث الرفاعي الأمجد»[١].

٦٣ ـ «تعطير الشام في أخبار مولانا السيد علي بن خزام» قدس الله سره.

٦٤ ـ «بهجة الزمان في مآثر خليفة سيد ولد عدنان».

٦٥ ـ «عقود الألماس في المشرب الأحمدي الذي كان عليه القطب الرّواس» رضي الله عنه.

٦٦ ـ «النفحات المحمدية في الأحاديث الأربعين الأحمدية».

٦٧ ـ «آداب المسلمين المأخوذة عن سيد المرسلين» ﷺ.

٦٨ ـ «التحفة الهدائية في السُّنن النبوية».

٦٩ ـ «شفاء القلوب بكلام النبي المحبوب» ﷺ.

٧٠ ـ «الطريقة الرفاعية».

٧١ ـ «عقائد السادة الحنفية».

٧٢ ـ «السِّيرة الأحمدية».

٧٣ ـ «الحق المبين في إبهات الحاسدين».

٧٤ ـ «تعطير المحاضر في أخبار الأقطاب الأربعة الأكابر».

---

(١) [وقد ألحقتْ هذه الترجمة بهذا الكتاب].

٧٥ ـ «برهان الرحمن».

٧٦ ـ «الكليات الهدائية».

٧٧ ـ «شوارد الأدب».

٧٨ ـ «أسرار الأسماء الحُسنى».

٧٩ ـ «أسرار الأرواح».

٨٠ ـ «الرواتب الأسبوعية»[١].

٨١ ـ «الكنز المطلسم في مَدِّ يدِ النبيِّ ﷺ لولده الغوث الرفاعي الأعظم» رضي الله عنه.

٨٢ ـ «الشرف الباذخ في ترجيح المشايخ».

وغير ذلك من المكاتباتِ والمراسلاتِ الأدبية، والتعليقات الشرعية والتصوفية التي كادت لا تُعد[٢].

* * *

(١) [انظر حول تقبيل اليد الشريفة هل حدث حقيقية أم وهم وخيال؟ ص٣٢٦ من هذا الكتاب].

(٢) [بلغت تآليف أبي الهدى (٢١٢) كتاباً ورسالة].

الى الاستاذ الكامل والعالم الوزير الفاضل المحب لله
والمحبوب لوجه الله الشيخ محمد عبده افندي المحترم

أخذت رسالة التوحيد منكم
فصح الاتحاد بلا اتحاد
وأعجبني اتساق الدر فيها
وجدد عهد حب في ازدياد
نعم فيها اختيارات ونسج
رقيق فيه درب للطراد
وغايتكم بما قد صين فيها
منزهة بحكم الاعتقاد
فدم فينا ودر هدى لقوم
ثمين للعباد وللبلاد

قال وكتب المستند الى ربه في جميع الدواعي
محمد ابو الهدى الصيادي الرفاعي
عفي عنه

محمد بن حسن وادي الصيادي الرفاعي

رسالة شعرية بعث بها إلى الشيخ « محمد عبده » وقد أهدى إليه هذا نسخة من كتابه « رسالة التوحيد ». والأصل من محفوظات آل سعودي بمصر.

القسم الثاني

أبو الهدى الصيادي

بقلم

عبد الرزاق البيطار



عبد الرزاق البيطار

عبد الرّزاق البيطار

(١٢٥٣ ـ ١٣٣٥هـ = ١٨٣٧ ـ ١٩١٦م)

هو عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي، المغربي الأصل، ولد بدمشق، وتلقى العلم عن والده، وأخيه عبد الغني، ولازم دروس الشيخ محمد الطنطاوي، والملا أبي بكر الكردي الشافعي. وأخذ أيضاً عن الشيخ يوسف البلباني الحسني المغربي الدمشقي، والد المحدّث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني.

رحل إلى عدة بلدان كالقاهرة، وإستانبول، والقدس، وبيروت، وكانت تربطه بالشيخ جمال الدين القاسمي صلة ودٍّ عميقة، فكانا لا يفترقان.

كان رحمه الله تعالى سلفيَّ العقيدة، إذ ألهمه الله تعالى الأخذ من الكتاب والسنة، وعدم قبول رأي دون حجة، ثم توغَّل في درس كتب السنة، وأمعن النظر في كتب شيخ

الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية ، والشوكاني ، وصديق حسن خان .

كان رحمه الله تعالى فصيحَ اللسان ، حسنَ الصوت ، جريئاً في الحق ، قوَّالاً به ، من غير محاباة ، ينزع نحو الإصلاح ، مما عرَّضه لبعض المحن .

حليته: كان طويل القامة ، جميل الطلعة ، جليل الهيبة والوقار .

مؤلفاته:

١ ـ «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» ثلاثة مجلدات طبع بتحقيق حفيده العلامة محمد بهجة البيطار رحمه الله تعالى .

٢ ـ الرحلة القدسية .

٣ ـ الرحلة البعلية .

٤ ـ المنظر البديع في رحلة الجيدور وحوران أيام الربيع .

٥ ـ المنة في العمل بالكتاب والسنة .

٦ ـ المباحث الغرر في حكم الصور .

٧ ـ اللمعة في الاقتداء حال التشهد من صلاة الجمعة .

٨ ـ شرح العقيدة الحمزاوية.

٩ ـ نتيجة الفكر فيمن درس تحت قبة النسر، وقد طبعها طبعة متقنة مع تقديم واف، وترجمة ماتعة للمؤلف أخونا الأستاذ الشيخ محمد بن ناصر العجمي حفظه الله تعالى، ومن ترجمته للمؤلف استقيت هذه الخلاصة.

* * *

أبو الهدى الصيادي

الشريف السيد الأستاذ أبو الهدى ، بن السيد حسن وادي ، ابن السيد علي الخزام ، بن السيد حسين برهان الدين الرفاعي الخالدي الصيّادي قطب مدار الفضائل ، ومجمع أسنى الشمائل ، مصباح ذوي العرفان ، ومفتاح غَيْب كعبة الوجدان ، الحسيبُ الذي علا حسبُه ذِروة العلا ، والنسيبُ الذي اشتهر نسبه بين الملا ، من سُراةٍ لهم السِرُّ الأعلى ، وحماةٍ لهم القَدْرُ الأجلى ، وأفاضلَ استوى فضلُهم على عرش الكمال ، وأماثلَ قد طار ذكرُهم في الآفاقِ ، وجال كلَّ مجال ، وطاولَ شرفُهم الحَمَلَ والميزان[1] ، وحاوَلَ الترقّي إلى ذِروةِ اليُمْنِ والإيمان ، وهو ممن تأثَّلَ مجدُه في بحبوحةِ ذلك الشرف ، وتبوَّأَ من السيادةِ أسنى الغُرف ، مرتويةٌ أفياؤه بماءِ النبوةِ ، متأرِّجةٌ أرجاؤه بعبيرِ الفتوةِ ، مع مهارةٍ في العلوم ، ومحاضرةٍ فاضَ

---

(١) [برجان من بروج الفلك ، الأول يبدأ في (٢١) آذار إلى (٢٠) نيسان ، والثاني يبدأ من (٢٣) أيلول إلى (٢٢) تشرين الأول].

فيضُها من فضلِ سَيْبِه الموسوم[١] ، وأخلاقٍ تألَّقَ جمالُها الوضّاحُ ، وأوصافٍ تأنَّقَ عبيرُ روضِها الفوَّاحُ ، وأدبٍ تردَّى[٢] بالبراعةِ وتوشَّحَ ، وشِعْرٍ ترنَّحَ للقبولِ وترشَّحَ ، وحُسْنٍ تلاعَبَ بأطرافِ الكلامِ ، وتناسُبٍ فيما تنشرُه ألسنةُ الأقلامِ ، وجمالٍ ألبسَه الكمالُ إهابَه ، وجلالٍ لو رآه الغَضَنْفَرُ الكاسِرُ في غابِهِ هابَـهُ .

فَطِنٌ لَهُ علمٌ يفيضُ ومنسبٌ ... من ضَرْعه دَرُّ النبوةِ يَـرْشَحُ
فَرْعٌ زكا مِنْ دوحةِ الشَرَفِ التي ... مِنْ فوقها وُرْقُ السيادةِ تَصْدَحُ
هذا مُلَخَّصُ نسخةِ الساداتِ مَنْ ... يثنِـي عليـه كـأنَّمـا هــو يَقْـدَحُ
انظرْ جميعَ خصالِهِ وفِعَالِه ... فجميعُهـا عِبْـرٌ لمـن يتصفَّـحُ
عجباً لـقـومٍ يـكـفرونَ بهـا ، ولـو ... عقَلُوا ، وما عقلوا الصَّوابَ ، لسَبَّحُوا

يحقُّ لعصرِه به الفخارُ ، ولمصرِه أن يتيه به على سائرِ الأمصارِ ، فهو إمامُ الكُلِّ في الكُلِّ ، لو حاولَ اللسانُ حَصْرَ أوصافِه لعجزَ وكَلَّ ، كيفَ لا ، وهو إمامٌ وابنُ إمامٍ ، وهُمامٌ وابنُ همامٍ ، وهَلُمَّ جرا ، لا تقفُ عندَ حَدٍّ ؛ حتى تنتهي إلى أشرفِ جَدٍّ ، فليسَ في نسبه إلاّ ذو فضلٍ وحِلْمٍ ، حتى تقفَ

(١) [العطاء المعروف المميز] .
(٢) [البس] .

على بابِ مدينةِ العلم[١]، وهذا فرعٌ طابقَ أصلَه ، ومتأخِّرٌ ، ولكن فاق مَنْ قبلَه ، طلَعَ في جبهةِ الدهرِ غُرةً ، فكانَ للعيونِ مسرَّةً وَقُرَّةً ، وما قارنَ هلالُه إبدارَه[٢] ، حتّى أحاطتْ به العلا داره ، فلا غَرْوَ أنْ ألقتْ إليه الرئاسة قيادَها ، وجَعلتْ إليه السيادةُ استنادها ، فأصبحَ ومرتبتُه العليا ، وعبدُه الزمان وأَمَتُه الدنيا ، وللهِ دَرُّه من عالمٍ بهرتْ حجتُه ، وبحرٍ زخرتْ لُجَّتُه ، فقذفَ لؤلؤاً ودُرّاً ، وعَمَّ الأنامَ إحساناً وبِرّاً ، وناهيكَ به من ذي منطقٍ فَصْلٍ ، وفَضْلٍ قد تأثَّلَ في الزِّيادةِ والوَصْلِ ، ولمَّا ضاعَ[٣] أَرَجُ[٤] ذكرِه نشراً ، وتهلَّلَ مُحيّا الوجودِ بسناه بِشْراً ، وانتشرَ صيتُه انتشارَ الصَّباحِ ، وتعطَّرَتْ بعبيرِ ثناهُ الفيافي والبِطاحِ ، وعَشِقَتْ أوصافَه الأسماعُ ، وأسرعَ إليه طُلاّبُ المعالي للأخذِ والسّماعِ ، دعاه مولانا السلطان ، الغازي عبد الحميد خان ، إلى حضرته العاليةِ الشريفةِ ، واستبقاهُ في بحبوحةِ نعمتِه المنيفةِ ، ونظَر إليه بعينِ عنايتِه ، وأسبلَ عليه سِتْرَ رعايتِه ، فهناكَ امتدَّ في الدنيا باعُه ، وعَمَرَتْ بكمالِ الإقبالِ عليه رِباعُه ،

---

(١) [سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه].
(٢) أي نبغ وهو من سن الشباب].
(٣) [ضاع يضوع : انتشر] .
(٤) [عطر الرائحة الطيبة] .

وقصدَه الغادي والرائح ، وخدمتهُ القرائِحُ بالمدائحِ :

هذا الهمامُ ابنُ الهمامِ أبو الهدى ... كنْزُ النَّدَى نَجْلُ النبيِّ المُجْتَبَى
هذا وحيدُ الدَّهْرِ قطبُ أولي العُلا ... شمْسُ الملا شَرْقاً بَدْتُ أو مَغْرِبا
أَلِفَ الندى، ورأى السخاءَ فريضةً ... فاعتادَ بَذْلَ المالِ مِنْ زَمَنِ الصِّبَا
إنْ تَـدْنُ آمِـلَ بـرِّهِ ونَـوالِـه ... لاقاكَ بالوَجْهِ البشوشِ وَرَحَّبَا
ذا البَحْرُ ، إنْ يممتَـهُ تَظْفَرْ بمَا ... أمَّلْتَهُ ، جرِّبْ تَرى صِدْقَ النَبَا
قَدْ قَرَّ في عَرْشِ الكمالِ سُمُّوُهُ ... فلِـذَا تَـراهُ علـى البَـريَّـةِ كَـوْكَبَـا
مِنْ آلِ بَيْتٍ قَدْ عَلَتْ أَرْكَانُهُ ... ولَهُ العُلا قَدْ قَالَ أهلاً مَرْحبا
أبقاهُ رَبِّي للأنامِ مَدَى المَدَى ... ما أشرقَتْ شَمْسٌ ، وما هَبَّتْ صَبَا

هذا ، وإنّي بحمدِ الله قد اجتمعتُ بهذا المترجَمِ الفريدِ ، حينما تشرَّفَتْ به دمشقُ الشام ، وكان قد قصدَها على قَدَمِ السيَاحةِ والتجريد ، مريداً بعدَ زيارةِ ساداتِها زيارةَ أقربائِه بني الصَّيادِ ، فحصلَ لي بالاجتماعِ بحضرتِه غايةُ المنى والإسعادِ ، غيرَ أنّ الحصةَ كانت قصيرةً ، وكانت المذاكَرةُ بيننا يسيرةً ، فلم تحصل المعرفةُ المقتضيةُ للتذكارِ ، وعلى كلِّ حالٍ ، فإنّي أَعدُّها من النِعَم الكبارِ ، وقد وَعَيْتُ من بديعِ محاضرتِه ما أدهشَ ، ورويتُ من أحاديثِ شِعْرِه ما أطربَ وأنعشَ ، وكان كثيراً ما تَرِدُ عليه أحوالٌ دالـةٌ على استشرافِه على مقامِ الكمالِ ، وإنِّي لأرجو من واهبِ العطيةِ ، أنْ يمتِّعَ بصري برؤيةِ حضرتِه

على أَحسنِ حالٍ قبلَ حلولِ المنيةَ ، إنَّه كريمٌ وهابٌ ، إذا دعاه العبدُ أجابَ .

ثم إنني أيامَ رقمي لهذا التاريخ ، طلبتُ من حضرةِ المترجَم ترجمتَه بالمراسلةِ ، لتكونَ لكتابي حِليةً لطيفةً ، ولذاتي من جملة المواصلةَ ، فأرسلَ لي حفظَه الله من تأليفاتِه الشريفةِ جملةً ، ومنها كتابه المسمّى «قلائدَ الزبرجدِ ، على حِكَمِ مولانا الغوث[1] الشريف الرفاعي أحمد» ، مذيَّلاً هذا الكتابُ بترجمةِ هذا الأستاذ ، والعمدةِ الشهمِ الملاذِ ، وهذه الترجمةُ من إنشاءِ العالم الفاضلِ ، والجِهْبذِ السَّميدَع[2] الكامل ، السيد محمدِ بن السيد عمرَ الحريري الرفاعي ، شيخِ السجَّادةِ الرفاعية ، في مدينة حماة المحمية ، فنقلتُها بحروفها من غير تغييرٍ ولا

(١) إن لفظ الغوث ـ في الكتاب والسنة وكلام العرب ، كالاستغاثة ـ إنما هو مستعمَلٌ لمعنى الطلب من المستغاث به ، وأكثرُ ما يقال: يا غياثَ المستغيثين ، ومعناه: المدرِكُ عبادَه من الشدائد إذا دعوه ، ولا يجوزُ الاستغاثة بغيرِ الله ، فيما لا يقدِرُ عليه إلاّ الله . وأما قوله تعالى ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص: ١٥] فهي استغاثةٌ عادية ، داخلةٌ في دائرة الأسباب والمسببات (بهجة).

(٢) [السيد الكريم السخي].

تبديلٍ ، كما هي مرقومةٌ ، لتكونَ نسبتُها إلى حضرةِ منشئها باقية ومعلومة .

فقال بعد خطبةٍ دخلَ بها على المرام ، وقد حذفتُها لاقتضاءِ المقام : هو العالِمُ المحقِّقُ ، والفاضلُ المدققُ ، شيخُ الطريقةِ ، وكشّافُ كلِّ حقيقةٍ ، فَرْعُ الذرّيةِ الهاشمية ، ويتيمةُ قِلادةِ السادةِ الأحمديةِ ، مجدِّدُ طريقةِ جَدِّه أبي العلمين [1]، وناشِرُ أعلامِ فضلِه في المغربَيْنِ والمشرقَيْنِ ، المالكُ زمامَ الفضائل والمعالي في كلِّ نادي ، صاحِبُ السماحةِ والسيادةِ السيد الشيخ محمد أبو الهدى أفندي ، ابن شيخِ المقام العالي الصيادي ، العارفِ الكبير ، الهمامِ الشهير السيد الشيخ حسن وادي ، ، ابن السيد الشيخ علي الخزام ، دفينِ حيش ، الولي المقدام ، ابن الولي العارفِ العالمِ المرشدِ الكاملِ السيد الشيخ حسين برهان الدين ، ابن السيد عبد العلاّم ، ابن السيد عبد الله شهاب الدين المبارك الزُّبيدي البصري الرفاعي ، ابن السيد محمود الصوفي، ابن السيد محمد برهان ، ابن السيد حسن الغوّاص ، ابن السيد الحاج محمد شاه ، ابن السيد محمد خزام دفين الموصلِ ، ابن

(١) [أبو العلمين هو السيد أحمد الرفاعي أصله من المغرب ، وسكن البطائح في جنوبي العراق ، ومات ولم يخلِّف عقباً!! كما ذكر الزركلي في الأعلام].

السيد نور الدين ، ابن السيد عبد الواحد ، ابن السيد محمود الأسمر ، ابن السيد حسين العراقي ، ابن السيد إبراهيم العربي، ابن السيد محمود ، ابن السيد عبد الرحمن شمس الدين ، ابن السيد عبد الله قاسم نجم الدين المبارك ، ابن السيد محمد خزام السليم ، ابن السيد شمس الدين عبد الكريم ، ابن السيد صالح عبد الرزاق ، ابن السيد شمس الدين محمد ، ابن السيد صدر الدين علي، ابن القطب الجواد السيد عز الدين أحمد الصياد [1]، ابن السيد ممهد الدولة والدين عبد الرحيم الرفاعي ، ابن الإمام ولي الرحمن السيد عثمان ، ابن السيد حسن ، ابن السيد عسلة ، ابن السيد الحازم ، ابن السيد أحمد، ابن السيد علي مكي ، ابن السيد رفاعة ، ويقال له: الحسن ، نزيل المغرب ، ابن السيد المهدي ، ابن السيد أبي القاسم محمد ، ابن السيد الحسن ، ابن السيد الحسين ، ابن السيد أحمد ، ابن السيد موسى الثاني ، ابن السيد إبراهيم المرتضى ، ابن الإمام موسى الكاظم ، ابن الإمام جعفر الصادق ، ابن الإمام محمد الباقر ، ابن الإمام زين العابدين علي الأصغر السَّجَّاد ، ابن الإمام الهمام علم الإسلام عين أئمة الأعلام ،

---

(١) [انظر ترجمته في «تاريخ معرة النعمان» للأستاذ سليم الجندي (٢ : ٢٣٧)].

سبط الرسول عليه الصلاة والسلام ، الذي امتُحنَ بأنواع البلاءِ ، مولانا أبي عبد الله الحسين الشهيد بكربلاء ، ابن إمام الأئمة وأمير نحل هذه الأمة ، سيد الأولياء ، وقائد أزمَّة الأصفياء ، أمير المؤمنين مولانا الإمام عليّ ، رُزِقَه من زوجته فاطمة سيدةِ نساء العالمين ، بنت سيدِ المخلوقين ، عليه أفضل صلوات رب العالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ولد -حفظه الله وحماه- سنة ألف ومئتين وست وستين ، لثلاثة أيامٍ خلت من شهر رمضان المبارك بشيخون[1] من أعمال معرَّةِ النعمان ، وقرأ القرآن وهو ابنُ سبع سنين ، ثم شرع في الكتَّاب فمهر ، وأخذ يتلقى العلوم العقلية والنقلية عن أفاضلِ الرِّجالِ الأعيان ، فأتقنَ وأحسنَ ، ثم تشرَّفَ بلبس الخرقةِ والخلافةِ الرفاعية ، من يدِ -والدِه المتقدم ذكرُه- صاحبُ الأنفاس الزكية .

وله إجازتان أيضاً بطريقتهم العلية الرفاعية الصيادية.

الأولى: من شيخه وابنِ عَمِّه أحدِ مشاهير أولياء الله ، السيد **الشيخ علي خير الله الرفاعي الصيادي شيخ المشايخ بحلب**

(١) [خان شيخون].

الشهباء[١] ، لبسَ منه الخرقة الرفاعية بإذن والده ، وأقامَ عنده بحلب مدةً ، ولا زالَ بعدها يتردَّدُ لزيارتِه في أغلبِ أوقاتِه ، مستمداً فيوضاتِ نفحاتِه ، وصالحِ دعواتِه ، حتى حازَ بحمد الله منه على تمامِ رضاه ، وآذنَه بما لديه ، ففاز به محفوظاً بعناية الله .

والثانية: من حضرة شيخه الأجل الولي الأكمل ، غوث زمانه ، وشيخ أهل عصره وأوانه ، طاهرِ الأنفاس ، المستأنسِ بربه ، المستوحشِ من الناس ، مولانا السيد الشيخ **محمد بهاء الدين مهدي الشيوخي الصياديّ الروّاس**[٢]، لبسَ منه الخرقة عام تشريفه بغدادَ دارَ السلام ، وتمَّم السلوك على يديه ، وأخذَ عنه العلومَ الشرعيةَ والتصوفيَّةَ ، وحفظَ جميعَ كلامه المنظوم ، بعد الوقوف على كنوزِ حقائقِه الدريَّة ، ورموزِ معاني دقائقه الخفيَّة ، ولما استوفى سلوكَه في الطريقة ، وملكَ زمامَ الكَشْفِ عن مضمَرات كلِّ حقيقةٍ ، آذنَه بالرجوعِ لوطنِه وديارِه ، لنشرِ الطريق المبارك ، وقال له يوم وداعه :

دخلتَ لِحَانِنَا فاشْطَحْ وغَنِّي ، أنـتَ ، وحَقِّنَـا ، عَنَّـا تَنُـوْبُ

فعاد مصحوباً بالسلامة للديار الحلبية ، وعمَّتها بسببها بركةُ الحضرة الرفاعية .

---

(١) انظر ترجمته في «الأعلام النبلاء» للطباخ (٧: ٣٢٧).

(٢) [أغلب المؤرخين يعتبرون الرّواس شخصية من اختراع أبي الهدى] .

وبعد رجوعِه ببرهةٍ يسيرةٍ، حضرَ[1] دارَ السعادة، مركز الخلافة الإسلامية ، فنشرَ بها علمَ الطريقةِ العليَّةِ ، وانتسبَ له أفاضلُ النّاسِ ، لعلمهم أنّ طريقَهُ المبارَكَ قامَ على أساسٍ من العرفانِ والشرعِ وأيِّ أسَاسٍ، وعادَ منها بنقابةِ أشرافِ جِسْرِ الشغورِ من أعمالِ حلب ، فانعطفتْ له الأنظارُ والقلوبُ بحسن الطلبِ .

ثم بعدَ برهةٍ يسيرةٍ وَلِيَ نقابةَ الأشرافِ بحلبَ الشهباء ، وأقبلَ على تعظيمِه واحترامِه بها الفقهاءُ والفقراءُ ، وفي هذه الأثناء لا زال يحضرُ[2] إسلامبول المحروسةَ ، ذات الأطلال المأنوسة ، ويترقَّى في المراتبِ العلميةِ ، ويعظم اشتهاره لدى رجال الدولة العلية ، حتى بلغَ أمرُه الخليفةَ المعظمَ ، ظِلَّ الله في العالم[3]، وارثَ سريرِ خلافةِ سيِّدِ المخلوقين نبينا وسيدنا محمد ﷺ ، ناصرَ الشريعةِ الغَرَّاء ، وناشرَ ألويةِ الطريقةِ السمحاءِ ، خادمَ الحرمين الشريفين ، إمامَ المشرقَيْنِ والمغربَيْنِ ، السلطانَ ابن السلطانِ ، السلطانَ الغازي عبدَ

---

(١) [في الأصل (حظر)].

(٢) [في الأصل (يحظر)].

(٣) هذا الوصف وأمثاله للخليفة، هو الذي كان متعارفاً في ذلك العهد، وكان لا بُدَّ من إثباتهِ في أي كتابٍ مخطوطاً كان أم مطبوعاً. وقد رأى المجمع العلمي بدمشق طبع هذا الأصل كما هو، ليكون مرآةً لذلك العصر (بهجة).

الحميد خان ، ابن السلطان الغازي عبد المجيد خان ، خلَّدَ اللهُ خلافتَه بالتوفيق إلى آخر الدوران ، آمين .

فأحضره لديه ، وعطفَ بكليته عليه ، وقلَّدَه مشيخةَ المشايخ في دار الخلافة العلية ، وألحقَه إلى رتبةِ قضاءِ العسكر ، التي هي منتهى المراتب العلمية ، ومع كلٍّ هذا ما برحَ منعكفاً على خدمةِ الطريقِ الشريفِ ، مشتغلاً ـ بفضلِ الله ـ بإعلاءِ منارِ الشرع العالي بالتصنيفِ والتأليفِ ، حتى ألَّفَ الكتبَ الجليلةَ الكثيرةَ ، والرسائلَ الظريفةَ الوفيرةَ ، وقد حرَّرَ أكثرَها الطبعُ ، بأحسنِ شَكْلٍ وأجملِ وضعٍ ، وها هي بحمدِ اللهِ بأيدي المسلمين ، ينتفعُ بها العوام والخواص من الموحدين ، لأنها مشحونةٌ بالأصلِ الديني المتين ، محفوظةٌ مصونةٌ من شُبَهِ أرباب الغلو في الدين ، مرفوعةُ القواعدِ على أساسِ الكتاب والسنة السنية!! رافعةٌ أعلامَ المجد والمفخرةِ لعامة الملَّة الإسلامية ، ولخاصة الفرقة الزكية الرفاعية ، منها :

١ ـ كتاب «ضوء الشمس في قوله ﷺ بني الإسلامُ على خمس» .

٢ ـ و«قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر» .

٣ ـ و«سلسلة الإسعاد في تاريخ بني الصياد» .

٤ ـ و«داعي الرشاد إلى سبيل الاتحاد» .

٥ ـ و«هداية الساعي في سلوك طريقة الغوث الرفاعي» .

٦ ـ و«رسالة في التواتر».
٧ ـ و«الفجر المنير فيما وَرَدَ على لسان الغوث الرفاعي الكبير».
٨ ـ و«المصباح المنير في ورد شيخ الأولياء السيد أحمد الرفاعي الكبير».
٩ ـ وديوانه «الفيض المحمدي والمدد الأحمدي».
١٠ ـ وكتاب «الصراط المستقيم في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم».
١١ ـ و«الحقيقة المحمدية في شأن سيد البرية».
١٢ ـ و«المدد النبوي في بيان حكم العهد العلوي».
١٣ ـ و«روح الحكمة فيما يجب من الأخلاق على هذه الأمة».
١٤ ـ و«المدنية الإسلامية في الحكمة الشرعية».
١٥ ـ و«تطبيق حكم الطريقة العلية على أحكام الشريعة النبوية».
١٦ ـ و«سياحة القلم في الحكم».
١٧ ـ و«الواعظ المعرب عن حقيقة المسلم المتأدب».
١٨ ـ و«السهم الصائب لكبد من آذى أبا طالب».
١٩ ـ و«تاريخ الخلفا ورّاث النبي المصطفى».
٢٠ ـ و«الكوكب الزاهر في مناقب الغوث عبد القادر».
٢١ ـ و«العناية الربانية في ملخّص الطريقة الرفاعية».

٢٢ ـ وديوانه الثاني ، الجامع لأشتات درر غرر المعاني «التبيان الجامع بين الحكمة والبيان».

٢٣ ـ و«حضرة الإطلاق في مكارم الأخلاق».

٢٤ ـ «وقرة العين في مدح الإمام أبي العلمين».

٢٥ ـ و«طريق الصواب في الصلاة على النبي الأواب».

وغير ذلك من المآثر التي سارت بها الركبان ، وملأَ شعاعُ فضلِها النواحي والبلدان.

وقد امتدحه البلغاءُ ، وأثنى عليه فضلاءُ الشعراء ، لما مَنَّ الله به عليه من الأخلاق ، الشاهدةِ له بصَّحةِ النسب المحمدي ، وطهارةِ الأعراقِ ، منها:

يا ساريَ البرقِ بَلْ يا سائقَ السُّحُبِ ... حَيِّ المنازلَ بينَ البانِ فالكُثُبِ
أَنِخْ هناكَ مطايا الغَيْثِ مُثْقَلَةً ... مِنْ كُلِّ مُنْهَمِرٍ بالقَطْرِ مُنْسَكِبِ
وَقِفْ على الدَّارِ وَسْطَ الحيِّ منتَسِباً ... لِثَغْرِ ساكِنِها ، وافْخَرْ بِذَا النَّسَبِ
قَرِّبْ لها خَبَرِي يا بَرْقُ مُحْتَسِباً ... فذاكَ واللهِ عندي أفضلُ القُرَبِ
واستعملِ الرِّفْقَ في التبليغِ إنّ لها ... بقصتي طرباً ، ناهيكَ مِنْ طَرَبِ
ما الدارُ يا بَرْقُ في المعنى سِوَى صَدَفٍ ... ودُرَّةُ الخِدْرِ فيها مُنْتَهى أرَبي
مَوَّهْتُ بالدارِ والمعنيُّ ربَّتُها ... كَذِكْرِنا الكأسَ والقصدُ ابنةُ العِنَبِ
فَاذْكُرْ لها عَجَباً مِنْ أَمْرِ مُدْنَفِها ... دَانٍ على البُعْدِ لم يَحْضُرْ ولم يَغِبِ

زفيرُه من أُوارِ الوجدِ في صُعُدٍ ودمعُه من مجارِي الخدِّ في صَبَبِ
عدمتُ من عذلوني في الهوى سفهاً وحاربونيَ لَوْ ناديتُ: وا حَرَبي
ولو رأوا ما رأتْ عيني وكانَ لهم قلبي، ولاموا لكانَ اللومُ أجدَرُ بي
لكنْ أخالُهُمُ خُشْباً مُسَنَّدَةً وهل يؤثِّرُ داعي الحُبِّ بالخَشَبِ
عاشوا خليينَ من عِشْقٍ يُؤَرِّقُهمْ فطابَ عَيْشُهُمُ وَهْماً ولم يَطِبِ
يا عاذلي خَلِّ عَذْلي مُشْفقاً فلقَدْ أخطأتَ واللهِ في عَذْلِي ولم تُصِبِ
جسمي بدارِ اغترابي لا يَفيْقُ وَلِي قلبٌ شَجٍ عن دياري غيرُ منقلبِ
يا لهفَ قلبيَ على تلكَ الديارِ، ويا شَوْقي إليها ، ويا وَجْدِي ويا وَصَبي
علمتُ أنيَ إنْ لازمتُ تربتَها لم أبرحِ الدهرَ في هَمٍّ وفي تَرَبِ
فاخترتُ فرقتَها لا عَنْ كراهتِها ولا غراماً بسيرِ الأَيْنُقِ النُجُبِ
لكنَّما الهِمَمُ العليا روتْ خبراً العِزُّ مرتَبِطٌ بالوَخْدِ والخَبَبِ
فكانَ ذاكَ علينا موجِباً سَفَراً لولا الأمانيُّ لم يُنْدَبْ ولم يَجِبِ
لم أنسَ ما وجدتْ بالبيدِ أَيْنُقُنا مِنَ الوَجَى ونفادِ الماءِ والعُشُبِ
والرَّكْبُ في سكرةٍ هزتُه سَوْرتُها لا سكرة الراحِ لكنْ سكرة التَعَبِ
في مهمهٍ طامسِ الأعلامِ مشتبهٍ سهلٍ خليٍّ من الحصباءِ والحَصَبِ
يرى الدليلُ به حرباً لناظرِه لا يستغيثُ بغيرِ الوَيْلِ والحَرَبِ
والليلُ مُلْقٍ خياماً من غياهِبِهِ قامتْ بلا عمدٍ فيها ولا طُنُبِ
حتّى إذا احتبكتْ في الأرضِ ظلمتُه وأنجمُ الأُفْقِ في حُجْبٍ من السُّحُبِ
حِرْنا فلمّا هتفنا باسمِ سيِّدنا أبي الهُدَى ضاءَ نورُ السبعةِ الشُهُبِ

محمدٌ خَلَّفَ الصيادُ صفوتَه … الهاشميُّ الرفاعيُّ الفتى العربي
أبو السِّراجِ أخو النورَيْنِ حيدرةٌ … أجلُّ عصبةِ طه وابنُه العَصَبي
الطاهِرُ النسبِ ابنُ الطاهرِ النَّسبِ … ابنُ الطاهرِ النسبينِ الطاهِرُ النَسَبِ
هادي الخليقةِ مهديُّ الطريقةِ كـ … ـشافُ الحقيقةِ جالي ظلمةَ الرِّيَبِ
مجدّدٌ لربوعِ الفَضْلِ حين حكتْ … نُهى أعاديه من واهٍ ومن خَرِبِ
أتى ومن كلِّ علمٍ حزنُ ثاكلةٍ … فما استراحَ إلى أنْ قال: واطربي
ذو فكرةٍ فعلتْ بالمشكلاتِ على … جهابذِ الدهرِ فعلَ النارِ بالحَطَبِ
آراؤه أنجمٌ في الخَطْبِ مشرقةٌ … وعقلُه لرحى التدبيرِ كالقُطُبِ
تري بصيرتُه الأزمانَ حاضرةً … ما كان مقترِباً أو غيرَ مقتربِ
وتشهدُ الكرةَ الأرضيةَ اجتمعتْ … كأنّها وضعتْ للهو واللَّعبِ
يا دولةٌ اتخِذتْ منه لها ولداً … يهنيكِ خيرَ أخٍ يهنيكِ خيرَ أبِ
يهنيكِ ذو الحزمِ والتدبيرِ والأدبِ الـ … ـمطبوعِ والنَّسبِ المرفوعِ والحَسَبِ
يهنيكِ مولًى على الأعداءِ فكرتُه … أشدُّ من حَمَلاتِ الجَحْفَلِ اللَّجبِ!
عقلٌ ينوبُ عن الكَشْفِ الجليِّ ندًى … لله ما فعلتْ جدواه بالنُّوَبِ
أحرزتِ يا دولةَ الإسلامِ منه فتًى … سادَ الورى وهو حاشاه الصَّغارُ صَبِي
إنّ المقاديرَ قد خطتْ يراعتُها … على مُحيّاهُ: هذا سَيِّدُ العَرَبِ
مِنْ معشرٍ أرفعُ الأشياخِ منزلةً … أمامَ طفلهمُ يجثو على الرُّكَبِ
صِيْدٌ صناديدُ أشرافٌ جهابذةٌ … نُجْبٌ جحاجحةٌ من سادةٍ نُجُبِ
آلُ الرسولِ خيارُ الناسِ قاطبةً … خلاصةُ الخَلْقِ طُرًّا نخبةُ النُخَبِ

لو نـبَّأَ اللهُ بعدَ المصطفى أحداً ... لكانَ منهمْ لعمرُ اللهِ ألفُ نبي
شرِّفْ وعظِّمْ ومجِّدْ ما استطعتَ ولا ... تطلبْ لبكر القوافي غيرَ مطلبي
وإنْ حظيتَ بحَبْرٍ من أئمتهم ... فامدحْهُ محتَسِبًا ، أو غيرَ مُحْتَسِبِ
وَخُصَّ منهم فتى الفتيانِ سيدَهم ... شيخَ المشايخ كهلَ الفَضْلِ والأدبِ
أبا الهدى مَنْ إذا يممتَ ساحتَه ... أتـاكَ معـروفُـه عفـواً بـلا سَبَبِ
هذي الأقاليمُ فاطلبْ مَنْ يماثلُه ... فيها ندًى، واحتكمْ إنْ فُزْتَ بالطَلَبِ
شَبِّهْ بهِ البحرَ إنَّ البحرَ يُشْبِهُهُ ... لكنَّه العَذْبُ مأمونٌ من العَطَبِ
وانسبْ إليهِ جميعَ المَكْرُمَاتِ ولا ... تَنْسُبِ إليه ادخارَ المالِ والنَّشَبِ
يرى رؤوسَ اليتامَى إذ يقبِّلُها ... أشْهَى له مِنْ خدودِ الخُرَّدِ العُرُبِ
أما العفاةُ فلو شاهدتَ قربَهمُ ... منه لحققتهمْ مِنْ أقربِ النَّسَبِ
أرضاهُ أنَّ جيوشَ الحمدِ هاجمةٌ ... عليه والمالُ من كفَّيهِ في هَرَبِ
للجَمْعُ بين الدجا والصبحِ في قَرَنٍ ... أدنى من الجَمْعِ بَيْنَ الحمدِ والذَّهَبِ
شكراً لما نِلْتُه من صَفْوِ نعمتِه ... الحُبِّ والقُرْبِ والترتيبِ والرتبِ
كم كربةً أثقلتْ ظهري ففرَّجَها ... بهمـةٍ سمِّيـتْ فـراجـةَ الكُـرَبِ
وكم أيادٍ له عندي مؤيدةٍ ... لها دليلانِ من لحمي ومن عصبي
مدحتُه عاجزاً عن دَرْكِ غايتِه ... مع انتخابي القوافي خيرَ منتخَبِ
وليس في العجزِ عن إدراكِها عجبٌ ... صفاتُه حصرُها من أعجبِ العَجَبِ
يجوزُ صدقي وكِذْبي في سواه وإنْ ... أمدحْهُ يوماً فمعصومٌ من الكذبِ
أبا السراجِ وأنتَ المُصْقعُ اللَّسِنُ ... الشهمُ البليغُ إمامُ النظمِ والخُطَبِ

خُذْ مِدحةً من لُبابِ الشْعرِ لو تليتْ   في منتهى الشرقِ كانَ الغربُ في طَرَبِ
أقسمتُ لهيَ على الأعداءِ لو فهموا   أشدُّ وقعاً من الهنديةِ القُضُبِ
ودونكَ العيدَ فاستبشرْ بزورتِهِ   أنالكَ اللهُ فيه منتهى الأرَبِ

ومنها

إنّ شيخي أبا الهدى لحسامُ   سلَّهُ اللهُ والرسولُ الإمامُ
فهو باللهِ واثقٌ خَصّامُ   رجلٌ لا تُريعُه الأيامُ
وله عندَ كَرِّها إقدامُ
طودُ حلمٍ من الزلازلِ ما ارتجْ   وصبورٌ على البلا قطّ ما لَجْ
بيتُ عزٍّ كلُّ الكمالِ له حَجْ   وإمامٌ قامتْ به دولة المجـ
ـدِ بِطَوْرٍ به تباهَى الإمامُ
قرشيٌّ مهذَبٌ عَلويُّ   هاشميٌّ مقرَّبٌ أريحيُّ
عَلَمٌ مفرَدٌ تقيٌّ نقيُّ   ونسيبٌ وسيِّدٌ أحمديُّ
خالديٌّ شهمٌ كريمٌ همامُ
مرشدُ العصرِ بالجلالِ توشَّحْ   وعَنِ الرشدِ والهدايةِ أوضحْ
عارِفٌ عرَّبَ العلومَ فأفصحْ   كم له في الورى لعمرُكَ من أحْـ
ـوالِ فضلٍ حارتْ بها الأفهامُ
ومعالٍ فوقَ السُّهَى ثابتاتِ   وجيادٍ تحتَ النُّهى صافناتِ
كم أرتنا في السَّبقِ من آياتِ   ولَكَمْ مِنْ مكارمٍ بيناتِ
شهدتْ في علوِّها الأيامُ

وأيـــادٍ جـــزيلـــةٍ وهبـــاتِ   تتـــوالـــى كـــأبحـــرٍ زاخـــراتِ
وسماتٍ عن أصلِه باسماتِ   ولَكَـمْ مِـنْ عـزائـمٍ صـارمـاتِ
عقدُها لا يحلُّه الإبرامُ
ولكـــم مِـــنْ مـــآثـــرَ طيبـــاتِ   وصـــلاتٍ منـــه لنـــا واصـــلاتِ
وفِعالٍ عن حكمةٍ صادراتِ   ولكـــم مـــن منـــاقبَ بـــاهـــراتِ
دون مرقَى سنامِها الأوهامُ
ماجدٌ حازَ همةً إنْ تزِنْها   بعظيـــمِ الجبـــالِ ينحـــطُّ عنهـــا
كم فقيرٍ نالَ الغِنى من لَدُنْها   ولَكَـمْ مِـنْ مـواهِـبٍ رُدَّ منهـا
عارضُ المزنِ وانقضى الانسجامُ
بهداهُ أحيا القلوبَ وأنعشْ   وبساطُ المنى لراجيه يُفْرَشْ
وهو في دولةٍ إذا الخطبُ أدهشْ   أسدٌ من عصابةٍ كللتْها الشُّـ
ـهب في ضوئها ، وصَحَّ النظامُ
جَلَّ بينَ الأنام أمراً ونهيا   وبفعلِ الخيراتِ أحسنَ سعيا
ألمعـيٌّ بـه الفضـائـلُ تحيـا   وفَتًـى من عشيرةِ عرشٍ عليا
هم رفيعٌ وعبدُهمْ لا يُضَامُ
ضيفُه يستقرُّ في خيرِ منزلْ   وصروفُ الزمانِ عنه بِمَعْزِلْ
سيــدٌ مَلْجَــأٌ لكــلِّ مُــؤَمِّــلْ   وكـريـمٌ بـه تفـاخِـرُ فـي سلـ
ـكِ التدليِّ أهلٌ كرامٌ عظامُ
عارِفٌ قد أتى بأوثقِ حَزْمِ   كانَ من بعضِه علومُ ابنِ حزمِ

ضيغمٌ لم يزلْ بصحةِ جَزْمِ   يقـرَعُ الحـادثَ المهـمَّ بِعَـزْمِ
حيدريٌّ في طيِّهِ إقدامُ

وهـو مـا زالَ للبـريـة غـوثـا   من يديه يستمطِرُ الجودُ غيثا
وذراعٌ دعا الأعادي حوثا[1]   وتراه في حومةِ الحَرْبِ ليثا
بارزاً ما التوتْ له أقدامُ

لعروسِ الكمالِ أصبحَ بعلا   ولهـا دونَ غيـرِه كـان أهـلا
فيصلٌ لا يزالُ قولاً وفعلا   بالغاً من مراتب العز أعلى
رتبةٍ في أساسِهَا الإحكامُ

ذكرُها يُطرِبُ النفوسَ ويرقِصْ   فعليها يا دهرُ حافِظْ أو احْرِصْ
يا لها رتبةً إلى خيرِ مَخْلَصْ   نظمتْها من الشريعةِ أيدي الصـ
ـدقِ ، واستحكمتْ بها الأحكامُ

صُبْحُ هديٍ عن الهدايةِ أسفرْ   وبـهِ بـاطـنُ المـريـدِ تَنَـوَّرْ
عَلَـمٌ عَيْلَـمٌ همـامٌ غضنفـرْ   كيفَ لا ، وهو صاحِبُ القَدَمِ الفر
دِ الرفاعيِّ أبو الهدى المقدامُ

كَمْ بنشرِ العلومِ أحسنَ صُنعا   وأفـادَ العمـومَ خيـراً ونفعـا
هاشميٌّ قد طابَ أصلاً وفرعا   مـن حسيـنٍ بقيـة النسبِ العا
لي المباني ، وعضبُه الصمصامُ

---

(١) في القاموس: وتركهم حَوْثَ بَوْثَ ، وحَيْثَ بيثَ ، وحيثِ بيْثِ إذا فرّقهم وبدَّدهم اهـ.

ذو يراعٍ جوادُه ليس يسقطْ   في مداهُ ، ولا بعشواءَ يخبُط
وبما شاءَ لا يريدُ التوسط   وارثُ المرتضى وقرةُ عينِ الط
ـهرِ ، والغوثُ إن عدا الأخصامُ

تاجُ هامِ العلا وجوهرُ نصلِ   أحمـديٌّ نَضَتْـهُ أشـرفُ أهـلِ
عيُن آل الصيادِ أطيبُ نسلِ   شبـلُ أهـل العبا ذؤابـةُ أصـلِ
بعلاهم تشيَّدَ الإسلامُ

بحلـى رفـدِه العفـاةُ تحلَّـوْا   وبـوجـهِ السـرورِ منـه تملَّـوا
حاتميٌّ ما قال ليتَ ولا لَوْ   وابنُ آلٍ فيهم أَضاءَ سما الكَوْ
نِ بهديٍ ، وزاحَ عنه الظلامُ

كوكبٌ في ذُرى العُلا يتوقَّدْ   وعلـى فضلِـه الخنـاصِـرُ تُعْقَـدْ
وهو للسالكينَ أعظمُ فرقَدْ   وسليلُ الغوثِ الرفاعيِّ مَنْ قَدْ
رُفِعَتْ عزةً له الأعلامُ

لذْ بأعتابِهِ الشريفةِ وادْخُلْ   لحمـاه وازْوِ المحـامِـدَ وانقُـلْ
وبـأفعـالِـهِ وأقـوالِـه قُـلْ   أعظمُ الأولياءِ قَدْراً وشيخُ الـ
ـكلِّ إنْ شُدَّ في الخطوبِ حِزَامُ

منْ يساويه سؤدداً وفخارا   وعلـــواً ورِفعـــةً واقتـــدارا
أي غوثٍ سواه كان نهارا   لاثمـاً راحـةَ الـرسـولِ جهـارا
بعد عصرٍ والأربعونَ قيامُ

فبروحي دونَ الورى أفديهِ مِـنْ ولـيٍّ بَنَـى جـدار بنيـهِ
فهو في الأوليا وحَقِّ أبيهِ كَـنْـزُ سِرٍّ تَطَلْسَمَ البأسُ فيهِ
وثوى في وحيدِه الضرغامُ

ما سواهُ يومَ الشدائدِ يُرجَى بعد طه الرسولِ حصناً وملجا
كم وقعنا بالمُهلكاتِ فأنجى ولنـا بـابنـه أبـي الهُـدَى للجَـا
هل ذاك الدليلُ والإلزام(١)

حجةُ القومِ شيخُهم في الأنامِ مـرشـدُ الـوقـتِ بهجـةُ الأيـامِ
قطبُه الهاشميُّ شِبْلُ ضرامِ فَرْخُه حافظُ الوراثةِ حامي
ركنِها أنْ تجز حماهُ اللئامُ

للمريدين في الحقيقةِ مُنْجِدْ ولهم في منازِلِ القُرْبِ مُسْعِدْ
ومِنَ الكَشْفِ حين فازَ بِمَقْصِدْ أخمرتْه من السِرَاجِ سَرَاجُ الد
ينِ كأسٌ مدامُه الإلهامُ

---

(١) إن الخوف نوعان:
خوفُ عادةٍ، كالخوفِ من عدوٍّ أو سَبُعٍ مثلاً، وهذا خوف طبيعيٌّ لا محذورَ فيه.
وخوفُ عبادةٍ: كالخوفِ من تصرُّفِ حيّ أو غائب أو ميت بعبادِ الله، كتصرُّفِ الله تعالى بمخلوقاته، وهذا فيه كل المحذور، لأنه يتضمَّنُ اعتقادَ أنّ لبعضِ المخلوقات قدرةً على التصرُّفِ بأنفس الأحياء وأموالهم، كقدرة الله تعالى، وهذا يناقِضُ الحِسَّ والواقع، ويخالِفُ عقيدةَ التوحيدِ بأفعال الله تعالى. (بهجة).

فتراءَى في عالمَ النَّشْرِ والطَّيْ　　فَجْرُ صدقٍ ، يمحو الضلالَـةَ والغَيْ
وتبدَّى في هيكلٍ مفردَ الزَّيْ　　وعليه من مَجْدِ سيدنا الصّيْـ
ـيادِ دِرْعٌ طِرَازُه الاحترامُ

بشـذا رُشْـدِه الـزمـانُ تعطَّـرْ　　فـروى لـلأنـامِ عنـه وأخَبَـرْ
وبدا ينجلي بأحسنِ مظهَرْ　　ولـه نسبـةٌ حسينيـةُ الطَـرْ
ـزِ جلاها شيخُ العراقِ خِزَامُ

آلُ بيتٍ مقدَّسٍ قد كساهُمْ　　خِلَعَ المجدِ ربُّهم واصطفاهُمْ
وهداهُمْ بفضلِه واجتباهم　　رضِـيَ اللهُ عنهـم وحَبَـاهُـمْ
صولةً ينجلي عليها الدوامُ

ومقاماً من الكواكب أعلى　　واحتـرامـاً بيـن الأنـام وفضـلا
وحماهم من كل ما ساءَ فعلا　　وعليهم أزكى التحيات من اللَّـ
ـه تعالى مدى المدى والسلامُ

ومن نظم صاحب الترجمة ، الذي فاقَ نظمَ الدرر ، قصيدتُه التي تخلَّصَ بها لمدحِ جَدِّه النبيِّ المفتخر ﷺ وهي :

هل منقِذٌ لأخي النوى مما بهِ　　قطعتْهُ أيدي الحَظِّ عن أحبابِهِ
كالظِّلِّ أضحى قائماً شبحاً بلا　　جِرْمٍ يلجلجُ في رَسيْسِ ثيابِهِ
ما فيهِ إلا الروحُ تخبِرُ أنَّهُ　　حيٌّ ، ولا رسـمٌ بِطَـيِّ نِقَـابِـهِ
كَمَـدٌ تلهَّـبُ نـارُه ودمـوعُـه　　كالغيثِ ، لا ينفكُّ وَبْلُ سَحابِهِ

فالوَجْدُ هَدَّ وجودَه بزفيرِه   والصَّدُّ حارَبَ قلبَه بحرابِهِ
يا لَلرجالِ لحائرٍ أسبابُه   قُطعتْ ، فأينَ الوصلُ من أسبابِه؟
أوزارُه قد أثقلتْهُ ، وعوَّقَتْ   أسفارَه الآثامُ عن آرابِهِ
وطغتْ عليه الحادِثاتُ، وماله   إلا الذي لاذَ الوَرَى بجنابِهِ
محبوبُ ربِّ العالمينَ نبيُّه   ورسولُه وأمينُ سِرِّ كتابِهِ
سيفُ الرسالةِ صاحِبُ الحِكَمِ، الذي   أحيا رسومَ العَدْلِ فصلُ خِطابِهِ
مصباحُ فرقانِ المثاني مَنْ بدتْ   حِكَمُ الكتابِ تُضيْءُ في محرَابِهِ
فلكُ المعاني الخافياتِ بمشهدٍ   ما الرُّسلُ إلا من نجومِ قِبابِهِ
سَيْرُ الهلالِ سَرَى بليلِ عروجِهِ   وسَرَتْ ملائكةُ العُلا بركابِهِ
وطوائفُ النُّورِالمضيءِ تحفُّه   شرفاً له بذهابِهِ وإيابِهِ
حتى دنا بعدَ التدلِّي صاعِداً   بهبوطِهِ السّامِي لِبُرْجِ رِحابِهِ
فتمثّلَ الأملاكُ بين يديه في   مغناه ، يستسقونَ مِنْ مِيزابِهِ
والدينُ أشرَقَ وجهُه متهللاً   في أُفْقِ وادي يثربٍ وشعابِهِ
فلذاكَ رَصّعَ أرضَه شهبُ السما   والمِسْكُ غَلْغَلَ في غُبارِ تُرابِهِ
والبدرُ قلّبَ وجهَهُ متململاً   يرجو القَبولَ على أريكةِ بابِهِ
للهِ رُكنٌ عَزَّ مِنْ ذاكَ الحِمى   أضحَى أمينُ الوحي من حُجّابِهِ
خضعتْ ملوكُ العالمين لمجدِه   وتمثلوا رَهَباً لدى أعتابِهِ
ومَنِ انتمَى لرفيع سُدَّةِ جاهِهِ   لم يفترسْهُ زمانُه بِمُصَابِهِ

وعُبَيدُه مهما تدَنَّسَ بالخطا ... هو في أمانِ اللهِ يومَ حسابِهِ[١]
وتحفُّه مِنْ ذيلِه نفحاتُه ... في هيِّناتِ زمانِهِ وصعابِهِ
هو روحُ هذا الكونِ قرةُ عينِه ... ومدارُ رَمْزِ سؤالِهِ وجوابِهِ
هو كنزُ عِلْمِ اللهِ صاحِبُ أمرِه ... هو سيفُه، والكونُ نوعُ قرابِهِ[٢]
هو مظهرُ السِّرِ الخفيِّ عن السِوَى ... والمحضَرُ المطوِيُّ في جلبابِهِ
هو حجةُ الرُّسْلِ الكرامِ إمامُهمْ ... هو شيخُهم بمشيبه وشبابِهِ
ما الأولياءُ العارفونَ بربهم ... إلا الذين حَسَوْا لذيذَ شرابِهِ
ما الكونُ إلا نقطةٌ هو أصلُها ... أو طِلْسَمٌ هو شَكْلُ حَرْفِ صوابِهِ
ما الحِلْمُ إلا ما إليه رجوعُه ... والعلمُ إلاَّ مَذْهَبٌ من دابِهِ
والجودُ إلا نسمةٌ من طبعِهِ ... والمجدُ إلاّ مِنْ سنا آدابِهِ
لمعتْ براهينُ الهُدى بظهورِه ... ودُجى الضلالِ محاهُ نورُ شِهابِهِ
والحقُّ أقبلَ، والفتوحُ أمامَه ... والغِيُّ ولَّى مُدْغَماً بضبابِهِ

---

(١) كيف يكون في أمانِ الله يومَ حسابه مَنْ لا يعرِفُ حقيقةَ حاله ومآله، والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] ويقول: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٨ ـ ١٩] (بهجة).

(٢) إنّ الله تعالى وحدَه يعلم غيب السموات والأرض، وأما الرسول ﷺ فهو يعلم ما أوحي به إليه، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] (بهجة).

أدعوهُ للكَرْب الملحِّ ، وأينَ مِنْ عزماتِهِ ليثُ الثرَى في غابِهِ[1]
فلَكَمْ حللتُ به وعِزةُ قدرِه عُقَدَ الزمانِ، ولانَ صَلْدُ صِلابِهِ
ولكم لجأتُ له بقلبٍ خاشعٍ فحماهُ بالإحسانِ من أتعابِهِ
أنا عبدُه، والعبدُ مهما زلَّ عن طرُقِ الرِّضَا ساداتُه أولَى بِهِ
صلّى عليهِ اللهُ ما لمعَ الضُّحَى ولآلِهِ يُهدَى الثنا وصِحَابِهِ

ومن نظم هذا الهمام في مدح سيد الأنام

أعجزَ المنقبضُ المنبسِطُ بمعانٍ شَطَّ منها الخِطَطُ
وبدا من جامعِ الشأنينِ في طالِعِ الكونينِ طورٌ وسَطُ
وانجلَى في الأُفُقِ البحتِ سنا صُحُفٌ صُفَّتْ عليها النُقَطُ
وبدوحِ الغَيْبِ قامتْ حِكَمٌ صِحَةٌ ما قامَ فيها الغَلَطُ
وبآياتِ المثاني جوهرٌ بأكُفِّ الوهمِ لا يلتقَطُ
فوقَها منك حبيبٌ أسدلتْ حُجُبٌ للحَشْرِ لا تنكَشِطُ
أنت سِرُّ الكُلِّ ، والكُلُّ لَهُ منكَ حبلٌ عاصِمٌ مرتبِطٌ
حارَ في دَرْكِ معانيكَ الوَرَى والمدَى المقصودُ عنهم شَطَطُ
شأنُكَ السيارُ فيه دُرَرٌ لمعانيها البرايا سَفَطُ
جلَّ من جلَّلَ مجلاكَ ضيا بحواشيه إليها يَخْبِطُ

---

(١) أين هذا من قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]. بهجة.

جمعُ هذا الفَرْقِ فَرْقٌ جمعُه		منـه قـد دلَّ عليـك النَمَـطُ

ومنه قوله يمدح سلطان الرجال ، وكعبة أهل الوجد والحال ، جده الإمام الرفاعي الكبير ، لا زال رمسه الأعطر مهبط مدد الخالق القدير :

قلبُ المحبِّ بحبه مشغولُ		ولـهُ عليـهِ تلهُّـفٌ وعـويـلُ
لا زالَ يطويهِ الهُيامُ على لظى		وجدٍ ، وينشرُه ضنًى وذبولُ
يا لائمي ، واللومُ ليسَ بنافعٍ		أيصُدُ عن طَلَبِ الحبيبِ عَذُولُ
دعَ لومَ أهلِ العشقِ واطرحَ عَذْلهمْ		إنّ العـذولَ بشـأنـه مخجـولُ
ولقـد تـزيَّا بـالغـرامِ وأهلِـه		ذو رِيبـةِ ، في زَيِّـهِ مخـذولُ
ردتْـهُ بيِّنـةُ المحبـةِ خـاسئـاً		وشهودُ أحكامِ الغرامِ عدولُ
ذو الصدقِ في سَوْحِ المحبةِ ثابتٌ		وأخـو الـرِّيـاءِ مـن الظـلالِ يميـلُ
يلهو إذا خشعَ المحبُّ ، وإنما		مجلَى الخشوعِ على الفؤادِ دليلُ
متنُ الهوَى تحتَ الضلوعِ ، وشرحُه		بشـروطِ حـالِ العـارفيـنَ طـويـلُ
قد يدّعِي الحبَّ الملحَّ كواذبٌ		والعـاشقـونَ الصـادقـونَ قليـلُ
ولكم تباكَى المدَّعونَ وما بَكَوْا		ودمـوعُ أصحـابِ الـولـوعِ سيـولُ
ولـربمـا سكـتَ المحـبُّ لفكـرةٍ		فيمـن يحـبُّ ، وعقلُـه مـذهـولُ
يا مَنْ وَلِعْتَ بهم ، وطبْتَ بذكرِهِمْ		رفقـاً ، فقلبـي للصـدودِ عليـلُ
لوزال رَضْوى ، وانتهَى عن أرضِهِ		حـاشـاي عنكـمْ يـا كـرامُ أحـولُ
ما قلتُ أصحو من سلافةِ حبّكُمْ		إلا اعتـرانـي سكـرةٌ وخبـولُ

لكم التحكُم في القلوبِ، ولم تزلْ تســرِي إليكــمْ أنفــسٌ وعقــولُ
قد حِرْتُ في تعريفِكم لجلالِكُمْ لــم أدر يــالَ الحــيِّ كيــفَ أقــولُ
أيطولُ فهمي سرَّ رفعةِ قدرِكم ومقامُكم هامَ الفخارِ يطولُ
ولكم بصفِّ العاشقينَ مشاهِدٌ غُرَرٌ لها بينَ الورى وحُجولُ
وغـداةَ كـلُّ قبيلـةٍ بـإمـامِهـا تُدعى، ويبدو المضمَرُ المجهولُ
ويُرى هناكَ الحقُّ والدعوى، ويظـ ــهـرُ للعيــانِ فضيلــةٌ وفضــولُ
فإمامُكم يا أهلَ أُمِّ عبيدةٍ علـمُ الـرجـالِ السيـدُ المقبـولُ
شمسُ الحمى الغوثُ الرفاعيُّ الذي في الفضلِ صحَّ حديثُه المنقولُ
سلطانُ أقطابِ الرجالِ وشيخُهم وشجاعُهم حيثُ القلوبُ تزولُ
ذو السيرةِ النبويةِ العليا التي فيها انطوَى المنقولُ والمعقولُ
شِبلُ الحسينِ سليلُ أصحاب العبا سيفُ الرّسولِ الصارمُ المسلولُ
كم مرّةٍ نصرَ الضعيفَ بنظرةٍ وعــلا وعَــزَّ بــرمشتيــه ذليــلُ
غوثٌ إذا لجأ الكسيرُ لبابِه طرفُ الزمانِ يراهُ وهو كليلُ
توراةُ عنوانِ الزبورِ نصوصُه وبســرِّهِ الفــرقــانُ والإنجيــلُ
نابَ النبيَّ فعلمُه من علمِه وطـريقُـه بطـريقِـه مـوصـولُ
ذو همـةٍ بـرهـانُهـا متـواتِـرٌ كالفجرِ لكنْ ما اعتراهُ أفولُ
وَكَفَـاهُ أَنْ مَـدَّ النبـيُّ يمينَـه لجنــابِـه والحــيُّ فيـه قفــولُ

خرجتْ مِنَ القبرِ الشريفِ كأنَّها ... عَضْبُ من النُّورِ الجليِّ صقيلُ(١)
سارتْ بها الركبانُ تنقُلُ نصَّها ... مسكاً بأقطارِ الوجودِ يجولُ
هذا أبو العلمينِ ذو الكَفِّ الذي ... مِنْ راحِهِ بحرُ الفيوضِ يسيلُ
أخذَ الخضوعَ كشأن طه مذهَباً ... فطريقُه للمَكْرُمَاتِ سبيلُ
إن قالَ عن دعوى قؤولٌ شاطِحٌ ... سُكْراً ، فهذا بالخشوعِ فَعولُ
للهِ خارقةٌ بطيِّ وجودِه ... معها كثيرُ الخارقاتِ قليلُ
خشعتْ لديه الأولياءُ، وكلُّهمْ ... سامي المهابةِ عارِفٌ وجليلُ
وكأنَّه دونَ الجميع ، لعقلِهِ ... طودٌ من العلمِ الصحيحِ ثقيلُ
لا يستفزُّ بوارِدٍ عن شأنِه ... وبربِّهِ عن غيرِه مشغولُ
يجري له الإحسانُ بحرُ الامتنا ... نِ ، وذيلُه من دمعِه مبلولُ
هذا هو الفَحْلُ المكينُ بطورِه ... اللهِ ما كلُّ الرجالِ فحولُ
وقفتْ رجالُ اللهِ تحتَ لوائِهِ ... ونوالُه لصروفِهمْ مبذولُ
وسَرَى على أثرِ الرسولِ ، وماله ... في السائرينَ مماثِلٌ وعديلُ
شيخٌ بَتُوْليُّ المقامِ وسيدٌ ... حِمْلُ الضِعَافِ ببابِه محمولُ
مأوى صنوفِ العاجزينَ رحابُه ... ما خابَ في ذاكَ الرحابِ نزيلُ
هو كعبةٌ يحمِي الطريحَ بركنها الـ ... ـعالي ويأمنُ خائفٌ ودخيلُ
نفحاتُ فضلِ اللهِ في ذاكَ الحمى ... فيّاضُها متواصِلٌ وهطولُ

---

(١) [انظر حقيقة هذه القصة ص٣٢٦].

ولشيخ ذيَّاكَ الرحابِ عوارفٌ حِزْبُ العُفاةِ بمنحها مشمولُ
من لاذَ فيه بصدقِ قلبٍ خالصٍ ما فاتَهُ المسؤولُ والمأمولُ
لا زالَ أصحابُ القبولِ ببابِهِ ولهم تُدَقُّ من الفتوحِ طبولُ
فعليه لا برحتْ ميازيبُ السلا م تسحُّ ما ذَكَرَ الخليلَ خليلُ
أو قامَ منه على سريرِ صفاتِهِ مَلِكٌ عليه من الرِّضَا إكليلُ
أو ثبَّتَ القلبَ الخفوقَ بحبِّهِ صبرٌ منَ الودِّ القديمِ جميلُ

ومنه قوله يمدح شيخه القطب الأعظم السيد محمد مهدي الصيادي الرفاعي الروَّاس قدس الله سره ونفعنا به آمين:

لربي مني الشكر شيخي ومرشدي إمامُ الزمانِ الغوثُ قطبُ رحَى المجدِ
غدا وحدَه ركنَ المعالي وإنّني عرفتُ به ما بينَ أهل الحمى وحدي

ومن شعره في النسيب والغزل، لا زال محط رحال أهل الأمل:

تندبُ الأطلالُ روحي كلّما هَبَ في الأرجاءِ رِيْحُ السَّحَرِ
ويفيضُ الدمعُ من عيني دماً رَكبُ قوم سارَ سَيْرَ القَمَرِ
واختباطُ البَرْقِ مِنْ نحوِ الحِمَى يَخْطَفُ القلبَ لجيرانِ التلال
فعلامَ كُلُّ هذا ولِمَا هاهمُ مَرُّوا كلمحِ البصرِ

دور

يا رعَى اللهُ أويقاتِ غِضاضْ قنَّعَ البِشْرُ بها هامَ السرورْ
معَ خلانٍ مضتْ بينَ الرياضْ وبنا دنيا رَحَى الوصلِ تدورْ

راحَ هذا ، وكأنَّ الدهرَ ما أغمضَ العينَ ، ولا نِلنَا الوصالْ
فاقضِ يا دَهْرُ بنا ما أنتْ قاضٍ قد رضينا باختيارِ القَدَرِ

دور

آه لو عادتْ ليالينا القدام لشفينا غِلةً تحت الضلوع
وروينا من أحاديثِ الغرام مرسلاتٍ من أساطيرِ الدموع
ووصلنا في الهوى ما انصرما ورأينا ماتعاناه الخيال
لكنِ الأمرُ خيالٌ والسلام خطراتٌ من قبيلِ السمرِ

دور

قسماً بالعهدِ والودِ القديم كلَّ آنٍ وجدُهم عندي جديد
هم سروا ، والوجدُ في سري مقيمْ يفعلُ اللهُ تعالى ما يريْد
ما زهَى الروضُ أو الوَدْقُ هَمَى غدوةً إلاّ ومني الدمعُ سال
وعلى نهجِ الصراطِ المستقيمْ ثابتٌ في الحُبِّ طولَ العمرِ

دور

كلَّما العتمُ انجلى قلبي يطير وإلى أنوارِهم آهي يطول
وإذا ما الشمسُ جَدَّتْ بالمسيرِ ذكرتْ نفسي لهم تلك القفولَ
وإذا موجُ الظلامِ التطما خِلْتُه من شعرِهم بعضَ الجبال
وعلى كلِّ قليلٍ وكثير شكلُهم منطبِعٌ في نظري

دور

يا نسيمَ الصبح خذ قلبي لمن أقلقوه يومَ بانوا بالفراق
وإذا ما عدتُ بالذكرِ الحسن هاتِ ما عندَك من طيب التلاق

وأعد روحاً بها البينُ رمى	لجُجَ الحَيْنِ وألقاها وشال
وارْحَمَنْها فهي خنساءُ الحَزَن	وافتقادُ الإلفِ طبعُ البشرِ

دور

ليتَ خِلاّني بذياكَ اللوى	ذكروا خِلاًّ لهم خلُّوه ليتْ
ذا حَنينٍ من تباريحِ النوى	صارَ ـ لا درّ النوى ـ حياً كَميْتْ
نظمَ الشعرَ لهم إذ نظما	وطوى أحشاءَه ضِمْنَ المقال
وعلى عرشِ الإشاراتِ استوى	فكرُه ثم أتى بالدُّررِ

دور

هذه يا حسرتي قصةُ من	مسَّهُ الضرُّ وأفناهُ الجَزَع
دنِفٌ مُذْ أزمَعَ القومُ وَهَنْ	واصلَ الحزنَ وللحُزْنِ انقطعْ
كم يناجي الطيفَ فيهم كلَّما	رامَ أنْ يبدي لهم قصة حال
قائلاً : باللهِ يا طيفَ الوسَنْ	عَطَفُوا ، أم قلبُهم من حَجَرِ

دور

وعبيرٌ فاحَ من تلك الخيام	يومَ زمت عيسُهم قبلَ الصباحْ
أنا مفتون بهم حتى القيام	ولهذا طالَ ندبي والصياحْ
أسألُ البرقَ إذا ما اضطرما	عنهمُ : يا لهفَ قلبي والغزالْ
فعلى أرجائهم مسكُ الختامْ	ينشرُ الدهرُ فتيتَ العنبرِ

وقال أطال بقاه ، وأعلى مرتقاه

أيْ غصينَ الياسمينِ انتبهِ	واتركَنْ باللهِ ما أنتَ بهِ

هــزَّكَ الــريــحُ فقلــدتَ لــذا ... خَصْــرَ ريــمٍ مــالَــهُ مِــنْ شَبَــهِ
حَدُّكَ القطعُ ، لهذا فاعتذرْ ... عــلَّ أَنْ تــدرَأَهُ بــالشُّبَــهِ

وقال

لي بالأبيرقِ فتيةٌ خلّفتُهم ... وطرحتُ بين خيامِهم أحشائي
منهم لظَى ناري وماءُ مدامعي ... يا لوعتي من نارِهم والماءِ

وقال

لي في العراق أحبةٌ ملَّكتُهم ... قلبــاً عليهــم يــومَ بــانــوا ذابــا
ذاقَ العذيبَ بقربهم لكنّه ... لما أطالوا البعدَ ذاقَ عذابا

وقال

والذارياتِ من الدموعِ تلّهفاً ... يومَ النوى والمرسلاتِ سيولا
ما كنتُ أعلمُ أنّ غِزلانَ الحمى ... يصلتن من ريشِ الجفونِ نصولا

وقال

أيها البرقُ الذي تلوي به ... قــادحــاتُ مــن زنــادِ الــوَلَــعِ
ما رأيتُ العيسَ لمّا أزمعتْ ... وتــوارتْ عــن زوايــا لَعْلَــعِ
عجباً تلويكَ أخبار اللِّوى ... لِظِبــا روضِ النقــا والأجْــرَعِ
إنّني المُضنى الذي فارقتُهم ... كيفَ يا بارِقُ لو كنتَ معي
أنــتَ حينــاً تتلــوى ، وأنــا ... زفرتــي مــا عشــتُ لــم تنقطــعِ

ومن لطائف شعره قوله

ألا فرجٌ من حضرةِ اللهِ مُحْكَمُ ... يؤيِّدُ إيماناً تحكَّم في السِّرِّ

فيا نفحةَ البشرى مِنَ الله سُرعةً ... ويا غارةَ الجبَّارِ مِنْ حيثُ لا ندري

وهذه النبذة من ترجمة هذا الإمام مغنية عن الإكثار

توفي رحمه الله تعالى في الآستانة ، في العشر الأول من شهر ربيع الأول سنة ألف وثلاثمئة وسبع وعشرين .

والحمد لله ، والصلاة على رسوله في البدء والختام[1] .

* * *

(١) [«حلية البشر» (١ : ٧٢ ـ ٩٤)].

القسم الثالث

أبو الهدى الصيادي

بقلم

وليّ الدين يكن



ولي الدين يكن

وليّ الدّين يكن

(١٢٩٠ ـ ١٣٣٩هـ = ١٨٧٣ ـ ١٩٢١م)

ولي الدين بن حسن سري بن إبراهيم يكن ، شاعر رقيق ، من الكتاب المجيدين ، تركي الأصل ، ولد بالآستانة ، وجيء به إلى القاهرة طفلاً ، فتوفي أبوه وعمره ست سنوات ، فكفله عمه علي حيدر ، ناظر المالية بمصر ، وعلَّمه ، ولكنه مال إلى الأدب ، وكتب في الصحف ، فابتدأت شهرته ، وسافر إلى الآستانة مرتين سنة (١٣١٤ ـ ١٣١٦)هـ ، وعُيِّنَ في المرة الثانية عضواً في مجلس المعارف الكبير ، وضبطت في منزله أوراق وصحف تعارض السياسة الحميدية ، فاعتقل ، ونفي إلى سيواس أول سنة (١٩٠٢) فبقي هناك إلى أن أعلن الدستور العثماني عام (١٩٠٨) ، فانتقل إلى مصر ، وعاد إلى الكتابة ، فنشر كتابه المشهور «المعلوم والمجهول» في جزئين ، ضمّنهما قصة خصومته للسلطان عبد الحميد ورجاله ، وعلى رأسهم

أبو الهدى الصيادي ، وكان ساخطاً عليه ، فذمه بالحق وبالباطل.

وعينُ الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عينَ السخطِ تبدي المساويا

كما ذكر في كتابه قصة نفيه .

وكان يجيد التركية والفرنسية ، ويتكلَّم الإنكليزية واليونانية ، وعمل في وزارة الحقانية بمصر ، إلى أواخر سنة (١٩١٤) ، فعينه السلطان حسين كامل سكرتيراً عربياً لديوان كبير الأمناء ، ثم أصابه مرضٌ أقعده عن العمل سنة (١٩١٩) ، فقصد حلوان مستشفياً ، فتوفي بها ، ودفن بالقاهرة.

مؤلفاته:

١ ـ المعلوم والمجهول.

٢ ـ الخافي والبادي من فضائح الصيادي.

٣ ـ الصحائف السود.

٤ ـ التجاريب.

٥ ـ ديوان الشعر.

٦ ـ خواطر نيازي ، مترجم عن التركية.

٧ ـ الطلاق لبول فورجيه ، رواية ترجمها عن الفرنسية.

أبو الهدى بالآستانة وبمصر

رجلٌ نشأ في خان شيخون ، وهو اسم قرية من قرى حلب ، مجهولَ النَّسبِ والحسبِ ، فقيراً من المالِ والعلم ، لا نصيرَ له إلا عقلٌ ، ما تجلّى شعاعُه على داجيةِ معضلةٍ إلا أنارها ، وسيمُ المحيّا طلقُه ، فتيُّ العزيمةِ ماضيها؛ طموحُ النفسِ إلى كلِّ سؤددٍ ، صبورٌ على المكارهِ ، إذا نال جَشِعَ ، وإذا حُرِمَ شبعَ ، لطيفٌ ظريفٌ ، لا يُمَلُّ مجلسُه ، شمائِلُه أندى من الزَّهَرِ ، وهيبتُه أعظمُ من هيبةِ السَّبُعِ ، إذا تقاعسَ تحالَمَ ، وإذا قَدِرَ بطشَ غيرَ راحمٍ ، يُبدي على صفحتِه ما يريدُ ، ويكنُّ في ضميرِه ما يريدُ ، لا يخذله تلوُّنٌ ولا تلجلُجٌ ، لجامُ نفسِه بيدِه ، يصرِّفُها كيفَ يشاءُ وأنَّى يشاءُ ، ذاك هو **أبو الهدى** ، المعروفُ عند العثمانيين والمصريين .

ادّعى النسبَ ، وربطَ أسلافَه ببيوتاتٍ وبطونٍ كثيرةٍ ، فهو رفاعيٌّ خالديٌّ ، قُرشيٌّ ، هاشميٌّ ، علويٌّ ، ثم غَسّانيٌّ ، تُبَّعيٌّ .

ثم عالِمٌ ، فقيهٌ ، نَحْوِيٌّ ، لغويٌّ ، أديبٌ ، مؤرِّخٌ ، متصوِّفٌ ، فيلسوفٌ ، فلكيٌّ ، طبيبٌ ، عرَّافٌ ، وليٌّ ، شاعِرٌ ، كاتبٌ، سياسيٌّ ، إداريٌّ ، ماليٌّ [(١)]، عسكريٌّ ، بحريٌّ ، بريٌّ .

ثم هو مستبدٌّ جاسوسٌ ، وحرٌّ دستوري ، فاسق تقي ، مبذر ممسك ، جبان شجاع ، قوي ضعيف ، حبيب عدو ، خائن وفيٌّ . ، يتقلَّبُ في هذه النعوتِ والصفاتِ ، ما بينَ غمضةِ عينٍ وانتباهتها ، ولولا خوفُ الهُجْرِ لقلنا: إنّه كلَّ يومٍ في شأنٍ .

أحرزَ أشرفَ الألقابِ [(٢)]، فقيل له: صاحبُ السماحةِ والسيادة ، وكُنِّي بأجملِ الكُنَى فدُعِيَ: مستشارُ الملك ، حامي العثمانيين ، سيد العرب. ولكنْ غلبتْ سَوْرَةُ الحقِّ على كلِّ هذهِ الأباطيلُ ، وسُمِّيَ أبا الضلال[(٣)]. فبقيَ له هذا الاسمُ صفةً حتى لقيَ به ربَّه .

وليسَ ببعيدٍ أن يكونَ أبو الهدى وُلِدَ مطبوعاً على الخيرِ ، راغباً في المعالي، فسَلكَ الطريقَ إليها كما أرادَ ، وكما أراه عقلُه .

---

(١) [فيه إشارة إلى تولي أبي الهدى منصب رئيس القومسيون الخصوصي المشكَّل لحسم المنازعات الزراعية بين الزراع وبين الأكابر والأعيان ، إضافة لتوليه القضاء] .

(٢) [انظرها في ترجمته الذاتية ص (٢٤ ـ ٢٧)] .

(٣) [كناه بهذه الكنية جمال الدين الأفغاني] .

ولعلّه كان يظلُّ مقيماً على الإنصاف لو وجدَ منهم الإنصافَ ، ولكن كَثُرَ مزاحموه ، وجَمَّ حاسدوه ، فاضطر إلى محاربتهم غيرةً على أربه ، وحفظاً لحياته .

وهو في دهائه ، ووفرةِ تجاربه ، عالِمٌ بأنَّ نِعَمَ الملوكِ تتكنفُها النِّقَمُ ، فنازلَ أعداءَه منازلةً ، لا مشفقٍ ولا آمنٍ ، وأيقنَ أنه إنْ غفلَ عنهم برهةً دبروا له من المكايد ما يذهَبُ بعزِّهِ ، ويقصيه عن سلطانِه ، فجعلَ كلّما أتاه منهم شَرٌّ ، أرسل عليهم مثلَه ، دَقَّةٌ بدقَّةٍ ، وما تشمَّر لحربه إلا كبارُ الرجالِ من أهلِ الحظوة عند السلطانِ ، فما زالَ بهم حتى بزَّهم واحداً واحداً ، وبقي مكانَه كالطودِ الراسخِ ، لا تُزَعْزِعُ قواعدَه الصروفُ، ولا تترقى إليه الهممُ.

استمالَ فريقاً من الرجال ، منهم الأمراءُ وأهلُ الثروة وذوو الحكم في البلاد ، فأظهرَ لهم الود ، واستعمل قدرتهم في أغراضِه ، ووفد عليه العلماءُ والشعراءُ والكتّابُ يستعينون به على قضاءِ حوائجهم ، فأخذَ بناصرهم ، وأكرمَ وفادتهم ، وأدنى منه مجلسهم(١) .

---

(١) [كما جرى للشاعر قسطاكي الحمصي ، انظر ص(١١٢) من هذا الكتاب].

فكان منهم من يؤلِّفون الأسفارَ ويعزونها إليه[١] ، ومنهم من ينظمونَ الأشعارَ ، ويروونها عنه ، فتناقلت الألسنُ ما بدا من فضلِه المتزوّدِ به ، وسهتْ الأفكارُ عن نقصِه الكمينِ فيه ، على أني لا أقولُ نقصُه. ومن أينَ لنا أنّه كان ناقصاً؟ وهل يقدمُ أكثرُ الناسِ على المكارِه إلا مضطرين ، وإنْ كان منهم من يتشهّاها ويستهترِ بها؟

على أنَّ ضروراتِ الحياة أشقتْ أبا الهدى من حيثُ أسعدتُه ، وحطته من حيث رفعته ، فعاشَ وهو حبيبُ الناس عدوَّهم. وأَلِفَ الحيلَ لمَّا رأى حياتَه ونشبَه لا يسلمان إلا بها. وقَلَّتْ ثقتُه بالناسِ ، ، وقلَّتْ رغبتُه في مصافاتهم ، فعاشَ ، وأشدُّ الناسِ ملازمةً له أشدُّهم خوفاً منه.

ومِنْ نكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أنْ يَرَى ... عدُوًّا له ما مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ[٢]

أتى على أبي الهدى حينٌ من الدهرِ يُفزِعُ اسمُه الولاةَ على مقاعدِ ولايتهم ، ويرهِبُ الوزراءَ بل الصدورَ[٣]، وهم على أرائك حكومتهم ، **يُـنْفِذُ إلى أحدِهم وصاةً في أمرٍ لا يجرؤ عليه غيرُه ، ولا تجيزُه قوانينُ الدولةِ ، ولا يرضى به عبدُ الحميدِ ،**

---

(١) [انظر ص(١٧٠) من هذا الكتاب].

(٢) [البيت للمتنبي ديوانه (١٨٤)].

(٣) [جمع صدر ويقصد الصدر الأعظم ، وهو بمثابة رئيس للوزراء].

فلا يستطيعُ أحدُ أن يظهِرَ له مخالفةً ، ولا أن يضمِرَ في نفسِه مماطلةً ، وكم أمرَ السلطانُ أمراً ، وأبطلَه أبو الهدى ، وكم شكا الرجالُ كثرةَ ما يقترِحُ لهم ، فما أفادَهم ذلك ولا ضره.

وكان عبدُ الحميدِ يقول: «عجبتُ لهؤلاءِ الخونةِ ، الذينَ يحسدونَ شيخي ، وليسَ فيهم من يليقُ به أن يكونَ من خُدّامه ، يكتبُ إليَّ الواحدُ منهم كتاباً يطلُبُ فيه بَدرةَ مالٍ ، أو رتبةً لا تكادُ تذكَرُ ، وهو مع ذلك يتعسَّفُ الحِيَلَ ، ولا يهتدي إليها سبيلاً.

أما أبو الهدى ، فإنْ سألني سألني عن ثقةٍ وظَرْفٍ ، ولا يتدنّى بقدرِه إلى طلبِ ما يكونُ مشاعاً ، يمكن أن ينازِعُه فيه غيرُه ، بل يطلبُ مني ما يفتخِرُ الشريفُ بنيله ، فهو الأميرُ ، وأولئك هم الصعاليك».

وما زال أبو الهدى مُجِدًّا في طلبِ خصومِه ، وهو كلَّما أدركَ واحداً جلدَ به الأرضَ ، وداسه بقدميه ، فلا يقومُ بعدها أبداً ، حتى سخَّرَ الله له عزة العابد [1] ، فثبتَ أمامه ، وناوأه في وجهِ ـ فكانا ككفتي الميزان ، إذا رجحَ أحدُهما خَفَّ صاحبُه ـ وقد اشتدت وطأةُ كلٍّ منهما على الآخر ، وضاعتْ بينهما

---

(١) [انظر ترجمته ص (٢٤٦) من هذا الكتاب].

مصالحُ الأمةِ والدولةِ. وانقسمَ عامةُ الناسِ إلى حزبينِ أحدُهما هدائي ، وثانيهما عزتي ، فما يبرمُ هذا أمراً إلا وينقضُه ذاك. ولا يفتحُ ذاك باباً إلا ويغلقُه هذا.

ولما رأى الناسُ من العابدِ ثباتَ قدمِه في مصاولةِ أبي الهدى جنحوا إليه بآمالهم ، ولاذوا بركنه عند فزعهم ، وسُرَّ بذلك عبد الحميد ، فاتخذ كلاً من المتفاضِلَين رقيباً على مفاضله ، ورأى سائرُ أعداءِ أبي الهدى أن لا يختلفوا في محاربته ، فاتحدوا عليه ، ورضوا بعزة العابد زعيماً ، فساروا تحتَ رايتِه ، وعملوا برأيه ، حتى كادوا يغلبونَ الصياديَّ ، ويزيحونه من طريقهم.

أما أبو الهدى فقد قرعَ بابَ السعادة في أولِ أمرِه داعياً باسم الدين ، وسار في طريق حياته سالكاً مسلك المتصوفين ، فكان يأتي عبدَ الحميد كلَّ يومٍ بعجيبةٍ من العجائب ، فآونة يبلِّغُه سلامَ النبيِّ ، وحيناً يَقُصُّ عليه رؤيا يزعمُ أنّه رآها ، ويفسِّرها له على ما يلائِمُ هواه ويرضيه ، ثم يدّعي لأبيه ولنفسِه كراماتٍ لا وجودَ لها ، وكان عبد الحميد محباً لهذه الأشياءَ ، ويظنُّ أنها من أقرب الوسائل إلى استدامةِ حكمه.

غير أنّ أبا الهدى تعدَّى ما كان رُسِمَ له ، فأفهم سيدَه أنَّ السالكينَ طريقةَ الرفاعي من دراويشِه كثيرون في مشارِقِ الأرضِ

ومغارِبها ، وأنّهم يُجلُّونه ، ويتفانون في حبه ، وأنه إذا نابه أمرٌ قاموا عن بكرة أبيهم انتصاراً له ، فكان عبدُ الحميد يسمعُ ذلك فيصدقه ، أو يضطر عقله إلى تصديقه لأمرٍ يعلمُه هو.

ولكنَّ حِيَلَ أبي الهدى تعدَّت السلطانَ إلى غيرِه ، فكانَ له رجالٌ يبتدعون له الكرامات ، وينتحِلون المعجزاتِ لأبيه.

ولقد روى لي الكاتبُ المصريُّ الشهير المرحوم إبراهيم بك المويلحي(١) نادرةً منها ، قال: كنتُ ذاتَ يومٍ عند أبي الهدى ، وقد غُصَّ مجلسُه بقومٍ من أصحابه وشيعته ، وكلُّهم جُلوس كأنَّ على رؤوسهمُ الطير ، فأخذَ أبو الهدى يحدِّثُنا بأمرٍ وقعَ لأبيه قال: رحمةُ الله على سيدي الوالد ، ما أظرفَ ما كانتْ تصدُقُ به كراماتُه.

خرجَ ذاتَ يومٍ شديدِ الهاجرةِ في حلب يريدُ التنزُّهَ ، فاشتدَّ عليه القيظُ ، وعلِمَ أنه لم يصبْ في اختيارِ وقتِ النزهةِ ، فانثنى

---

(١) [إبراهيم بن عبد الخالق المويلحي (١٢٦٢ ـ ١٣٢٣هـ = ١٨٤٦ ـ ١٩٠٦م) كاتب مصري ، رشيق الأسلوب ، قويه ، نقاد ، ولد وتوفي في القاهرة ، وعمل في الصحافة ، وسافر إلى الآستانة عام (١٣٠٣)هـ فجعل عضواً في مجلس المعارف ، ثم عاد إلى مصر ، وأنشأ جريدة «مصباح الشرق» أسبوعية ، من كتبه «ما هنالك» وصف ما رآه في عاصمة العثمانيين اهـ «الأعلام (١ : ٤٥)»].

راجعاً إلى بابِ داره ، حتى إذا وافاه جلسَ على عتبتِه مِنْ فرطِ ما أصابه من التعب ، وأخرجَ منديلاً له ، وجعل يمسحُ به عرقه المتصببَ على جبينِه ، وإنه لكذلك ، إذ برجلٍ يقودُ حماراً له ، عليه زنبيلان مملوآن خياراً ، فاشتهت نفسُ سيدي الوالد من ذلك الخيار ، وسأل البائعَ أن يَزِنَ له منه رِطلينِ ، والرطلُ الحلبيُّ يساوي أُقتين ونصفاً، ففعلَ الرجلُ، ولما انتهى من وزنِ الخيار، وأخذَ ثمنَه ، وهمّ بالانصراف ، التفتَ ، فما راعه إلا زنبيلاه وليس فيهما ولا خيارةٌ واحدةٌ ، فأخذَ الرَّجلُ ينوحُ وينتحِبُ ، ويقول: أينَ ذهبُ هذا الخيار؟ لم يمرَّ بنا أحدٌ فنقولُ سرقه.

فتبسّمَ سيدي الوالد وقال: كم كان بزنبيليك من الخيار؟

قال الرجل : سبعونَ رِطلاً.

فدفَع إليه سيدي الوالد ثمنه ، وقال: أنا أكلتُه.

فنظر الرجلُ في وجهِ الوالدِ ملياً ، ثم صاح: والله إنّك لقطبُ الزَّمانِ وغوثُه ، وانكبَّ على قدميه يقبِّلْهُما ، فطيَّبَ الوالدُ الرَّجُلَ ، وقال : لا بأسَ عليكَ ، ولكن عاهدني أن لا تبوحَ بما رأيتَ لأحدٍ ، فعاهده الرَّجُلُ على ذلك ومضى في شأنه[1].

---

(١) [انظر عن أمر هذه الكرامات القسم الحادي عشر : طرائف وأخبار عن أبي الصيادي ص (٢٧٧)].

قال المويلحي: فما أتمَّ أبو الهدى كلامَه إلا نهضَ رجلٌ في أخريات الجالسين، وقال: يا مولاي عفواً! إنّه لم يكن بالزنبيلين سبعونَ رطلاً، بلِ خمسة وتسعون، كما أخبرني به البائعُ نفسُه.

قال أبو الهدى: للهِ أنتَ ما أحفظَ قلبكَ، واللهِ لقد أنسانا الزمانُ ذلك.

قلت للمويلحي: يا إبراهيم بك هذه ليستْ بكرامةٍ، وإذا صحَّتْ الروايةُ فأبو أبي الهدى جملٌ أو ثورٌ، وليس بغوثٍ ولا شيطانٍ.

وقد كتبتُ وأنا بالآستانة رسالةً صغيرةً طُبِعَت بمصرَ، سميتُها «الخافي والبادي من فضائح الصيادي» ذكرتُ فيها أشياءَ كثيرة من هذا القبيل، لا أرى بي حاجةٌ إلى استعادتها هنا.

وكما انتصرَ أبو الهدى على خصومه بالوشايات، انتصر عليهم بالجرائد. فوجَّه إلى مصر في نحو سنة (١٨٩٢) رجلاً من دراويشه، اسمه السيد كمال الدين الدمشقي، فأتى هذا الرجلُ إلى مصرَ محمَّلاً بالمال، مصحوباً برعاية أبي الهدى وقوَّته، وكان خليعاً ظريفاً، وسيمَ المُحَيَّا، يمشي وكأنَّه مروحةٌ في يدِ الحسناء، فأصدرَ كمالُ الدين جريدةَ «القاهرة»، التي أسسها

سليم فارس[1] ، ثم نشرها من بعدِه محمد عارف الكاتب الشهير.

فكأن خيبة الجَدِّ[2] استكثرتْ على «القاهرة» سابقَ مجدها ، فأرادتْ أنْ تنزِلها بعد الرفعةِ إلى أسفلِ الدركات .

فأخذتْ تُـنْـشَرُ جريدةُ «القاهرة» كلَّ أسبوعٍ ، بعدَ أن كانتْ تُنْشَرُ كلَّ يومٍ ، وسُوِّدَتْ صفحاتُها بمقالاتِ الدراويشِ وأهلِ المجون ، بعد أن كانتْ ترصِّعُها باللآلىء أقلامُ مشاهيرِ الكتاب في عهد سليم فارس ، ومحمد عارف ، وأتتها قصائدُ الصوفيةِ مطوَّلةً باردةً مظلمةً كليالي الشتاءِ.

وقد اشتغلتْ الدسائسُ بينَ مصرَ والآستانة ، فأخذَ كثيرٌ من الأغنياءِ يَحْبُوْنَ كمال الدين بالمالِ ، ويتخذونه شفيعاً إلى أبي الهدى في استجلابِ رتبةٍ أو وسامٍ ، أو قضاءِ حاجةٍ دخلتْ فيها المُشْكِلاتِ ، وأخذتْ جماعةٌ من رجالِ عزة العابد تنتصرُ بالمعية[3] وأخذت المعيةُ تطارِدُ كمال الدين ، وبذا عرفَ المصريون من مكانة أبي الهدى ما لم يعرفوا من قبلُ ، فأقبلوا على سفيره المعمَّم يمشون وراءَه.

---

(١) [سليم بن أحمد فارس الشدياق].

(٢) [الحظ].

(٣) [رجال الخديوي].

ودخل أبو الهدى أبواباً لم تكن تَنفتِحُ له لولا جريدته ودرويشه، فقصدَ إليه المتنازعون مع المعية في أمرِ جزيرة طاشيوز، وتحمّلوا إليه الدراهمَ، ويممه أصحابُ وقفِ العلماءِ في قضية الأزهر، ثم تاجرَ بالرتب والنياشين، فربحت تجارتُه.

وكان المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني صديقاً لأبي الهدى، وكان كلٌّ يخاطِبُ صاحبَه بيا بنِ العم، ولا يصبِرُ أحدُهما على فراقِ الثاني يوماً واحداً. فسعى بينهما بالنميمة عبدُ الله النديم[1] حتى تنافرا، وبلغتْ منهما العداوةُ والبغضاءُ أن باتَ كلٌّ يطلُبُ موتَ بغيضِه، ومن هنا بدأت الحروبُ الصياديةُ، وتنازَل القِرْنان، ولولا أنَّ المنيةَ تداركتِ الأفغانيَّ، لظلتِ الحربُ إلى يوم إعلان الدستور.

---

(١) [عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسي الحسني (١٢٦١ - ١٣١٤هـ = ١٨٤٥ - ١٨٩٦م) صحافي خطيب، من أدباء مصر وشعرائها، كان كبير خطباء الثورة العرابية، فطلبته حكومة مصر، فاستتر عشر سنين، ثم قبض عليه، ثم أطلق على أن يخرج من مصر، فغادرها، ليستقر أخيراً في الآستانة، مفتشاً للمطبوعات في الباب العالي، واستمر بعمله إلى أن توفي، وكان مناصراً لعزة باشا العابد ضد أبي الهدى الصيادي، وألف في هجاء أبي الهدى كتاب «المسامير»، كما أنشأ جريدتين هما «الطائف» و«الأستاذ»، وله مؤلفات عديدة انظر «الأعلام (٤ : ١٣٨)»].

وسيأتي الكلامُ على هذه الوقائع في فصلٍ خاصٍّ بها[1].

ولقد نفع أبا الهدى كثرةُ حاسديه ، فاتخذَ فرطَ بغضِهم له برهاناً على إخلاصِه لعبدِ الحميد ، وجعلَ يوهمه أنه لو كان خائناً مثلهم لما أبغضوه.

وما أراحَ ذلك عبدَ الحميد ، ولكنه أظهرَ الارتياح ، فصاحَبه على ريبةٍ من أمره ، ثم خافه على نفسه ، فباتَ يدبِّرُ له ما يرديه ، غير أنَّ أبا الهدى أحسَّ بالشرِّ ، وعلم أنه إن وقع مرةً لن تقومَ له بعدها قائمة ، فأسرَّ إلى قومٍ يعلمُ أنّهم لن يحفظوا له سِرًّا؛ أن عندَه صورةَ فتوى بخلعِ عبدِ الحميد من شيخِ الإسلام المرحوم عرياني زاده ، مكتوبةً بخطِّه ، مذيلةً بخاتمه ، وأنَّه لا ينشرُها إلا إذا أوجسَ على نفسِه خيفةً ، فنُقِلَ هذا الكلام إلى عبد الحميد ، فهاجت له وساوسه ، واستطال سهاده ، وحال بين أبي الهدى والهلاك .

وكان أبو الهدى كثيرَ الدالَّـةِ على سيدِه. فكثيراً ما قاطعه أسابيعَ ، لا يطأُ له فيها بساطاً ، وإذا كتب يسأله عن أمرٍ لا يردُّ عليه جواباً ، حتى يسترضيه سيدُه بحاجةٍ يقضيها له.

وكان أبو الهدى يركَنُ في الشدائدِ إلى رأي ابنِه حسن خالد

---

(١) [جمعتها في القسم الحادي عشر].

بك ، وهو شابٌّ ظريفٌ ، سهلُ الخلق ، ذكي الفؤاد ، حاضر البديهة ، يشبه أباه وجهاً ، لولا لحية كثة كست عارضي أبيه ، ولم تنبت بعارضيه .

جرت عادةُ هذا الشاب أن يذهبَ إلى قصر يلديز ، ويطوف بدوائره ، ويتجسس على رجالِ القصرِ كلِّهم ، وقد برعَ في استراقِ السمعِ ، واختلاسِ ما يُكْتَبُ بنظرةٍ ترتدُّ إليه ، بعد ما ترود خلالَ كتب الغيب ، فيرجع إلى أبيه ، وعنده النبأُ اليقين بما كان وبما يكون .

وكان لأبي الهدى جاسوسٌ آخر اسمه جميل ، حلبيُّ الأصلِ ، زوجوه جاريةً من جواري عبد الحميد ، واستخدموه بإدارة الجمارك (أمانة الرسومات) وجعلوا له راتباً للتجسس ، فكان هذا الرجلُ لا يرفَعُ وشايةً إلى عبد الحميد إلا باستشارةِ الصيادي ، فأمسى الصياديُّ وله جاسوسان ، أحدهما ابنُه ، يأتيه بأنباء سيده ، وثانيهما جميل الحلبي ، ينقلُ عنه إلى عبد الحميد ما يتفقان على نقله .

على أنَّ أبا الهدى مع ما ذكرتُه عنه من تعدُّدِ موارد رزقه ، وتيسر الكسب له ، لم يكن ذا وَفْرٍ ، بل كان كثيرَ الديون ، إذ اضطرته مواقفه مع خصومه إلى الاستمرار على التبذير ، ثم كَلَفُه بالتشبه بأهل السماحة ، وإظهار الأريحية ، والجري على

سنن الكبراء من السلف ، في إجازةِ المادحين ، وفتح باب داره للقاصدين من الضيوف والدراويش ، كان يستنفد ما في خزانته ، فيقترِضُ من رَجُلٍ صيرفيٍّ اسمه توفيق أفندي الداغستاني.

هذا ولم ينل صلةً من عبد الحميد إلا فرّقها على الخاصة من شيعتِه ، القائمين بأمرِ دعوته.

* * *

ماذا كان يريد أبو الهدى؟

ذهب كثير من الناس إلى أنّ أبا الهدى كان يريدُ أن يجعلَ نفسَه خليفةً ، وأن يجعل الخلافةَ في العرب كما كانت ، **وهذا افتراءٌ محضٌ** .

أجل كانت نفسُ الصيادي طامحةً لكلِّ ما يعليه ، كما أسلفتُ في الفصل المتقدم ، ولكنّ نفسَه لم تحدثه بشيء من ذلك . فقد عرفَ خطر هذا الأمر ، ومسافةَ بعدِه عن الإمكان ، وإنما هاجمه أعداؤه بمثل هذه الأقاويل طلباً للإيقاع به ، وإقصائه عن عبد الحميد .

وما غاظَ أبا الهدى أحدٌ مثل كاتبِ هذا الكتاب [1]، وقد قلتُ فيه مالم يقل غيري ، وزعمتُ أنه كان يسعى في قلب الخلافة والاستئثار بها ، **ولكنه زعمٌ ليسَ بصحيحٍ** ، وإنما أردتُ أن يُبْعَدَ عن عبد الحميد ، ويخف ضرره عن الدولة .

---

(١) [أي ولي الدين يكن] .

وكان أحبُّ الأشياءِ إلى أبي الهدى أن يصيرَ شيخَ الإسلام ، لأنَّ صاحبَ هذا المقام له التصرُّف المطلق في نصب القضاة وعزلهم ، وفيه من الوسائل لاستجلاب الدراهم ما لا يتحصَّل في مقامٍ غيره .

ولأبي الهدى دراويش ومادحون ، يحبُّ أن يقلدَهم مناصبَ رفيعة في الولايات ، ليكسبوا فيها ، ويكسبوه معهم .

ولكن عبد الحميد لم يسمحْ له هذا السماح ، ووقف وسواسُه بينه وبين أماني شيخِه المحبوب ، على أنّ أبا الهدى عاش ما عاش غيرَ يائسٍ من الفوز بمأربه .

ثم الخلافة ، وهي الملك في عرف أهل البدعة والتعصب ، لا يحلمُ بها أبو الهدى ومن هم على شاكلته من رجالِ التصوفِ ، فهم قوم يميلون إلى إظهار النسك في أنهارهم ، وإدّخار اللذات إلى لياليهم ، لأحبُّ إليهم أن يقالَ فيهم : إنّهم أهلُ الله ومقرّبوه ، ومن لا يُرَدُّ لهم دعاء ، ومن جَعَلَ الأكوانَ وما بها من حي وجامدٍ طوعَ مشيئاتهم ، والولي ينفعُ الخليفةَ ويضرُّه ، ويرفعُ البلاد ويضعها ، وليس الخليفةُ كذلك .

وأهل التصوفِ يبدون الورعَ ، ويسرّون الطمع ، فهن يأكلون ويشربون خفية ، فإذا هم جلسوا إلى طالبيهم ادّعوا

الصوم ، وتنزهوا عن مشاركة الناس في حالاتهم من ضرورةِ الأكلِ والشربِ والنوم.

وكيفَ كان يقنعُ أبو الهدى بأن يكونَ خليفةً على العرب ، وهو يدّعي أنه يفعل ما يريدُ بالرغم من الخلفاء ودولِ الأرض كلِّها.

أما طمعه في أن يكون شيخَ الإسلام ، فذلك لكي يقال: إنَّه رجلٌ كَلِفٌ بخدمة الدينِ ، ذو وجدٍ بنُصْرَةِ الشرع ، فيزيدُ الناسَ فتنةً بظاهرِ ورعه ، ويزيدُ الناس فتنةً بجاهِه وحبائِه.

أكبرُ برهان على صدق ما أقول: أن أبا الهدى لم يخاصِمْ من الصدور ورجال الدولة إلا مَنْ أبوا الانقيادَ إلى رغائبه من استخدام تابعيه ، أو مَنْ بدأوا بعداوته.

أما رجال التصوف والمنتحلون العلم فقد شَنَّ عليهم الغارات ، وأنزلَ بهم البلاءَ ، ولو لم يتعرّضوا له بعدوانٍ. وذلك بأنَّ هؤلاء مشاركونَ له في الصفات التي يحبَّ التفرُّدَ بها.

كان الشيخ محمد ظافر المدني[1] رحمة الله عليه رجلاً

---

(١) [محمد ظافر بن محمد حسن الطرابلسي المغربي المدني (١٢٤٤ - ١٣٢١هـ = ١٨٢٩ - ١٩٠٣م) متصوف ، من فقهاء المالكية ، ولد في مصراتة ، وسكن المدينة المنورة ، واستقر شيخاً للزاوية الشاذلية في الآستانة ، وتوفي بها ، وكان وثيق الصلة بالسلطان عبد الحميد الثاني ،=

جاهلاً. وإنه لأشبهُ الناس برؤساء الصوفيين ، الذين نراهم في القطر المصري ، ويسمّون أنفسَهم مشايخ السجادة ، وكان من رؤساء طريقة صوفية اسمها الشاذلية ، عُرِفَ بالصلاح ، واجتناب الزخارف ، وحب التواضع ، وقد اتصلَ بعبد الحميد في ولايةِ عهدِه ، أيامَ كان عبد العزيز سلطاناً على العثمانيين ، فلمَّا ولي الملكَ عبدُ الحميد زادَ حُباً للشيخِ ظافر ، وأجزلَ عطاءَه ، وشادَ له تكية ، هي باقية إلى اليوم على يسار الطريق الموصل إلى قصر يلديز. هذا الشيخ المسكين كابدَ من أبي الهدى ما لا يدخلُ تحتَ الحصر ، ولولا مكانتُه عندَ عبد الحميد ، وانتصارُ جماعةٍ من أعداءِ أبي الهدى له ، لحلَّ به من البلاءَ العظيم ما حلَّ بغيرِه.

وقد اتحد مصطفى ظافر بن الشيخ ظافر وسائر إخوته وعمِّه المرحومِ الشيخ حمزة مع عزة العابد ، فأمكنَ له أن يقاوِمَ أبا الهدى ، ويقفَ أمامه طولَ أيام حياته.

وقد وقعَ لأبي الهدى مع الشيخ أسعد[1]، وكيلَ الفراشة

= يلقنه الذكر ، له عدة مؤلفات ، وكان بينه وبين أبي الهدى الصيادي عداوة الأقران انظر «الأعلام» (٧ : ٧٦)].

(١) [هو الشيخ أسعد شقير ، إمام آغا دار السعادة ، ونائب أنطاكية في مجلس المبعوثين انظر ص (٣٠٧)].

رحمه الله أكثر مما وقعَ له مع الشيخ ظافر. فقد نالَ أسعدُ من الحظوةِ لدى عبد الحميد ما لم ينلْهُ أحدٌ قبله ، وفاقه فيه أبو الهدى بعدَه. ولعلَّ من سيقرأون كتابي هذا من المصريين لا يعرفون أسعد ، الذي أتىٰ ذكره عرضاً في هذه السطور ، ولولا أن ذكره خارج عما نحن بصدده ، لأجملتُه لهم في كلمات. ولكنني أقولُ لهم: إنّ هذا الرجل يعرفه العرابي وبعض الخاصة من حزبه ، فقد كان يكاتب العرابي ، ويعده بجعل الخديوية وقفاً عليه ، ومن يتلوه من ذريته ، ويبلِّغه سلام عبدِ الحميد ورضاه ، وقد أصاب أسعد جنونٌ في عقله ، لم يعش بعدَه كثيراً ، ومات وأنا بالآستانة.

وكان الشيخ الجربي قصد إلى الآستانة في إحدى السنين. ويعرف المصريون ما اتصف به الجربي من حسن المنطق ، وجودة القريحة ، وبيان الأسلوب. فلما اتصل ذلك بأبي الهدى همَّه ، وأورثه القلق ، وخاف أن يطولَ بالآستانة مقامه ، فينالَ حظوةً عند عبد الحميد ، ويتغلَّبَ عليه. فبادرَ من ساعته إلى القصر السلطاني وما خرجَ منه إلا وصدرَ الأمرُ بإقصاء الجربي عن الآستانة.

ولأنْ اشتغلَ أبو الهدى في كثيرٍ من أوقاته بمهام الملك ،

فما ذلك إلا ليقولَ عبدُ الحميد: إن الله آتى هذا الرجل من علم كل شيءٍ أوفرَ نصيب .

وكان يقول لكثير من الناس: لو شئتُ لكلمتُ الطيورَ، وساميتُها إذ تحلِّقُ في الجوِّ، ولخاطبتُ النمال، ودعوتُ الوحوشَ فأجابت. كلُّ هذا أرادَ به ادّعاء الولايةِ والحظوةِ عند خلّاق الكائناتِ.

وكثيراً ما تباهى برجُل يسميّه سيدي القطب المهدي الروَّاس، يقول: إنّ هذا القطب كان أستاذه، وأنّه لقنه كلَّ ما يعلمُ، واتخذَه صاحباً لمّا رأى فيه من مخايل الذكاء! وذكر أنّ قطبه الروَّاس تفرَّسَ وجهه ذاتَ يومٍ فقالَ على البديهةِ:

إنَّ خافيكَ الذي غيبتَه   هو بادٍ ظاهرٌ في حاضركْ
أَجِلْ قلباً في حمانا إنّنا   نحنُ قمنا بالذي في خاطرِكْ

فقلت: ما الذي أراد بقوله (قمنا بالذي في خاطرك)؟.

قال: أرادَ ما لا ينبغي أن تعلمه لا أنتَ ولا أمثالك.

هذا الملك الروحاني المدّعى هو أكبر عندَ جميع المحتالين من أهلِ التصوُّفِ من الملك الدنيوي، فقد قضَوْا على ملوكِ البلادِ أن يمتثّلوا لإشاراتهم، وأن يرفعوا أقدارهم، وأن يهابوا جانبهم، وما خاطبوا ملوكَ الإسلام إذ خاطبوهم إلا زعموا أنَّ

الله تعالى أوحَى إليهم بذلك ، وعقلاءُ الشرق هم رجال الطبقة المتوسطة بين الملوك والسوقة ، قليلُ ما بقي بالشرقِ مِنْ عِلْمٍ هو مقسَّمٌ بينهم.

أما الملوك والسوقة فمتساوون علماً وفهماً ، وإذا امتازَ الملوك عن إخوانهم السوقة في أشياءَ من السياسة ، فذلك محمولٌ على كثرةِ معاناتها ، وتجريبها ، والاضطرار إلى ممارستها. وقد رأيتُ من جهلاءِ الناس غيرِ المنقطعين إلى العبادة كثيرين لا يصدّقون أكاذيبَ مشايخِ الصوفيةِ.

ومما لا أرى بأساً من ذكره في هذا الفصل أنّ أبا الهدى عثر في مكتبة آيا صوفية على شيءٍ من الجفر[1] المنظوم. ذكر في أوله أنّه كان مِنْ محفوظاتِ السلطان مراد الرابع ، فطابَ أبو الهدى بهذا الكتاب نفساً ، وأخذَه من المكتبة ، واحتفظ به. فلما كانتْ المذبحةُ الأرمنية التي وقعت في سنة (١٨٩٤)م رَفَعَ هذا الكتاب بنفسِه إلى عبد الحميد ، وإذا فيه إشارةٌ بالحمرةِ على بيتٍ من الشعرِ هو هذا:

ويحترِقُ الأرمنيُّ الخبيثُ   بما كانَ أَضْمَرَهُ فَاسْتَعَرْ

(١) [كتاب تنبأ فيه صاحبه كاذباً بما ستجري به الأيام ، وعزاه كذباً وزوراً للإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه].

فكان هذا معواناً لعبد الحميد على الجهلِ ، فقد شدَّ به عزيمته ، وأمضى مضاربه [1] ، وباءَ بحسُن الجزاءِ من عدوِّ الناسِ وجزارهم ، وظهرَ لمن اتبعه من الجاهلين ظهورَ الأولياء.

أجل تكلَّم أبو الهدى كثيراً في أمرِ الخلافة حين حفلتْ مجالسُه ، وأقبلُ عليه بالسمع أشياعُه ، فقال: «إنّ الخلافةَ كانتْ عربيةً ، وينبغي أن تبقى عربيةً» ولم يبالِ بمن ينقلُ عنه هذا الكلام إلى عبدِ الحميد ، وهذا غايةٌ في المكرِ ، ودَّ أن يرتابَ عبدُ الحميد في أمرِه ، ويتوهَمَ أنه يعملُ على غصبِ الخلافةِ منه ، ليزدادَ خوفاً ، وليعيشَ معه على المسالمة.

هذا وأبو الهدى أعلَمُ الناسِ بأمرِ الخلافةِ وبعدِه عنها ، ثم لم يكن كَلِفاً بها كلفَه بادّعاءِ الكرامةِ.

وما كان أكثرني تعجباً من دراويشِه ، حينَ يذكرون له كرامات لا يصحُّ تصديقُها في مثل هذا العصر ، زاعمينَ أنهم رأوها رأيَ العين.

أخبرني كمال الدين الدمشقي أنّ العقارب في بيتِ أبي الهدى لا تؤذي أحداً ، وأنه نهى دراويشَه عن قتلها. فقال:

---

(١) سيوفه.

دعوها ، لن يصيبكم منها أذًى. وقال: كثيراً ما ننامُ الليلَ وفي فراشِ الواحدِ منا واحدةٌ أو ثنتانِ من العقاربِ ، ولا يخطرُ لنا على بالٍ أنها ستؤذينا.

وحدثني أبو الخير ، وهو خليفة أبي الهدى قال: بينا نحنُ مع السيد في أحدِ أذكارِه إذ أخذته سكرةٌ ، فعمد إلى حسامٍ كان على الأرض ، فأغمده في صدر أحد الدراويش ، حتى خرج النصلُ من ظهرِه شبراً. فأخذ منا الروعُ مأخذُه ، فما هو إلا أن استلَّ الحسامَ، وبصقَ على موضعِ الجرحِ فالتأمَ لوقتِه، ولم يتركْ له أثراً[1].

هذا الذي أراده أبو الهدى في حياته ، وقد نالَ منه مانال ، وبمثله كَلِفَ المتمهدي في السودان ، ومن ظهر باليمن ، ولو طالتْ أيامُ الاستبداد ، ومات أبو الهدى في دولته بعد سنين ، لكان قبرُه كقبرِ الولي يزار ، وتقام فيه الصلاة ، ولألَّف له من يسيرون على نهجه من بعده كُتباً يذكرون فيها من كراماته ما فاته في أيام حياته.

على أنّ ما بناه الباطِلُ يهدمه الحق ، وفي إقبالِ الحَظِّ ورفعةِ الدولة ما يسهي المرءَ عن الصواب.

---

(١) [انظر عن حقيقة ضرب الشيش كتاب «عيادة في الريف» للدكتور عبد السلام العجيلي] .

ومن رأى أبا الهدى في أيام عِزِّه ، وشهدَ مصرعَه بعد إعلانِ الدستور ، علم أنَّ الباطلَ مهما طالَ قصيرٌ ، وليتَ هذه العظاتُ تنفعُ أبناءَ الشرقِ ، فيقلعون عن الاستمساكِ بتلك الأضاليلِ التي خذلت السلفَ ، وأشقت الخلفَ ، ولا يعتمدونَ إلا على الجد في أمورهم[1].

* * *

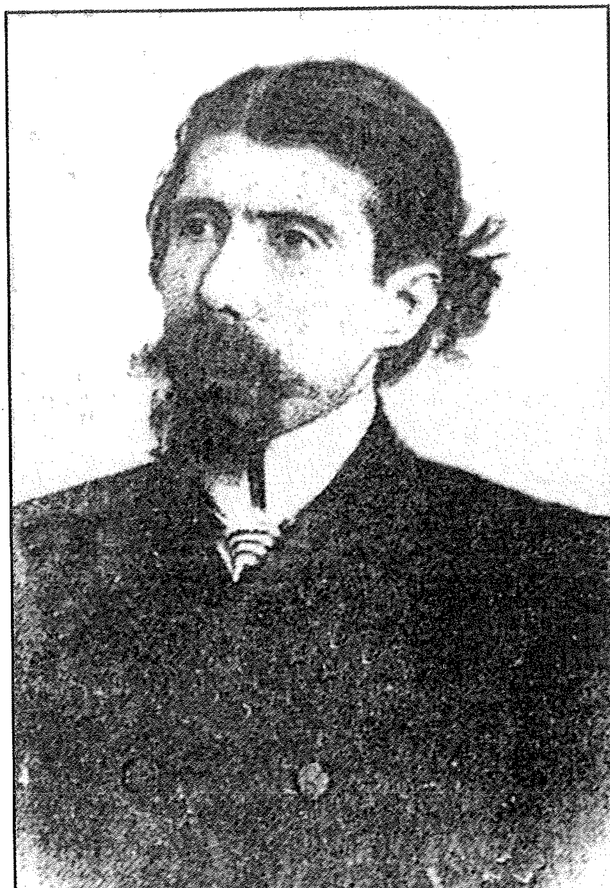
(١) [المعلوم والمجهول (١ : ٩٠ ـ ١٠٤) ومن المعلوم أن ولي الدين من شانئي أبي الهدى ، فقال فيه ما قال!! والله أعلم بحقيقة الحال].

القسم الرابع

أبو الهدى الصيادي

بقلم

قسطاكي الحمصي



الشاعر قسطاكي الحمصي

قسطاكي الحمصي

(١٢٧٥ ـ ١٣٦٠هـ = ١٨٥٨ ـ ١٩٤١م)

هو قسطاكي بن يوسف بطرس بن يوسف بن ميخائيل الحمصي.

شاعر من الكتاب النقاد، مولده ووفاته في حلب.

أصل أسرته من حمص، حيث هاجر أحد أجداده إلى حلب، فأقام بها، تعلم في أحد كتاتيب الروم الكاثوليك، ثم انتقل إلى مدرسة الرهبان الفرنسيسكان، فمكث بها خمسة عشر شهراً، انصرف بعدها إلى التجارة.

قرأ علوم العربية على بعض المعلمين في أوقات فراغه، وعكف على مطالعة أمهات كتب الأدب العربي، ثم ترك التجارة، ورحل إلى عدة بلدان، فزار فرنسة أربع مرات (١٨٧٥، ١٨٧٨، ١٨٩٢، ١٩١٢) وزار بيروت عام ١٩١٢، فتعرف على كلٍ من إبراهيم اليازجي وفانديك، ويعقوب

صروف ، وفارس نمر ، وأديب إسحاق ، وحسن بَيْهُم ، ويوسف الأسير.

وفي عام (١٨٩٨) زار الآستانة ، من أجل متابعة دعوى أقامها على المصرف العثماني ، لاختلاف مالي بينهما ، وكان المصرف قد استأنف الدعوى في الآستانة ، حيث له فيها نفوذٌ قوي.

وفي الآستانة تعرف قسطاكي على الشيخ أبي الهدى الصيادي ، فأعانه على الوصول إلى حقه ، وأكرمه ، فكان لما رآه من أبي الهدى أثر عميق في نفسه ، ونرى ذلك في ترجمته لأبي الهدى الصيادي في هذا الكتاب.

وفي عام (١٩٠٥) ذهب إلى مصر لأول مرة ، فتعرف على كلٍّ من شيخ العروبة أحمد زكي باشا ، وسليمان البستاني ، وجرجي زيدان ، والشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد» ، وداود بركات ، وأحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم ، وخليل مطران ، ورفيق العظم.

من مؤلفاته :

١ ـ «منهل الورّاد في علم الانتقاد» ٣ أجزاء.

٢ ـ «السحر الحلال في شعر الدلّال» أي شعر جبرائيل الدلال خال قسطاكي.

٣ـ «أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر» وفيه ترجم لأبي الهدى.

٤ ـ «ديوان شعر» وشعره تغلب عليه جودة الصنعة، وفي بعضه رقة وحلاوة، وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق.

* * *

أبو الهدى الصيادي

فردٌ من أفراد الدهر ، وعَلَمٌ من أعلام العرب في العصر ، بل إنسان عين النباهة والفضل ، وعنوان المحاسن والظَرْف والنُّبل ، جرى في المجد والجاه إلى أبعد الغايات ، وانقطع عن شأوه كلُّ سبَّاقٍ في المجاراة ، ومشى وراء خطواته الوزراءُ والكبراءُ ، وقبَّلَ يديه أعيانُ العصر والأمراءُ ، وانفردَ عن الأشباه والنظراء ، فظلّ في صحبة عبد الحميد ـ باقعةِ السلاطين من آل عثمان ـ زهاء ثلاثين سنة ، في صعود متوالٍ ، ورفعة مكانٍ ، ولم يَـنَـلْ أحدٌ من أبناء الأمة العربية ، لا بل التركية ، ما ناله عنده من المنزلة الرفيعة ، والحظوة السنية .

وكانت حضرته يومئذٍ في القسطنطينية قِبلة ذوي الآمال من القُصّاد ، ومثابةَ الغرباء على اختلاف الأجناس من أقصى البـلاد ، فكنـتَ تـرى أبنـاء الهنـد ، والصيـن ، والأفغـان ، ومرّاكش ، ومصر ، والسودان ، إلى غيرهم من أجناس الأمم

المنتشرة في أبعد جهات آسية وأفريقية ، بل كثيراً من عظماء الفرنجة يَؤُمّون تلك الحضرة ، للتحدث في بلادهم بمشاهدة الرجل الذي طبقت شهرتُه سائر عروش الممالك.

كان وافرَ الحظِّ ، ساحرَ اللفظ ، طلقَ اللسان ، حلوَ البيان ، ثبتَ الجنان ، فإذا أفاضَ في كلامه ملك أعنَّةَ القلوب ، وأسر النواظرَ ، فكأنَّ كلَّ إنسانٍ منها مسمع مجذوب.

وكان بعيدَ غورِ الحِلْمِ ، صادقَ الفراسة والحُكْمِ.

وكان عقلُه فوقَ علمه ، وحفظُه وذكاؤه كسرعةِ فهمه .

ونثره ـ ولا سيّما في الإخوانيات وغيرها من رسائله ـ خيرٌ من شعره ، ونظمُه المشهورُ كلُّه في المدائح النبوية ، وهو مطبوعٌ ، وله تأليفات كثيرة مطبوعة ، وجُلُّها في إثباتِ نسبه الرفاعيِّ ، **وتكذيبِ من أنكره عليه!!**.

ومن مروياته «ديوان الروّاس» وهو مطبوع ، وكان يقول: إنّه شيخه ، وعنه أخذَ العلم ، **ويقول بعض الناس: إن الروّاس اسم وضعه هو ، لمسمًّى لم يوجد ، وإن الديوان الذي رواه ونسبه إليه ، هو نظمَهُ** ، ولعله أقلّ تكلّفاً من ديوانه ، والنسج واحدٌ ، فإن صحت رواية المنكرين ، كان نظمُه ديوانه بعد ديوانِ الروّاس ، أو لعلة أخرى مجهولة!!

[حليته]

كان تامَّ الطول ، مكتنز اللحم ، ممتلىء البدن ، صلبَ العضل ، غليظَ الألواح ، عريضَ المنكبين ، أسمر اللون إلى الخضرة [1] ، مستدير الوجه ممتلئه ، أسود الشعر (آخر العهد به سنة ١٨٩٨)[2] حسن الملامح جذاب الجملة.

* * *

ولد في خان شيخون ، قرية من أعمال حلب ، ولعله تأدّب في هذه المدينة ، إذ أقام فيها منذ فتوته ، وورد بغداد ، وأقام بها أشهراً ، ثم رحل إلى القسطنطينية ، ووافاه بها السعد الأتم.

ولما هجم الاتحاديون على قصر السلطان عبد الحميد ، هجموا في الساعة عينها على قصر السيد المشار إليه ، وكان في سريره ، يعاني مضض الداء الذي أودى به ، فلم يقف ذلك في سبيلهم ، بل أمروا بنقله على سريرٍ إلى جزيرة الأمراء (برانكيبو) فظلّ بها بضعة أشهر في فراشه ، حتى وافته منيَّته ، رحمه الله ، وجاد بسحائب الرضوان على ثراه.

---

(١) الخضرة: السواد.

(٢) [التقى المؤلف أبا الهدى الصيادي أثناء زيارته الآستانة عام (١٨٩٨)م].

وهذا شيءٌ من شعره

يعاركني الزمانُ كما يشاءُ ... وبي للحزنِ نشرٌ وانطواءُ
ولي قلبٌ عبثنَ به الليالي ... بفقدِ أحبَّتي والفقدُ داءُ
فأيُّ مسرَّةٍ تحلو لقلبي ... ولونُ الماءِ يُبْرِزُهُ الإناءُ
تهاجمتِ الهمومُ عليَّ حتى ... جرت عيني، ومدمعُها دماءُ
وأوقاتٌ مع الأحبابِ مرّتْ ... عسى لا راعَ برهتَها انقضاءُ

وقال يفتخر:

كيفَ لا تزدهي بنا العلياءُ ... ولنا المجدُ طينةٌ ورداءُ
أمةٌ خيرُ أمةٍ أخرجتْ للـ ... ـناس، والناس بعدها أكْفَاءُ
قامَ منها في الأعصرِ السود أقما ... رُ؛ رجالٌ لها الشموسُ حذاءُ

ومنها:

أرهبوا الأرضَ حين صالوا وظلتْ ... تشكرُ الأرضُ فعلَهُمْ والسماءُ
ولكم حينما رحى الحرب دارتْ ... سجدتْ حالَ أرعدوا الهيجاءُ
وتساوى بطاعةِ الأمرِ منهم ... في الورى الأقرباءُ والبعداءُ

ومنها:

شرفُ المرسلينَ معنى نصوصٍ ... لاحَ منها المحجَّةُ البيضاءُ
نكتةُ الأصلِ روحُ جسمِ فروعِ الـ ... ـكونِ، نورٌ بهديه يُستضاءُ
طلسمُ العلمِ في ضميرِ جنابٍ ... أحرزتْ علمَها به العلماءُ

وقال:

لله من ريم الحجونِ شرود لهفاً عليه هجرتُ طيبَ رقودي
يرنو، ويرمي من قسيٍّ حواجبٍ نبلَ الجفونِ بقلبي المكمودِ
أفديه مكحولاً تحكَّم سَهْمُهُ مني بقلبٍ حاضرٍ مفقودِ
يا لَلرجالِ ترحُماً بمتيّمٍ أفنتْ معالمُه ظباءَ زرودِ
أنا مغرمٌ كم صاغَ ضمنَ نظامِه بيضَ المعاني في العيونِ السودِ
أهوى الجميلَ، وإن أقمتُ مع النوى بيدِ البِعادِ مُسَرْبلاً بقيودِ

وقال وأحسن كلَّ الإحسان:

ما الذي أصنعُ بالنفس الأبيه تطلبُ المجدَ ولا تخشى المنيَّه
وترى أن المعالي تبتغى بكمالاتٍ وأخلاقٍ زكيَّه
ما عليها لو مع البعضِ ارتدتْ لمنالِ القصدِ أثواباً دنيَّه
طُبِعتْ قدماً مع الخلق على هممٍ لو ساعد الحظُّ عليَّه
تعشقُ المعروفَ للناسِ، وإنْ قُوبلتْ عنه بأنواع الأذيَّه
وتكفُّ السوءَ عن حسَّادها لرضا الرحمنِ عن خالصِ نيَّه
وتحبُّ البذلَ ممّا وجدتْ وترى النقصَ إذا أبقت بقيَّه

ومنها

قنعتْ فالتحفت ثوبَ الغنى كلُّ نفسٍ قنعتْ تلك غنيَّه
واعنائي هذه مُتْعِبتي إنما النفسُ إذا عزّت بليَّه
تكرهُ الذُّلَّ، وترجو أنها تبلغُ العليا بخلقٍ وسجيَّه

شَرُفَتْ نهجاً ، فلمّا عَظُمَتْ رتبةً ، صارتْ من المالِ خليَّه
وزمــانٍ يــالــهُ مــن زمــنٍ أهلُه ساءوا بِحُكْمِ الأغلبيه[1]

* * *

(١) «أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر» (١ : ١٨٦ ـ ١٩٠) .



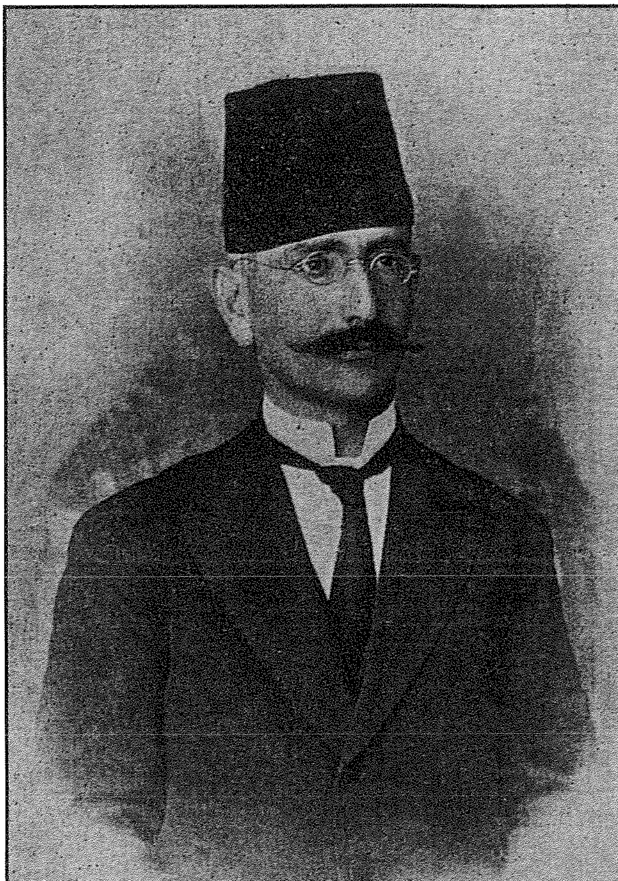
السلطان عبد الحميد الثاني

القسم الخامس

أبو الهدى الصيادي

بقلم

محمد كرد علي



محمد كرد علي

محمّد كرد علي

«١٢٩٣ ـ ١٣٧٢ هـ = ١٨٧٦ ـ ١٩٥٣م»

محمد بن عبد الرزاق بن محمد كرد علي.

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ومؤسسه، وصاحب مجلة «المقتبس» والمؤلفات الكثيرة، وأحد كبار الكتّاب، أصله من أكراد السليمانية من أعمال الموصل، ومولده ووفاته في دمشق، تعلم في المدرسة الرشدية الاستعدادية، وتوفي والده وهو في الثانية عشرة من عمره، فابتدأ حياته الاستقلالية صغيراً، وأقبل على المطالعة والدروس الخاصة، ومن أشهر أساتذته الشيخ طاهر الجزائري، والشيخ محمد المبارك، والشيخ محمد سليم البخاري[١]، فأحسن التركية والفرنسية

(١) [انظر سيرهم في كتاب «علماء الشام كما عرفتهم» للعلامة محمد سعيد الباني وهو من منشورات دار القادري بدمشق].

وتـذَّوق الفـارسيـة ، وحفـظ أكثـر شعـر المتنبـي ومقـامـات الحريري ، وتولى تحرير جريدة «الشام» الأسبوعية الحكومية سنة «١٣١٥ ـ ١٣١٨» وكان يلتزم بها السجع في مقالاته ، ووالى الكتابة في مجلة «المقتطف» خمس سنوات ، ابتدأت بها شهرته ، وزار مصر سنة «١٣١٩ ـ ١٩٠١» فتولى تحرير جريدة «الرائد المصري» عشرة شهور.

وعاد إلى دمشق ، ورفعت إلى واليها التركي[١] وشايةٌ به ، ففتش بيتُه ، وظهرت براءته.

وهاجر إلى مصر، فأنشأ مجلة «المقتبس» سنة ١٣٢٤ـ١٩٠٦ وقام بتحرير جريدة «الظاهر» ، والتحرير في «المؤيد» اليوميتين.

وعاد بعد الدستور العثماني (١٩٠٨) إلى دمشق ، فتابع إصدار مجلة «المقتبس» وأضاف إليها باسمها جريدة يومية كانت قبل الحرب العامة الأولى مسرحاً لأقلام كبار الكتَّاب ، وناوأت دعاة الرجعية ، وحاربت جمعية الاتحاد والترقي ، التي كان يستتر وراءها حزب تركية الفتاة ، العامل على تتريك العناصر العثمانية ، واتهمه أحد ولاة الترك بالتعرُّض للعائلة السلطانية

(١) [ناظم باشا].

في إحدى مقالاته ، ففرَّ إلى مصر فأوربة ، وعاد مبرّأً ، وتكرر ذلك في تهمة أخرى ، فترك الجريدة اليومية إلى أخيه أحمد ، وانقطع للمجلة ، واشتد جزعه بعد إعلان الحرب العامة الأولى ، وابتداء حملة الانتقام التركية على أحرار العرب ، فأقفل الجريدة والمجلة ، وكاد يساق إلى سجن عاليه مع إخوانه من نَـقَدَةِ نظام الحكم العثماني ودعاة التحرر ، إلا أنه أنقذته خلاصة حديث وجدت في القنصلية الفرنسية بدمشق ، كتبها أحد موظفي الخارجية الفرنسية قبل الحرب ، وكان قد زار صاحبَ الترجمة في بيته ، وأراد استغلال نقمته على الاتحاديين ، ليصرفه إلى موالاة السياسة الفرنسية في الشرق ، فخيّب كرد علي ظنه ، ونصحه بتبديل سياستهم في الجزائر وتونس ، ومثلُها نشرة رسمية سرية كان قد بعث بها سفير فرنسة في الآستانة إلى قناصل دولته في الديار الشامية ، يحذِّرهم بها من كرد علي ، ويقول: إنه لا يسير إلا مع الأتراك ، وأوراق أخرى من هذا النوع ، أظهرها تفتيش القنصليات في أوائل الحرب ، فدعاه إليه أحمد جمال باشا القائد الطاغية مستبشراً ، وأعلمه بها ، وأنذره إن عاد إلى المعارضة ليقتلنَّه بيده بمسدسه ، وأمره بإعادة الجريدة ، ومنحه مساعدة مالية ، فأعادها ، ثم ولاه تحرير جريدة «الشرق» التي أصدرها الجيش ، وأمضى مدة الحرب

مصانعاً بلسانه وقلمه، وظل يخشى شبح أحمد جمال السفاح حتى بعد الحرب، وانقطع إلى المجمع العلمي العربي بعد إنشائه بدمشق سنة (١٩١٩) أيام الحكومة العربية الأولى ، فكان عمله فيه بعد ذلك من أبرز ما قام به في حياته.

وتولى وزارة المعارف عام (١٩٢٨) م في حكومة الشيخ تاج الدين الحسني.

وللأستاذ شفيق جبري شاعر الشام كتابٌ عنه، ألقاه محاضرات في معهد الدراسات العربية التابع للجامعة العربية.

من مؤلفاته:

١ ـ مجلة المقتبس (٨) مجلدات ـ وجزءان.

٢ ـ خطط الشام (٦) أجزاء وهو أشهر مؤلفاته.

٣ ـ تاريخ الحضارة جزءان.

٤ ـ غرائب الغرب جزءان.

٥ ـ أقوالنا وأفعالنا.

٦ ـ دمشق مدينة السحر والجمال.

٧ ـ غابر الأندلس وحاضرها.

٨ ـ أمراء البيان جزءان.

٩ ـ الإسلام والحضارة العربية جزءان وهو من أجل كتبه.

١٠ ـ القديم والحديث.

١١ ـ كنوز الأجداد.

١٢ ـ الإدارة الإسلامية في عز العرب، وقد ضمنه في كتابه «الإسلام والحضارة العربية».

١٣ ـ غوطة دمشق.

١٤ ـ المذكرات ٤ أجزاء.

وقفت حياته السياسة عند إعلان الحرب العالمية الأولى، أما حياته العلمية، فكانت سلسلة متصلة الحلقات من بدء نشوئه واتصاله بالشيخ طاهر الجزائري إلى يوم وفاته، وكان من أصفى الناس سريرة، وأطيبهم لمن أحب عشرة، وأحفظهم وداً[١].

* * *

(١) [الأعلام للزركلي].

أبو الهُدى الصيّادي

ألا مَنْ حدّثته نفسُه أن يعرفَ كيف يحظُّ الحظُّ بعضَ الخاملين ، فيرفعهم إلى مراتب النابهين في الحكومات الاستبدادية ، فليسمع ما قصَّه عليَّ والدي :

كنّا بضعةَ تجارٍ من الشاميين في إستانبول ، ننزل في خانٍ من خاناتها ، ولم تكن الفنادقُ يومئذٍ معروفةً ، وكنّا نتآلف ونشتركُ في النفقة والسمر .

وكان يزورنا درويشٌ شاب أسمرُ اللون ، جهوريُّ الصوتِ ، تبدو أمارات الذكاء عليه ، وله جدائل يرخيها على ظهره ، يعتمُّ بمئزرٍ ، ويكتسي عباءةً وقفطاناً ، ويضربُ بالدفِّ ، وينشِدُ أشعاراً على طريقة القوم[1] . وما كان يشاركنا في النفقة ، ومهمتُه أن يسلِّينا بأناشيدِه كلَّ ليلةٍ ، وهذا الفتى هو محمد بن حسن وادي المعروف بأبي الهُدَى الصّيادي الرفاعي ، وليدُ قريةِ خان شيخون من عمل حلب .

* * *

(١) [الصوفية] .

وجرّنا الحديث في إحدى العشايا إلى البحث عن أفضل من مشى على الأرض بعدَ رسولِ الله ﷺ ، وذهبتْ بنا الآراءُ كلَّ مذهب ، وأخذَ كلٌّ منّا يدلي بما يراه ، فصرَّحَ أبو الهدى برأي لم يَرْضَ عنه الجماعةُ ، وعدَّوه تهجماً على الصحابةِ الكرام ، قال: إنّ نقطةً واحدةً أُهريقت من دماءِ آلِ البيت أفضلُ مِنْ كلِّ مَنْ مشى على الأرضِ بعد الرسول ﷺ.

فقال له مناقشوه: فأين إذاً - يا جاهل - يبقى أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وكبار الصحابة والأئمة [رضي الله عنهم] ، وقام أحُـدُهم ولطمَ أبا الهدى على وجهه ، وحاول أن يزيدَه صفعاً ، فَحُلْتُ بينهما ، معتذِراً عن أبي الهدى بأنّهم لم يفهموا قصده ، وأولوا كلامَه تأويلاً ما كان يريده.

[أبـو الهـدى ونـاظـر الضبطيـة]

مضـت أيـامٌ انقطـعَ فيـه أبـو الهـدى عـنْ مجلـس أصحـابِ الخان ، وعرضتْ في غضون ذلك لبعض الشاميين مسألةٌ اقتضى أن يكَلِّمَ بشأنها ناظر الضبطية (الأمن العام) فاندبني إخواني للقيامِ بهذه الوساطة ، بدعوى أنّي أعرِفُ قليلاً من التركية ، وصورتي مقبولة ، وأنّي جسورٌ اعتدتُ مقابلةَ الكبراء ، فذهبتُ إلى النظارة ، واستأذنتُ على الناظر ، ولما فُتِحَتْ لي ستارةُ البهو ، كان أولُ ما وقع عليه نظري ذاك الصاحبُ الذي أنقذتُه

من الصفع يوم الخان ، شاهدته قاعداً في صدر المجلس ، والناظِرُ جالسٌ بين يديه جِلسةَ الصغير مع الكبير. وأدركتُ في الحال أنّ الشيخَ أبا الهدى أصبحَ ذا مظهر جديد ، حتى صارَ مثلُ ناظر الشِّحنة ـ على رفعة مقامه ـ يقعد منه مقعد المخبتِ المتماوتِ. ولم ألبث أن عدّلتُ على رأسي عمامتي ، ورددتُ طرف جبتي علىٰ قامتي ، وتقدمتُ بأدبٍ نحو أبي الهدى أسلِّمُ عليه أولاً ، وأظهِرُ أني أحاوِلُ تقبيلَ يده ، فلمّا شاهد أبو الهدى حركتي هذه انتصب قائماً ، وخفَّ للسلام عليَّ ، وعانقني بلهفةٍ عناقَ الأخ أخاه ، وأخذ يسألُني عن صحتي وأعمالي ، والتفت إلى الباشا الناظرِ يعرّفني إليه تعريفاً جميلاً ، ويثني عليَّ الثناءَ المستطاب ، قائلاً : هذا فلانٌ من أعيانِ دمشق وكبارِ تجّارِها ، وهو على جانبٍ عظيمٍ من الأدبِ والفصاحةِ. ثَم تكلمتُ في المسألة التي جئتُ من أجلها فانحلت في الحال.

[أبو الهدى يعالج امرأة ناظر الضبطية]

وبعد مغادرة النظارةِ علمتُ أنّ السببَ في تقدُّم أبي الهدى هذا التقدمَ السريعَ هو أنّ امرأةَ الناظر هذا أصيبت بمرضٍ أعجزَ الأطباء ، وكان يحبُّها حبًا جمًّا ، فتذرَّعَ بكلِّ ما في وسعه لشفائها ، ولما كادَ ييأسُ من عافيتها ، وصفوا له أبا الهدى الصيادي ، وما يكتبُ من حُجُبٍ وتمائمَ ، وما يقرأُ من أدعيةِ

وعزائمَ ، فاستدعاه ليطِبَّ حبيبتَه بما عنده من بضاعة المشايخ ، بعد أن عجز الطب الحديث عن بُرئِها. والغالبُ أنّ الشيخ لم يقطع ترتيبَ الطبيب ، وترك السيدةَ تتناول ما وُصِفَ لها من أدويةٍ وعقاقيرَ ، فبرأت بعد أيام. فعظم مقامُ الشيخ في عين سيدها ، وشاع بذلك ذكرُه في دار المُلك ، وكثر قصّادُه والمعتقدون به.

وجمهور الترك يحسنون ظنهم بمن يأتيهم من طريق الدين بما يلائم عقليتهم ، ويسارِعون إلى تصديق مَنْ يعتقدون فيه الخير.

[اتصال أبي الهدى بالسلطان عبد الحميد]

ولم تمضِ أيامٌ حتى أُصيبت إحدى حظايا السلطان عبد الحميد الثاني بعارضٍ يشبه عارضَ امرأةِ الناظر ، فعلم الوزيرُ بالأمر ، وعرض على مولاه ما كان من الشيخ أبي الهدى مع زوجه ، وقال فيه كلَّ خيرٍ حببَّه إلى السلطان ، فاستدعاه لمداواة حظيته بأدعيته ، فجاء يداويها بما داوى به امرأةَ الناظر ، فشُفِيَتْ الجاريةُ بعد أيام ، وأعقبَ ذلك اتصالُ أبي الهدى بالسطان عبد الحميد[1].

---

(١) [كان صلة أبي الهدى بالسلطان ورجاله أقدم من هذه القصة ، وإنما كان يتنكر ، ويتردد على الفنادق ، ويختلط بالغرباء وخاصة أبناء العرب ليستَطلعَ أخبار البلاد العربية ، وما تجول فيها من أفكار وحركات والله أعلم].

[أبـو الهـدى مستـشار للسلطـان]

أقبلت السعادةُ على الشيخ الصيادي فتقمّصها ، وسِيْقَ إليه العزُّ بعد الخمول ، فأصبحَ مستشارَ السلطان ، وأحدَ الرجال الممتازين في دولته ، يستأمِرُه في المسائلِ العظمى ، ولا تصبرُ نفسُه عن فراقه زمناً طويلاً .

وكان من أعماله مكافحةُ المذهب الوهابي ، لئلا يتسرَّبَ إلى العراق والشام ، لأنّ السلطانَ كان يخافُ على ملكه في ديار العرب من الوهابيين وصاحبهم[١] .

وقد يتعمَّدُ الشيخُ أحياناً إظهارَ الغضب على السلطان ، فينقطِعُ عن غشيانِ قصره مدةً ، فلا يَرى السلطانُ بدّاً من أن يسترضيه بالهبات العظيمة ، ليعودَ إلى ما كان عليه معه من التواصل، وأصبحَ صاحبَ الكلمة العليا حقاً بين أرباب الدولة ، والشفيعَ الصادِقَ الذي لا تُرَدُّ شفاعته، يشير على السلطان بِنَصْبِ من يرضى عنهم من الرجال ، وينصِّبُ حتى الصدور العظام والوزراء الفخام ، وبعمله هذا أصبحتْ الوزاراتُ أو بعضُها رهنَ إشارته في كل ما يطلب إليها .

---

(١) محمد بن عبد الوهاب التميمي (١١١٥ ـ ١٢٠٦ = ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢) ، انظر ترجمته في «الأعلام» للزركلي (٦ : ٢٥٧) .

[أبـو الـهدى يتـحيل بالذكـاء والدهـاء لبلوغ مقصـده]

وكان من سياسته أن يحمِلَ سلطانه على الاعتقاد أنّه صاحبُ النفوذ الأكبر في الولايات العربية ، رضاه رضا العرب ، وغضبه غضبهم ، وأن عرب السلطنة العثمانية في قبضته ، يحرّكهم ويسكّنهم كما يشاء .

واقتضته هـذه السياسـة أن يتخـذَ لهـا مـن الـذرائـع السـريـة والجهرية ما يلجأُ إليه بعضُ الماكرين من السياسيين الماهرين ، ويتحيَّلُ لبلوغِ مقصدهِ بكل ما أوتيه من ذكاء ودهاء .

ولقد رأى من متممات هذه السياسة أن يفتحَ بابه لكلِّ طالب ، فشخص إليه أربابُ المصالح من الأقطار العربية ، يتوسلون بجاهه للحصول على رغائبهم ، هذا يريدُ أن يتولّى القضاء أو الإفتاء ، وهذا يرغبُ في ترقيةِ درجتِهِ في دائرته ، وهذا ينشُدُ عملاً يعيشُ به في بلدته ، وهذا تتحلَّبُ شفتاه لإحراز رتبةٍ و تقلّدِ وسامٍ ، وهذا يكتفي بأن يثبتَ له نسبه ويصادِقَ عليه ، وهذا يطمعُ في الاستيلاء على وقفٍ عظيم ، وهذا ينازِعُه جارُه أو شريكه في أرض ، ويحاول هو استصفاءها كلها ، كلُّ هؤلاء ومن على شاكلِتهم يَفِدُون على السيد أبي الهدى ، فينشلُهم من الفقر ، ويسوِّدُهم على الدهر .

[مواظبته على الطريقة الرفاعية]

وعلى ما بلغ الشيخ من مقام سام ، ظلَّ محافظاً على ما كان عُرِفَ به أوَلَ أمرِه ، فلم تلهه مباهج الحياة ، ولا القربُ من خليفة الترك ، ولا ما كانَ يتمتَّعُ به من جاهٍ عريضٍ ، عن ممارسة طريقته ، والولوع بالإنشاد كما كان ينشد ليالي الخان مع مواطنيه الذين ما عرفوا قدره. فأقام إلى جانب قصرِه لهذا الغرض زاوية ، ينزلُ بنفسِه إلى حلقة الذكر فيها ، مرتين في الأسبوع ، وينشد وهو يضِربُ على الطار(١) ما طابَ له أن ينشد ، ويترنَّمُ بقصائد كان يؤْثِرُها ، ويقول إنّها من شعر شيخِه الروّاس ، زاعماً أنَّ هذا الشيخ كان بغداديَّ الأصل ، تعلَّم في أزهر مصر ، وأنّه وافاه في آخر عمره إلى قرية خان شيخون ، فأعطاه الطريقَ ، ودفع إليه شِعْرَهُ ، ولقْنه سرَّه.

وقد بنى الصياديُّ لشيخه زاويةً في مدينة السلام (٢)، وفاءً لحقه عليه ، وتكريماً لاسمه ، وتنويهاً بتقواه ، كما بنى مثلها في أماكن من ديار العرب ، رأى حاجتها ماسةً لنشر طريقته.

أما الشيخ الرّواس صاحب الشعر الذي كان مُحبباً إلى قلب أبي الهدى ، **فقد حدثني الثقةُ أنه شخصٌ موهومٌ**، وما عُرِفَ

---

(١) [الدف].

(٢) [بغداد].

رجلٌ اسمه الروّاس صاحبُ طريقةٍ وشاعرٌ مقبولُ الشعر ، [بل هو] سِرٌ من الأسرار لم ينكشف لأحد .

[علم أبي الهدى ومؤلفاته]

يقول بعضهم: إنّ أبا الهدى لم يكن على شيء كثيرٍ من العلم والأدب أولَ ظهوره ، فلمّا عظمتْ شخصيتُه جلبَ معلّمين لأولاده ، فكان بحجةِ أنّه يلاحِظُ دروسَهم يستمِعُ لما يلقيه الأساتذة ، وبذلك تعلّم ما قَوي به على وضع بعضِ كتبٍ في التصوف والأدب ، بلغت نحو أربعينَ رسالة وكتاباً[(١)] .

وقيل: إنّ بعضَ خواصِّه نحلَهُ بعضَها ، وإنه ما كان ينظم ولا ينثر ، والناظمون والناثرون بعضُ قاصديه وعُفاته[(٢)] . **على أنّ مَنْ زاروا الشيخ في أواخر أمره ، كان يستهويهم بجميل حديثه ، وسَعَةِ محفوظه ، ومكارمِ أخلاقِه ، وشِدَّةِ عطفه على العرب ، مِنْ دونِ سائرِ العناصر العثمانية**[(٣)] .

[محنة الشيخ]

وأُهينَ الشيخُ في الانقلاب العثماني (١٣٢٦ـ ١٩٠٩) إهانةً

---

(١) [تقدم ذكرها ص (٣٠)].

(٢) [طالبي عطائه ومن هؤلاء الشيخ توفيق الأيوبي انظر الحاشية ص (١٧٠)].

(٣) [وهذا ما شهد به الشيخ عبد الرزاق البيطار في ترجمته للشيخ ص (٤٧)] .

لا يليقُ صدورُها من أولياء الأمر يومئذٍ ، سلّطوا عليه الرعاع ، وهم يحملونه مريضاً إلى الحبس ، وهو شيخٌ معمَّرٌ ، [و] ما كان مع السلطان في مقام المتجسس ، بل في مقام الناصح المرشد ، دلّتْ على ذلك تقاريرُه التي عُثِرَ عليها في جملةِ ما ظفروا به من إضبارات السلطان المخلوع[1] .

وأكَّدَ العارفون أنَّه ما خاطبه مدةَ اتصاله به إلا بما فيه نفع للدولة ، حتى لقد قال كبيرُ حزبِ الاتحاد والترقي لجماعته[2] ، لما عرتهم الدهشة مما في هذه الأوراق : اكتموا الأمر ولا تنشروها ، وإذا فعلتم غيرهذا تعلو منزلةُ أبي الهدى في النفوس ، وربمّا عادَ القوم فقدَّسوه ، وتبركوا به ، فتزيدونَ ولياً آخر إلى أوليائكم .

هذا مجملُ ما يقال في أولية السيد أبي الهدى وخاتمته .

وهو لم يتوخَّ في معظم ما أتاه إلا رضاء السلطان ، لتدوم له نعمته ، وما كان في الواقع غيرَ رجلٍ وصل إلى ما وصل إليه بمواهبه وجربزته[3] .

---

(١) [ليت هذه التقارير تنشر ليعرف الناس حقيقة تلك الحقبة وما جرت فيها من أحداث!!] .

(٢) [هو طلعة باشا] .

(٣) [خداعه] .

وما كان لنغمة الإصلاح مكانٌ في نفسه ، ولا لتوسيدِ أعمال الدولة للكفاة شأنٌ عندَه ، بل كان هواه في تكثيرِ عدد أنصاره ، وإرضاءِ المرتزقةِ الذين دأبوا في كلِّ زمنٍ أن يعيشوا على عاتقِ الملَّةِ حلمةً طفيليةً تمتصُّ الدمَ وتعرق العظمَ.

والمصلحون أفرادٌ في كلِّ أُمةٍ ، وأبو الهدى ما ادّعَىٰ أنه منهم ، فهو قد نشأ على حُبِّ الطريقة ، والتغني بالجمال ، والغرام بالخلوات ، وبقي طول اتصاله بالسلطان لا همَّ له في الظاهر إلا بثُّ دعوته وإثباتُ نسبته ، سعى لما فطر عليه ، وأخذ من نفسِه ، ولا ينفِقُ الإنسان إلا مما عنده[1] .

* * *

(١) [المذكرات (١ : ٢٤٢ ـ ٢٤٦)] .



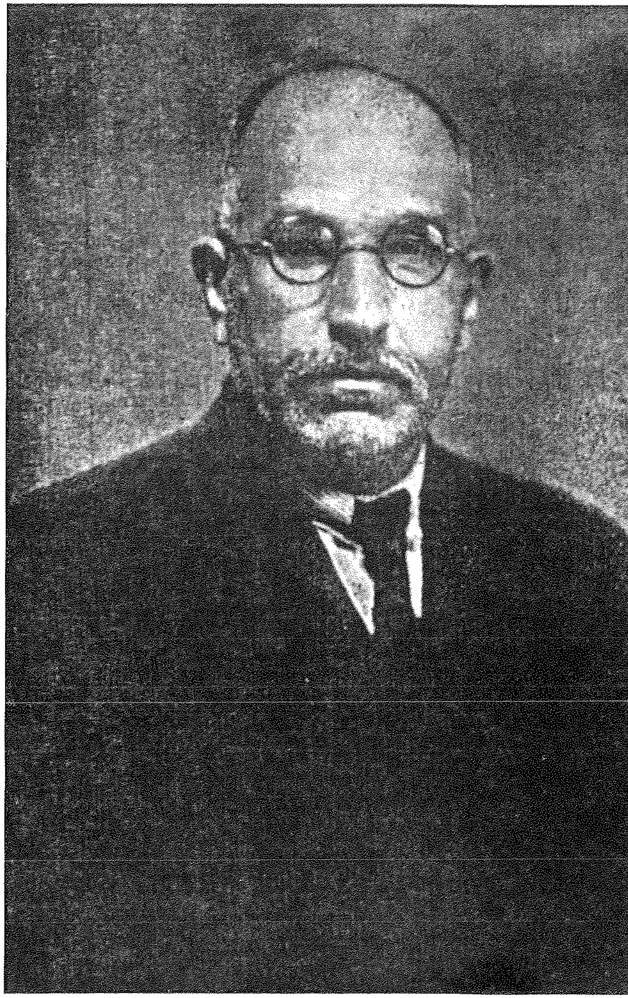
صورة كاريكاتورية لأبي الهدى نشرها الاتحاديون وتقف على كتفه البومة ووراءه دراويشه وشحاذيه

القسم السادس

أبو الهدى الصيادي

بقلم

محمد سليم الجندي



محمد سليم الجندي

ترجمة محمد سليم الجندي

بقلمه

(١٢٩٨ ـ ١٣٧٥ هـ = ١٨٨١ ـ ١٩٥٥)

هو محمد سليم بن تقي الدين بن محمد سليم الجندي مفتي معرة النعمان وحمص.

ولد في معرة النعمان عام (١٢٩٨ هـ) ليلة الثامن والعشرين من رمضان المبارك ، ونشأ في حِجْر والده ، حتىٰ بلغ السابعة من العمر ، ثم تعلَّم القرآن الكريم علىٰ شيوخ المعرة فأتمَّهُ عليهم.

ثم دخل المكتب الرشدي ، وهو مكتب الحكومة إذ ذاك ، وقد تسنّىٰ له اجتياز سني الدراسة الأربع في سنتين، وأخذ الشهادة.

ثم تفرَّغَ للدراسة في المسجد الكبير في المعرة ، فقرأ على **الشيخ صالح بن رمضان** ، ومن بعده علىٰ ابنه بعضَ دروس

«الآجرّومية» وكتاب «شرح الغاية»[1] للخطيب الشربيني في الفقه الشافعي ، وبعض دروس النحو.

وقرأ القرآن والتجويد علىٰ **الشيخ حسن بن أحمد المطر المعري** ، وهو أعلم أهل بلده في القراءة وقتئذٍ ، وقد استظهرَ أكثرَ القرآن الكريم ، وحفِظَ متن «العوامل» و«الإظهار» للبركوي ، و«الكافية» لابن الحاجب ، و«ألفية ابن مالك» في النحو ، ومتني «إيساغوجي» و«السلم» في المنطق ، ومتن «الرحبية» في الفرائض ، ومتني «الجوهرة» و«الأمالي» في التوحيد والعقائد ، ومتن «الزُّبد» في الفقه الشافعي.

وكان والده رحمه الله كلّما ظفر بقطعةٍ جيِّدةٍ من الشعر كتبها ، وحضّه علىٰ حفظها.

وقد أُولعَ بشعر أبي العلاء المعري منذ حداثة سنِّه ، وحفظ منه شيئاً كثيراً ، وكان في عهد الحداثة والشبابِ سريعَ الحفظ ، ما سمعَ بيتاً أو بيتين من الشعر الجيِّد إلا رسخَ في حافظته ، وقد تخرّجَ بالشعر والأدب واللغة بما درسه وحفظه من شعر أبي العلاء وغيره.

ثم ابتدأ بقرض الشعر في نحو الثالثة عشرة من عمره ، وظَلَّ

---

(١) [الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع].

ينسُجُ علىٰ هذا المنوال ، ويحتذي علىٰ هذا المثال ، إلىٰ أنْ كتب الله عليه مفارقة المعرة ، فهاجر مع والده إلىٰ دمشق عام (١٣١٩ هـ) ووضع فيها عصيّ الحاضر المتخيم ، وأقام فيها ، وقرأ علىٰ جماعةٍ من علمائها الأعلام ، وعاشر طائفة من فضلائها وأُدبائها وكُتَّابها وشعرائها وأعيانها وذوي الظَرْفِ منها .

وشرع في التفقُّهِ علىٰ مذهب الإمام أبي حنيفة علىٰ جهابذة العلم في دمشق ، منهم الأستاذ العلّامة الفقيه **الشيخ محمد شكري الأُسطواني** ، فقرأ عليه كتاب «مجمع الأنهر شرح ملتقىٰ الأبحر» ، و«شرح السراجية» في الفرائض ، و«شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك» .

وقرأ علىٰ **الشيخ عبد القادر بدران** كتاب «التلويح شرح التوضيح» في الأصول لسعد الدين التفتازاني ، و«شرح المختصر» في علوم المعاني والبيان والبديع ، وشرح شيخ الإسلام علىٰ «الخزرجية» في العروض والقوافي .

وقرأ علىٰ الأستاذ العلامة الشيخ عطا الكسم مفتي دمشق كتابَ «الدر المختار شرح تنوير الأبصار» مع أكثر الحاشية «رد المحتار» و«شرح المرآة» للأزميري في الأصول .

وحضر دروساً كثيرة في النحو والمنطق «كالفناري علىٰ إيساغوجي» و«شرح القطب علىٰ الشمسية» .

وقرأ على الأستاذ الفاضل **الشيخ حسين الشاش** وكان مكيناً في العلوم الآلية ، قرأ عليه «رسالة السمرقندي» في البيان ، و«إيساغوجي» في المنطق.

وقرأ أيضاً على الأستاذ العلامة المحقق شيخ المحدثين في عصره **الشيخ محمد بدر الدين الحسني** الجزائري الأصل الدمشقي المولد والوفاة ، حضر عليه قسماً كبيراً من كتاب «التحبير والتقرير» لابن أمير الحاج ، شرح «التحرير» لابن الهمام في الأصول ، وجميع «شرح جلال الدين المحلي على جمع الجوامع» للسبكي في الأصول ، و«كتاب المسامرة» لابن أبي شريف شرح «المسايرة» لابن الهمام في التوحيد ، و«شرح السنوسية الكبرىٰ» في التوحيد .

وقرأ شيئاً من «شرح المنار» على **الشيخ بهاء الدين الأفغاني**.

وكان بعض رفاقه في الطلب يشاركونه أولاً في مطالعة الدروس وإعدادها قبل قراءتها على الأستاذ ، ثم رغب فريقٌ منهم أن يعيدَ قراءتها عليه بعد الدرس ، فلبّىٰ طلبه ، كما كلّفه فريقٌ من الطلبة أن يقرِئهم دروساً في النحو والصرف والمنطق.

فكان يبتدىء في الدروس في داره منذ طلوع الشمس إلى الظهر ، ومن بعد صلاة العصر إلىٰ قرب منتصف الليل ، وظل

الأمر كذلك إلى أن عُيِّنَ في عهد الحكومة العربية منشئاً أول ثم مميَّزاً ، ثم جُعلَ أستاذاً للأدب العربي في مدرسة تجهيز الذكور في دمشق ، وبقي إلىٰ عام (١٩٤٠) فأحيلَ علىٰ التقاعد لبلوغه سِنَّ الستين.

وكان سبق له أن انتُخِبَ عضواً في المجمع العلمي العربي.

كما أنَّه خلال أيامه السابقة وُظِّفَ أُستاذاً للآداب في مدرسة اللاييك ، وفي مدرسة جمعية العلماء.

وعين أستاذاً للدروس العربية في كلية الآداب ، ودرّس فيها القواعدَ العربية والبلاغةَ والخطابةَ.

ثم عين ناظراً للكلية الشرعية في دمشق ، ثم مديراً لها.

سيره في الحياة كلها

كان في جميع هذه الأطوار التي قطعها في حياته شديدَ التواضع ، لين الجانبِ ، ينهجُ المنهجَ الذي سلكه معاوية[١] : لو كان بينه وبين الناس شعرة ما قطعها ، وكان شديدَ الخشية من اللهِ ، مواظباً علىٰ الفرائض والواجبات الدينية ، شديدَ الغَيْرَةِ على مصلحة الإسلام والعرب وكل وطن إسلامي.

---

(١) [معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه].

لم يقترف شيئاً من المنكرات في جميع حياته ، وكان يقنَعُ باليسير ، ويشكر على القليل والكثير ، ويرضى من الوفاء باللقاء ، ولم يبذل ماءَ وجهِهِ قطُّ لأحدٍ ، لأنَّه يقابِلُ الحسنةَ بمثلها ، إن عجزَ عن ضِعْفِها ، ويحتمل السيئة ، ويُغضي عن الهفوة ما وجدَ إلىٰ ذلك سبيلاً .

لا يعرف لأحدٍ عليه فضلاً إلا قابله بمثله ، لأنّ الله جل جلاله لم يحوجه إلىٰ غيره في شيء ، ما خلا أساتذتهُ الذين تقدَّمَ ذكرُهم ، فإنّهم علّموه ، وهذّبوه ، وأرشدوه لوجه الله ، من غيرِ أن ينالوا منه أجراً ولا جزاءً ، وقد احتذىٰ علىٰ مثالهم ، فعلَّم مئاتٍ من الناس ، لم ينلْ منهم أجراً قط .

وفي عام (١٩٤١) منحته الحكومةُ السوريةُ وسامَ الاستحقاق تقديراً للجهود التي بذلها طوال ثلاثين عاماً في تعليم اللغة العربية .

ما استطاع تأليفه وإنشاءه من النظم والنثر

ولع في فاتحة حياته ولعاً شديداً بالشعر نظماً وقرضاً ، ثم نظم بعض القصائد في موضوعات مختلفة ، فصادفت قبولاً من بعض الأدباء وغيرهم ، فأفضىٰ ذلك إلىٰ أن يكثر الناسُ طلب تواريخ منه لينقشوها على حجارة قبور موتاهم ،حتى ملّ من ذلك ، وسَئِمَ قولَ الشعر ، فأمسك عنه .

وحين قرأ العروض والقوافي نظم رسالةً فيهما ، فجاءت مطوَّلةً ، بلغت مئتين وخمسين بيتاً ، فاستكثرها ، ورأى اختصارها يحتاج إلى وقتٍ طويل لم يجده ، فمزَّقها وأحرَقها .

أما النثر ، فقد استطاع على كثرة أعماله ، وقله أعوانه ، وضيق أوقاته ، أن يضعَ بعضَ الكتب والرسائل ، وأنْ ينشىءَ بعضَ المقالات في مواضيعَ مختلفةٍ .

منها «المنهل الصافي في العَروض والقوافي» وقد جمع في هذا الكتاب من مسائل هذا العلم ما لم يجتمِعْ في غيرهِ ، ورتَّبَ مسائله ترتيباً مُحْكَماً ، حتى جعله كالسلسلة المتصلة الحلقات ، آخذٌ بعضُها برقابِ بعض ، وواضحة غاية الإيضاح ، وأكثرَ فيه من الشواهد ، ليتسنّى لكلِّ أحدٍ فهمُ مسائله بأسلوبٍ تهواه النفوسُ ، وتهوي إليه القلوبُ ، وقد تمَّ تأليفه وانتهى ، وأعدَّهُ للطبع .

ومنها كتاب في النحو سماه «**مرفد المعلم ومرشد المتعلم**» وهو كتاب جامع لأكثرِ ما تشتت من مسائل هذا العلم، وقد حرص فيه على جمع الأشباه والنظائر ، وإدخالِ كلِّ مسألةٍ في بابها ، ورتَّبه على أسلوب يسهُلُ معه الرجوع إلى ما يريدهُ الباحث من مسائله (ولم يتم بعد) .

ومنها «**رسالة في أحكام ما ومن**» وقد استوفى كلَّ ما يتعلَّقُ

بهما من الأقسام والأحكام، وهي من الدروس التي ألقاها في كلية الآداب.

ومنها «**رسالة في الكَرْم**» جمع فيها كل ما يتعلق بالكَرْم من حين يكونُ يغرس ، إلى أن يثمر وينضجَ ، ويُتَّخَذَ طعاماً أو شراباً ، وذكر ما لكلِّ جزء من أسماء في كلِّ طورٍ ، وما يعرِضُ له ، ورتَّبه على ترتيب الكرم الطبيعي ، ليسهلَ الرجوعُ إليه ، وقد يجد الباحثُ فيها ما لا يجده في غيرها ، وقد تمَّتْ وطُبِعَتْ في «مجلة المجمع العلمي» في دمشق.

ومنها «**عُدة الأديب**» وهي ثلاثة أجزاء صغيرة ، جمع فيها طائفة من كلام البلغاء والحكماء والعلماء والشعراء ، وشرحها شرحاً وافياً ، وقد شاركه في تأليفها الشيخ محمد الداوودي ، وطبعت عام (١٣٤٥ هـ).

ومنها «**عمدة الأديب**» وهي كُتُبٌ متعددة ، جمع في كلِّ واحدٍ منها ما يتعلَّقُ بكاتبٍ واحدٍ ، أو شاعرٍ واحدٍ ، من أخباره وأشعاره ، ودراسة أدبه ، وقد تم بعضها:

منها «**امرؤ القيس**».

و«**عبد الله بن المقفع**».

و«**النابغة الذبياني**».

و«**علي بن أبي طالب**» وقد طبعت جميعها.

ومنها شرح وتحقيق «**رسالة الملائكة**» لأبي العلاء المعري ، وتفسير الشواهد فيها ، وبيان قائليها وتراجمهم ، وقد طبعت في دمشق عام (١٣٦٣ هـ).

ومنها ترجمة «**أبي العلاء المعري وأخباره ودراسة أشعاره**» ولم يطبع[١]، وهو أجمعُ كتابٍ لأخبار أبي العلاء ودراسة أدبه ، وفيه تحقيق كثير مما كُتِبَ فيه أو نسبَ إليه ، وتصحيح لكثير مما وقع فيه العلماء من الخطأ والأخبار.

ومنها «**رسالة في الطرق**» وهذا الغرض لم يُر فيه لأحد من المتقدمين كتاباً ولا رسالة ، قد سأل كثيراً من أوعية العلم: هل رأى أحدٌ منهم شيئاً على هذا القبيل ، فقالوا: لا. وقد ذكر فيها أسماءَ الطرق ، وأقسامَها وأنواعَها في السهل والجبل والأودية والموارد وغيرها. وقد طبع معظمها في «مجلة المجمع العربي».

ومنها «**رسالة في الأودية ومسايل المياه**» جعلها ملحقةً برسالة الطرق تتميماً للفائدة.

ومنها «رسالة في المعلمين» وهي على وشك الإتمام ، وقد

---

(١) [طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق في ثلاثة أجزاء بعنوان «الجامع في أخبار أبي العلاء المعري»].

اشتملتْ على كثيرٍ من أخبارهم ونوادرهم ومزاياهم المحمودة والمذمومة ، وعلى منزلتهم عند الخلفاء والأمراء والأعيان والناس ، وربما كانتْ أجمعَ رسالة في هذا الموضوع .

وألفَ كُتباً أخرىٰ في مباحث لغوية وغيرها :

منها «**كتاب إصلاح الفاسد من لغة الجرائد**» وتم طبعه في عام (١٣٤٣ هـ) .

ومنها «**رسالة الأطعمة والأشربة في بلاد الشام**» وهي لم تطبع بعد .

ومنها «**رسالة العادات في بلاد الشام**» وهي لم تطبع بعد .

ومنها «**رسالة أمثال العامة في بلاد الشام**» وهي لم تطبع بعد .

وأما **المقالات** فقد نشرَ الكثيرَ منها في «مجلة المجمع العلمي» و«مجلة الهلال» المصرية ، و«مجلة العرفان» ، و«مجلة الرابطة الأدبية» وغيرها .

وقد وضع رسائلَ متعددة تشمل على دراسة جماعة من أعلامِ الأدباء والشعراء : كجرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وعمر بن أبي ربيعة ، وزهير ، والأعشىٰ ، والحُطيئة ، والخنساء ، وحسان ، وأبي تمام ، والبحتري ، وأبي نواس ،

وشرح كثيراً من قصائِدهم إلا أنّ اعتلالَ صحته حال بينه وبين إنجاز ذلك.

قلت: وقد توفي رحمه الله تعالى يوم الإثنين ٨ ربيع الأول سنة (١٣٧٥) الموافق ٢٤ تشرين الأول (١٩٥٥)، وشيعته دمشق بموكب حافل إلى مقره الأخير في مقبرة الدحداح حيث أَبَّـنه الأستاذ أحمد مظهر العظمة رحمه الله تعالىٰ.

* * *

أبو الهدى الصيادي

[ترجمته]

ولد في قرية خان شيخون[١] من قرى المعرة سنة (١٢٦٦) هـ، وقرأ القرآن على الشيخ محمود بن طه المعرّي، ثم تعلّم الكتابة، وحفظ شيئاً من المتون، واشتغل بتحصيل الفقه، والحديث، والتفسير، وكتب الأدب، وآلاتِها، وكتب الحكمة النظرية[٢]، وفنَّ القيافة[٣]، وفنوناً كثيرة يطولُ شرحها، ثم أكَبَّ على علم التصوف، وحفظ من كلام القوم[٤] ومنظومهم ما يربو على مئة ألف بيت، وأخذ الخلافة في الطريقة الرفاعية، بإجازةٍ من والده حسن من الشيخ علي خير الله في حلب.

---

(١) [قرية واقعة على الطريق الآخذة من المعرة إلى حماة، انظر «تاريخ المعرة» للمؤلف ص (٢/ ١٣٧)].

(٢) [الفلسفة].

(٣) [تتبع الأثر].

(٤) [المتصوفة].

ثم سلك هذه الطريقة على يد محمد بهاء الدين الرَّوَّاس ، حين اجتمع به في بغداد سنة (١٢٨٣) هـ ، وبعد رجوعه من العراق جُعل نقيباً للأشراف في جسر الشغر [١] ، وبعد قليل صار نقيباً للأشراف في حلب.

ثم في سنة (١٢٩٤) هـ ، قرّبه السلطان عبد الحميد العثماني ، وأنعم عليه برتبة قضاء العسكرين [٢] ، ولم يثن ذلك عزمَه عن التأليف والتصنيف ، فقد أَلَّفَ أكثرَ من ستين كتاباً ورسالة ، ونظمَ أربعةَ دواوين من الشعر ، وخلّف أناساً كثيرين في الطريق من أقصى المغرب إلى أقصى الهند ، وعمَّرَ مراقدَ كثيرةٍ لأجداده وزوايا ومساجد.

وقد أفرده جماعة من خلفائه بالترجمة ، ورُزِقَ من الأولاد الذكور: حسن خالد ، وأحمد سراج الدين.

هذه خلاصة ترجمته التي ذكرها بنفسه ، في كتابه «ذخيرة المعاد في ذكر السادة بني الصياد» الذي أتمَّ تأليفه سنة (١٣٠٦) هـ ، وطبع في مصر سنة (١٣٠٧) هـ.

---

(١) [وهي البلدة المسماة الآن جسر الشغور في محافظة إدلب].
(٢) [عسكر الأناضول وعسكر الروملي].

[ما ذكره المعمرون من أهل المعرة من أمره]

والمعمّرون من أهل المعرة وضاحيتها ، ينكرون نسبةَ هذا البيت إلى الصياد ، أو الرفاعي ، ويزعمون أنّهم لم يعلموا من أمرها شيئاً قبل أن تسمو مكانةُ أبي الهدى ، وأنّ أباه حسناً كان شيخاً أُميّاً فقيراً ، يطوفُ في المعرة وضواحيها ، فيقرأُ على قطعةٍ من السكر للوقايةِ من لَسْعِ العقربِ والحيَّة ، وكان يأخذُ عن كل واحدة درهماً أو نصف درهم ، وكان ينالُ من صدقات الأعراب وغيرهم ، وكان الناس يجودون عليه ، ويُرقي المرضى ، والصرعى ، وأولي العاهات ، وربّما صحب ابنه أبا الهدى في بعض رحلاته وهو صغير [1] .

فلما شبَّ عُني بتعلُّم ضَرْبِ المزهر ، فحذقه ، وكانَ حَسَنَ الصوتِ ، فجعل يختلف إلى منازل الأشراف والكبراء من أهل المعرة ، وحماة ، وحلب ، ويتعرَّفُ إليهم .

ثم زاد على ذلك ، فكان إذا رأى رجلاً اجتاز بقرية خان شَيْخون ، وعليه سيما الوجاهة ، أو أبهة الإمرة ، تلقّاه ورحّبَ به ، واستدعاه إلى منزله ، وأكرمَ وفادته .

---

(١) وقد أكد ذلك أيضاً مؤرخ حلب العلامة الشيخ محمد راغب الطباخ، انظر كلامه بتمامه ص (٢٨٥) من القسم الحادي عشر من طرائف وأخبار .

ثم ذهب إلى الجسر[1]، فأقام حيناً من الدهر ، ثم تذرّعَ حتى صار نقيباً للأشراف فيها ، ثم نقيباً للأشراف في حلب ، ثم اتصل بالسلطان عبد الحميد ، ونال منزلةً عاليةً عنده.

[فارس القطيني يقصّ أخبار أبي الهدى]

ولقد رأيت فارس بن أحمد القُطَيْني ، وهو ممن ولد ونشأ في خان شيخون ، ثم سكن المعرة ، وقد لقيته فيها سنة (١٣٥٧) هـ[2]، وكان عمُره زهاءَ ثمانين سنة ، فسألتُه عن حقيقة أمر أبي الهدى وقومِه ، فقصَّ عليّ خبره ، ثم تفرَّسَ فيَّ إنكارَ بعضِ ما يقوله ، فقال لي : كأنَّك تشكُّ فيما أقول! أو تظنُّ أنّي أتحاملُ على الرجل! اعلم يا أخي! أنني أعلم أنني بين الحياة والموت ، وأنا إلى الموت أقرب ، ومعاذ الله أن أختِمَ حياتي بحديثٍ مفترىً على رجلٍ قد مات. فوثقت بقوله ، وكان خلاصةُ ما قاله لي :

إنّ علي بن خزام ، وأخاه حسيناً ، كانا من عرب الدبس ، من ألحاق بني خالد ، وكانا يرعيان غنماً في خان شَيْخون.

وأنّ حسن بن علي ، سُمِّي وادياً ، لأنَّه وُلِدَ في وادٍ يقال

---

(١) [جسر الشغور].

(٢) [(١٩٣٥)م].

له: وادي الخنازير ، بين التمانعة والخان ، وكان راعياً أيضاً في خان شيخون.

وأنّ حسناً هذا تزوّجَ امرأة ، يقال لها: صُلَيْح ، كانتْ زوجةً لرجلٍ يقال له: عليوي المَجُّو ، من عرب السماطية ، من ألحاق الموالي ، وكان عليوي راعياً ، فولدتْ منه ابنةً سمّاها خَلُّوْدَة ، ثم ولدت أبا الهدى ، فقرأ القرآنَ على الشيخ محمود بن طه المعري ، ثم لما شب وترعرع ، ربأَ بأبيه عن الترعية ، فأخذَ له طريقاً عن الشيخ رجب ، من قرية كفر سجنى ، فصار درويشاً على أميته ، وكان يقرأُ على قطع السكر للعقرب والحيَّة ، كلُّ واحدةٍ بقرش ، وكان هو وأبوه يطوفان على مضارب العربان ، يأخذان صدقاتهم.

ثم طمحت نفس أبي الهدى للظهور ، فأخذ يعدُّ جمعيةً للإفساد في داره ، وكان أحمد القُطيني ـ والِدُ المحدِّثِ بهذا الحديث ـ رئيساً للبلدية في حماة في ذلك العهد ، فكتب إلى ولده الثاني عبد الرحمن أنْ يهدمَ دارَ أبي الهدى ، وهي قبةٌ من لِبْنٍ ، ويطرده من القرية ، ففعل.

وذهب هو ووالدُه إلى جسر الشغر ، لأنّه كان قد تزوج امرأةً يقال لها: حليمة بنت محمد قنبر ، من قرية كفردبّين ، من قرى

الجسر ، فجمع هناك شيئاً من الأغنام ، يعيش من ألبانها وأصوافها.

ثم ذهب إلى حلب ، واتصل بمفتيها الشيخ بهاء الدين [1] ، وسأله أن يسعى له ليكون نقيباً للأشراف في الجسر ، ولم تكن هذه الوظيفة في ذلك العصر ، لأنّ أهلها كانوا نصيرية ، فسعى له ، ووافقت الحكومة على ذلك لمصلحةٍ سياسية.

ثم بعد أن وَلِيَ النقابةَ ، ذهب إلى بغداد بعد أن أخذ نسباً من الشيخ محمد البغدادي ، وادّعى أنّه من ذويه.

ثم ذهب إلى الآستانة ، وبواسطة عبد المجيد الخرضَجي ، اتصل بآصف باشا ، ومدحه بأبياتٍ ذكر منها قوله:

. . . . مقِـــرٌّ بـــالهُـــدَى مُتْحِـــفْ
فبـــالإحْسَـــانِ والحُسْنَـــىٰ جـــزَاكَ اللهُ يـــا آصِـــفْ

ثم بسببه وليَّ نقيباً للأشراف في حلب ، فجاء إليها ، ولم يطل مكثُه فيها ، وإنما عاد إلى الآستانة ، ثم بسبب الخرضجي

(١) [هو الشيخ محمد بهاء الدين ابن الشيخ محمد أبي الوفا الرفاعي ، كان محبّاً للناس ، حسن الأخلاق ، جميل الصورة ، بشوشاً عذب اللسان ، نبيهاً شاعراً ، حسن الخط ، مهاباً توفي سنة (١٢٩٠) هـ ، انظر «إعلام النبلاء» (٧ : ٣٣١)].

اتصل ببهرام آغا مربّي السلطان عبد الحميد، وبسببه اتصل بالسلطان.

وذكر لي أنَّ أباه حسناً، تزوَّجَ امرأةً يقال لها: شموس بنت بكور الحموري، من قرية معرزيتا، وكان ساكناً في خان شيخون ناطوراً للكروم فيها، وذلك في حياة صليح أم أبي الهدى، فولدت له ولدين: عبد الرزاق، ونور الدين، ثم تزوَّجَ خَلُّودة بنت إبراهيم المعراتي، من أهل الخان، وكان حائكاً، فولدت منه مصطفى، وهذا منحته الدولة رتبة بالا، وهي أعظمُ رتبةٍ بعد الوزارة.

هذه خلاصة ما قاله هذا الرجل الذي ولد وعاش أكثرَ عمره في خان شيخون، وقضىٰ بقيته في المعرة، وحدثني عن وجود أبي الهدى في دمشق، فضربت[1] صفحاً عنه.

[محمد كرد علي يترجم لأبي الهدى]

ورأيت في «مذكرات» محمد كرد علي (١: ٢٤٢) ما خلاصته: أنّ أباه[2] كان مع تجار شاميين يقيمون في خان في إستانبول،

---

(١) [في الأصل (فضربَ)].

(٢) [عبد الرزاق كرد علي، وقد مرت ترجمة أبي الهدى الصيادي لمحمد كرد علي، بتمامها ص (١٣١ ـ ١٣٤) في هذا الكتاب].

وكانوا مؤتلفين ، يشتركون في النفقة والسمر ، وكان يغشاهم درويشٌ شابٌّ أسمرُ اللون ، جهوري الصوت ، تبدو أمارات الذكاء عليه ، وله جدائل ـ أي ضفائر ـ شعر يرخيها على ظهره ، ويعتمُّ بمئزرٍ ، ويكتسي عباءةً وقفطاناً ، ويضرِبُ بالدُّفِّ ، وينشد أشعاراً على طريقة القوم ، وما كان يشاركهم في النفقة ، وإنما كانت مهمته أن يسليهم بأناشيده كلَّ ليلةٍ ، وهذا الفتى هو محمد بن حسن وادي المعروف بأبي الهدى الصيادي الرفاعي ، وليدُ قريةِ خان شيخون من عمل حلب.

وفي بعض الليالي ، بحث هؤلاء الجماعة فيمن هو أفضل من مشى على الأرض بعد رسول الله ﷺ ، وأخذَ كلٌّ واحدٍ يصرِّحُ بما يراه ، فقال أبو الهدى: إنّ نقطةً واحدةً أهريقت من دماء آل البيت أفضلُ مِنْ كل مَنْ مشى على الأرض بعد الرسول ﷺ.

فقال له بعضهم: فأين إذاً ـ يا جاهل ـ أبو بكر ، وعمر وعثمان ، وعلي وكبار الصحابة ، والأئمة [رضي الله عنهم] ، ولطمه أحدهم على وجهه ، وحاول أن يزيده صفعاً ، فِحيْلَ بينهما ، فانقطع عن مجلسهم حيناً من الزَّمن.

وعرضتْ لبعض الشاميين قضيةٌ اقتضت أن يكلِّم بشأنهاناظرَ

الضبطية ، فانتدب الجماعةُ هذا المحدث بهذا الحديث ، فذهب إلى الناظر ، واستأذن ، فلما رفعتْ له ستارةُ البهو ، رأى أبا الهدى قاعداً في صدر المجلس ،والناظِرُ جالسٌ بين يديه جِلسةَ الصغير مع الكبير ، قال: فتقدمتُ بأدبٍ نحو أبي الهدى ، أسلِّم عليه أولاً ، وأظهرتُ أنّي أحاوِلُ تقبيلَ يده ، فانتصبَ قائماً ، وعانقني بلهفة ، وسألني عن صحتي وأعمالي ، والتفت إلى الباشا ناظرِ الضبطية ، فقال له: إنّي من أعيانِ دمشق وتجارِها ، وإنّي أديبٌ فصيحٌ ، وأثنى علي ثناءً عظيماً ، ثم تكلّمتُ في المسألة التي جئت من أجلها ، فقُضِيَتْ في الحال.

[سبب تقدم أبي الهدى إلى المكانة التي نالها]

قال: وقد علمتُ أنّ السبب في تقدُّم أبي الهدى هذا التقدُّمَ السريع ، هو أنّ امرأة ناظر الضبطية هذا أصيبت بمرضٍ أعيا الأطباء ، وكان يحبُّها حبًا جمًّا ، فتوسَّلَ بكل ما يستطيعُهُ لمداواتها وإشفائها عن يد الأطباء. فلم يفلِحْ ، ثم وُصِفَ له أبو الهدى ، وما يطبِّبُ به من تمائم وحجب وعُوَذٍ ، وما يقرأ من أدعية وعزائم ورُقى ، فاستدعاه ليطبِّب زوجته بما عنده ،

فداواها ، فبرئت بعد أيامٍ ، فعظُمَ مقامُه عند الناظر ، وشاع ذكرُه في دار المُلك وغيرها.

ثم بعد أيامٍ أُصيبت إحدى حظيات السلطان عبد الحميد الثاني ، بعارِضٍ يشبه ما أصاب امرأة الناظر ، فعرض الوزيرُ على الملك ما كان من أبي الهدى في مداواة زوجه ، وحبَّبه إليه ، فاستدعاه السلطان لمداواة حظيته ، فبرئت بعد أيام ، فكانَ ذلك فاتحةَ عهدٍ لاتصال أبي الهدى بالسلطان.

وقد كان أحد خلصائه الذين يأمنهم على سره ، ويفضي إليهم بشعوره ، وكان مستشاراً له في المعضلات والأمورِ الجسام ، وكان لا يفارقه زمناً طويلاً ، وكان نافذَ الكلمة عند عبد الحميد ، فيشيرُ عليه بنصب زيد وعزل عمرو فيفعل ، حتى الوزراء والصدور.

[السلطان يستعين بالصيادي لمحاربة الوهابيين]

وقد كان السلطان يخشى على سلطانه في البلاد العربية من الوهّابيين ، ويحذر أن يتغلَّبَ عليه صاحبُ هذه الدعوة ، فاتخذ ـ أي السلطان ـ من أبي الهدى صارِفاً يصِرفُ النّاسَ عن النظر إلى هذا المذهب ، وشاغلاً يشغلهم عنه ، ففتحَ بابَه لكلِّ طالبٍ ،

وأصاخَ بسمعه إلى كلِّ قاصدٍ ، فكان الناس يؤمّونه من كل حدب وصوبٍ لقضاء حاجاتهم ، وجر مغانمهم ، ودفع مغارمهم .

وكان أبو الهدى يبذُل مالَه ، وقلّما رجعَ أحدٌ من قاصديه بالخيبة ، وكان السلطان يساعدُه على تحقيق رغائبه .

[شمائلـه وأعمالــه]

ومن دهاء أبي الهدى أنّه بلغ ما بلغ من المنزلة عند السلطان ، وكبراء الدولة ، وأصاب من الأموال ما أصاب .

ولكنّ ذلك كلَّه لم يؤثِّر في خُلُقِهِ ، ولا غيَّرَ شيئاً من خِطَّتِهِ ، وإنما اتخذ في جنبِ داره التي كان يقابِلُ بها الوزراءَ والكبراء زاويةً ، كان يجتمع فيها جماعةٌ من أهل الطريق ، يقيمون الذكر فيها في كل أسبوع مرتين ، وكان هو ينزل إلى الزاوية ، فيشارِكُ الذاكرين ، ويضرِبُ بالمزهر ، وينشِدُ ، كما كان يفعل ذلك قبلَ أن ينالَ هذه الحظوة .

ويقول قوم جالسوا الشيخ : **إنّه كان يستهوي جليسَه بلطفِ حديثه ، وسَعةِ أدبه ، ودماثةِ خلقه** [1] ، **وإنّه كان شديدَ العطف على العرب .**

---

(١) انظر ص (٢٦٩) من هذا الكتاب .

ويقال: إنه كان يحفظ كثيراً من الشعر ، ويَنْسُبُ كثيراً من الشعر إلى شيخه الروّاس ، ويقول: إنّ هذا الشيخ بغدادي الأصل ، درس في الأزهر ، وزار أبا الهدى في خان شيخون ، فأعطاه الطريقَ ، ودفع إليه شِعْرَه ، ولقّنه سِرَّهُ.

وإنّ أبا الهدى بنى بعد ذلك على قبر الروّاس زاويةً في بغداد تكريماً له ، كما بنى أمثالها في بلاد الشام على قبورِ جماعةٍ من الرفاعيين.

أما الشيخ الروّاس ، فيقال: إنّه اجتاز بالمعرة ، وصلّى العصرَ في مسجدها الجامع إلى جانب رجلٍ استشعر قلبُه أنّه من أهلِ الصلاح ، وبعدَ الصّلاة اجتمع به ، وأخذَ عنه الطريقَ ، وهذا الرجل من أبناء عمنا في المعرة يقال له: الشيخ أحمد الجندي ، وقد ذكره أبو الهدى في شيوخه ، وهذه القصةُ رأيتُها في كتابٍ للرفاعية منذ خمسين عاماً قريبةً مما ذكرتُ ، وقد يجوزُ أن تكونَ فيها زيادة أو نقص.

وأكثرُ الناس يزعمون أنّ الروّاس شخصٌ موهومٌ ، لا حقيقةَ له ، اخترعه أبو الهدى وأضاف إليه أقوالاً وأعمالاً.

وقد كنتُ ممن يقول بهذا القول ، وبدأتُ في قصيدةٍ فقلتُ في مطلعها:

أَرى الـرَّواسَ كـالعنْقـاءِ حـالا   فَكَـذِّبْ مَنْ أَضـافَ لهُ مَقالا

ثم بدالي فأمسكتُ عن هذا القول ، لجوازِ أن يكونَ رجلاً حقيقياً.

[بـراءة أبـي الـهـدى الـصيـادي]

وقد رأيتُ لبعض الكتّاب في سيرة أبي الهدى: أنّ حياته مع السلطان عبد الحميد الثاني كانت حياةَ مرشِدٍ ناصحٍ ، ولم تكنْ صلتُه بـه صـلةَ متجسِّسٍ ، يَحْرِقُ غيـرَه ليستَضـيءَ بنورِه ، أو يستدفِيءَ بنارِه.

وقد دلّتْ على هذا تقاريرُه التي عُثِرَ عليها في جملةِ ما عُثِرَ عليه من إضباراتِ السلطان بعدَ خلعِه[١].

وأكّد العارفون أنّه ما خاطبه في اتصاله به إلا فيما يعودُ بالنفع على الدولة.

(١) [وحبذا لو نشرت هذه التقارير وعرّبت لألقت مزيداً من الأضواء على حقيقة السيد أبي الهدى الصيادي].

ويقال: إنّ كبيرَ الاتحاديين[1] ـ أي حزب الاتحاد والترقي ـ لما اطلع هو وجماعتُه على أوراق أبي الهدى، أخذتهم دهشة مما فيها من الإخلاص والنصح، فقال لجماعته: اكتموا الأمر، ولا تنشروها، فإنكم إذا فعلتم غير هذا أعليتم منزلةَ أبي الهدى في نفوس الناس، وربما دعا القوم فقدسوه وتبركوا به.

ومن يستقرىء أحوال أبي الهدى يتبيَّنْ له أنّ الرجل ما كان يقترب من سياسة السلطان وحكومته، ولا يدخل فيما لا يعنيه، وكان أكبرُ همه أن يَكْثُرَ حولَه الأنصارَ والأشياع والمريدون والخلفاء، وأن يفيد كلَّ واحد منهم بما استطاع من مالٍ أو وسامٍ، أو إعفاءٍ من العسكرية، أو تعميرِ مدفنٍ أو تكية، أو ما شاكل ذلك، وأقصى أمانيه نشرُ دعوته، وتغلُّبُ الطريقة الرفاعية وأصحابِها على غيرِهم من أصحابِ الطرق[2].

وكان ابن وقته، لا يحسب حساباً لغده، ولذلك لمّا

---

(١) [طلعة باشا].
(٢) [من ذلك أنه ألف كتاب «مختصر أخبار الخلفا» ونسبه إلى ابن الساعي، وطعن فيه بصحة نسبة الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى آل البيت انظر الحاشية ص (١٧٣)].

مات ، لم يخرج في تركته شيءٌ يُعْتَدُّ به بالنسبة للمكانة التي كان أحرزها في الدولة .

ويزعمُ فريقٌ من الناس أن زوجاته وأهلهنّ جمعوا ما كان في داره من ذخائر وأعلاق كريمة ، وأخرجوها من بيته قبلَ موته بأيام ، وأودعوها عند معارفهم ، فلما أخذه الاتحاديون ، وفعلوا به ما فعلوا ، لم يكن في داره شيءٌ يعتد به من النفائس والأشياء التي لها شأنٌ .

[منزلة أبي الهدى في العلم]

وأما منزلةُ أبي الهدى في العلم ، فإنّ له رسائلَ نسبت إليه [(١)] ، وهي تدلُّ على أنه شدا شيئاً من العربية والفقه والتصوف ، **وليس فيما رأيتُهُ من رسائله ما يدلُّ على تبحره في علم ديني أو لدنِّيٍّ .**

---

(١) [قال الدكتور نزار أباظة في كتابه «جمال الدين القاسمي» (١٨٥): وينتسب الشيخ توفيق الأيوبي لأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، قرأ على عدد من شيوخ دمشق، وجمع إلى ذلك الدراسة في مدارس الحكومة ومعهد الحقوق، وكان له شأن مع أبي الهدى الصيادي، وأعان الأخير فيما يُعزى إليه من كتب، وقد كان أديباً فصيح اللسان ، حسن الالقاء].

وأما شعره ، فقد اطلعت على ديوانٍ له ، وهو يشبه شعر العلماء والمتصوِّفة ، وكنتُ رأيتُ بخطِّ يدِهِ قصيدةً من نظمه ، مدحَ بها عَمَّ والدي أمين الجندي مفتي المعرة والشام، مطلعُها:

وَرْدُ المحبةِ راحَ يَحْمِلُ ياسَمِيْن
وجبينُها بقصيدتي كُسِيَ اللُّجَيْنْ

وَتَنَشَّرَ الطَّيُّ الخفيُّ مِنَ الجَوَىٰ
بِنُشُوْرِ مَدْحِي ذات صَدْرِ الكامِلينْ

مصباحُ صُبْحٍ سما للسِّيادةِ شَمْسُها
عينُ العيونِ وَمَصدرُ المتصدِّرِينْ

فلم أشأ أن أذكرها هنا لئلا يقال: إني تعمدت إيرادَها لأدل به على أنّ الرجل بعيدٌ عن معرفةِ الشعر ، ولأنّه يستعينُ بها على غربته ، **ولعلَّ شِعَره استقامَ بعد ذلك لكثرةِ الممارسة ، والحظُّ يُنْطِقُ الأبكمَ ، ويُسْمِعَ الأصمَّ.** على أنّي ذكرتُ بعضاً من هذه القصيدة في ترجمة أمين الجندي[1].

---

(١) [«تاريخ معرة النعمان» (١ :٤٨)].

[أبـو الهـدى والطـريـقـة الـرفـاعيــة]

وصفوةُ القول: إنّ أبا الهدى كان أريباً محنكاً، وباقعةً[1] بعيدَ النظر في الأمور، طمّاحاً إلى أن يُبقي ذكراً خالداً، وحديثاً حسناً بعده، فسلك الطريقة الرِّفاعية، وفتح أبوابه لرجالها، وللمنتسبين إلى الرّفاعي، فتهافت الناس عليه تهافت الذباب على الشراب، وانتحلَ هذه النسبةَ كثيرٌ من الأدعياء، لأنّه كان يسعىٰ لدى الحكومة لكلٍّ من قصد إليه، فإما أن يجعلَ له راتباً، وإما أن يسعى له برتبة أو وسام أو وظيفة، وإما أن يقضيَ له حاجةً يممه[2] من أجلها، فكان الناس يتوافدون إلى منزله زرافاتٍ ووحداناً من عرب وغيرهم، وقلّما انقلبَ إنسانٌ عنه من غير أن يظفرَ ببغيته، وربما أعطَى أناساً من ماله، وإذا رأى شاعراً، أو كاتباً، أو عالماً، بالغ في الحفاوة به، وإنجاز حاجته، فجعل الشعراء يتسابقون في مدحه، ويغالون في سرد مناقبه، والكُتَّاب يضعون المقالات في الصحف، أو يؤلفون رسائل في فضائله، وفضائل أهلِ بيته، وربما وضع

(١) [الداهية].

(٢) قصده.

العلماء رسائل فنسبوها إليه[1]، ولقد استطاع بهذا الأسلوب المحبوب أن يملكَ القلوبَ والألسنَ والأقلامَ ، وأن يُفهِمَ الناس عامةً أنه صاحب الكلمة النافذة في الدولة ، وأراد أن يفهِمَ السلطان ورجال الدولة أنّ له مكانةً في البلاد العربية ، ولاسيّما حلب ، وحماة ، والمعرة ، وأنّه قابضٌ على ناصيةِ الكُبراءِ والأشرافِ فيها ، فاتخذ صنائع من طبقات مختلفة من أبنائها ، وتزوّج طائفةً من بنات الأعيان فيها ، مثل بنت نورس باشا الحراكي في المعرة ، وبنت عبد الحميد بك العظم من

(١) [ممن كان يفعل ذلك الشيخ توفيق الأيوبي انظر الحاشية السابقة ص (١٦٢).
ولم يكتف أبو الهدى بذلك بل كان يستكتب الكتب ، وينسبها إلى مؤلفين مشهورين ، من ذلك ماكتبه الشيخ محمد راغب الطباخ إلى صاحب «معجم المطبوعات العربية» (٢:٣ من المستدرك) قال: إن كتاب «غاية الاختصار في أخبار البيوتات العلوية» ليس لتاج الدين بن محمد بن حمزة بن زهرة الحسيني نقيب [أشراف] حلب ، بل هو من وضع الشيخ محمد أبي الهدى الصيادي ، وقد نسبه إلى تاج الدين المذكور ، وسبب وضعه له ماكان من المنافرة بينه وبين السيد سليمان الكيلاني نقيب الأشراف في بغداد ، وقد أثبت في هذا الكتاب نسبة الشيخ أحمد الرفاعي إلى البيوتات العلوية ، وطعن في الكتاب الثاني المطبوع مع هذا الكتاب وهو «مختصر أخبار الخلفا» لابن الساعي بنسب الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وأن أكابره أصلهم من الفرس : وأتى بأسباب أخرى تؤكّد أن هذين الكتابين موضوعان أو ملفقان اهـ].

حماة، وبنت مرتضى أفندي الكيلاني[1]، وبنت بدرخان، وبنت أشرف بك بن ويسي باشا، وفي هؤلاء البنات من لم تكن هي وأهلها راضين عن هذا الزواج، ولكنَّ حرصهم على المنفعة، وخوفهم من فواتها ومن شرِّ أبي الهدى، حملهم على أن يقدِّموا بناتهم طائعين، مع ما استطاعوا من مال ورياش.

فعظم في عيون رجال الدولة والناس معاً، وخشيَ بأسَه الصغيرُ والكبيرُ، واستطاع أن يبنيَ من مال الدولة كثيراً من التكايا والزوايا والأضرحة في حماة والمعرة وغيرهما، وأن يخصِّصَ مرتبات لموظفين فيها، ما بين قيم ومؤذنٍ وإمامٍ وغير ذلك، كلُّ هذا من مال الدولة.

وخلاصة القول: إننا إذا ارتبنا في صحة نسبه، فلا يمكنُنا أن نرتابَ في ذكائه، وأدبه، ودهائه، وجُوْدِه، وإخلاصه لمليكه، فقد استطاع أن يهيمنَ على السطان وأعيانِ دولته، فكانوا جميعاً يأتمرون بأمره، وينفذون رأيه.

وقد بلغني أنّ الصدر الأعظم خليل رفعة باشا، كان يزورُ أبا الهدى في كلِّ يوم في عهد صدارته في منزله، فإذا دخل قبَّلَ يده، وطلب دعاءه، فيعطيه الشيخ ورقة فيها مطالب مختلفة،

(١) [واسمها «نسيبة خانم» وهي مشهورة في حماة].

إما استثناءُ رجلٍ وأسرته من الخدمة العسكرية ، وإما توليةُ رجلٍ منصباً كبيراً أو صغيراً ، وأما إعطاءُ رجلٍ راتباً أو رتبةً ، أو نحو ذلك ، فيقبّلها ، ويقول: سمعاً وطاعة ، ثم ينصرف إلى مقره ، فيأمرُ الوزراءَ بإنفاذها ، كلٌّ بما يتعلق به.

ولم يدعْ أحداً من ذوي قرباه أو خلصانه أو المتزلفين إليه إلا سعى له بواحدةٍ ، أو أكثر مما ذكر.

ولذلك كاد أكثرُ الناس يكونون رفاعيين في ظاهرهم وألسنتهم، وكانوا يقيمون الأذكار ، وينشدون فيها الأشعار ، التي قيلت في مدحه ومدح أبيه وأجداده، مثل قولهم في مدح أبيه:

الحَسَـــــنُ الصَّيَّـــادِي ... نَسْـلُ الـرَّسُـولِ الهَـادِي
سُـلالَـةِ الـرِّفـاعِـي ... وكَـوْكَـبِ الأمجَـادِ

وكانت مجامع الأذكار ، يُثنى فيها عليه وعلى آبائه أكثر مما يذكر الله فيها ، لأنّ له في كلِّ بلدٍ أرصاداً وعيوناً ودعاةً ، خلفاء وخلصاناً.

وقد اشتطّ أقرباؤه وأصفياؤه على الناس ، وتجاوزوا على حقوقهم ، واشتدّ أذاهم عليهم ، فنقم الناسُ عليه وعليهم ، وحسده الأتراكُ على ماله من الحظوة ونفوذِ الكلمة عند السلطان ، وأضغنَ عليه مَنْ لم يلبِّ طلبه ، أو نُكِبَ بسببه.

[محنته ووفاته]

فلمّا كانت سنة (١٣٢٦) هـ ، سنة (١٩٠٩)م ، ثارت جمعية الاتحاد والترقي ، وتغلّبت على السلطان عبد الحميد ، وانتزعوا السلطة من يده ، وقبضوا على أتباعه وأصفيائه ، ومزقوهم كلّ ممزَّق ، وكان ممن أصابه رشاشٌ من أذاهم أبو الهدى ، فقد نهبوا داره ، وشتتوا أنصاره ، وأوسعوه إهانةً وسباً ، وأذاقوه من النكال والبؤس في ساعة واحدة أضعاف ما أصابه من السعادة والترف في جميع أيامه الغابرة ، وقد مات من شدة الضرب ، ودُفِنَ في التكية ، التي ابتناها في بشكطاش في الآستانة ، وانطوى معه ذلك الحسب ، الذي كان هو أساسه ، وانطفأ النسب الذي كان هو نبراسه ، وكان الهبوطُ بقدر الصعود ، فسبحان من لا يزول ولا يحول.

وقد أخذ أهل أزواجه أمواله منذ قبض عليه ، قبل أن يموت ، ولم يدافعْ عنه أحدٌ من أعوانه ، ولم يبكه أحد من خلصانه ، بل كان كثيرٌ منهم في عداد الشامتين ، وقد كثر الشامتون بموته لحسدهم وحقدهم على ذوي قرباه وعليه من أجلهم ، لأنّه كان ينصرهم ولو كانوا ظالمين.

وأنا أذكرُ حادثةً مؤلمةً ، وهي أن أحد أقربائه ، قتل رجلاً

عمداً ، على مشهدٍ من أهل القرية ، فلمّا رؤيت القضية في المحكمة في المعرة ، ثبت القتلُ عمداً بشهادةِ الجمِّ الغفير ، وأرادت المحكمة تبرئةَ القاتل ، بناءً على إشارةٍ وردت إليها ، وكان ابنُ عمي سعيد بن صالح الجندي عضواً في المحكمة ، فلم يوافق على التبرئة، فَهُدِّدَ من قِبَلِ أشياع أبي الهدى وأعوانهِ، فلم يعبأ بذلك ، فوردتْ برقيةٌ من الآستانة بنقل الدعوى إلى محكمة حلب ، وبعد أيام حكمت ببراءة القاتل.

وأمثالُ هذه الحوادث كثيرةٌ ، وكان كثيرٌ من المتغلبين ينهبون الناس ، ويحتمون به ، فيمنعهم.

على أنّ هذا وأمثاله ، لا يبخسه حقَّه من الذّكاء والدهاء كما قلنا.

[أولاده وأسرته]

وقد أعقب ولداً اسمه حسن خالد ، ولم يكن مثل أبيه في الذكاء والدهاء ، ولم ينل حظوةً في الحكومة التركية ، وإنما كان رئيساً للوزراء في شرقيِّ الأردن ، وقد توفي نحو سنة (١٣٥٠) هـ[١].

وأما أخوه عبد الرزاق ، فقد وجهت إليه الدولة رتبة قاضي

---

(١) [ولحسن خالد ابنة تعيش في لندن].

عسكر ، وهي أكبرُ رتبةٍ علمية ، وكان عامياً مُبَخَّلاً ، لم يَسِرْ سيرةً يحمَدُ عليها ، وكان لا يتحاشى من مجالسةِ الرعاع في مجالس الشرب وغيرها .

وقد جُعِلَ في عهد الدولة السورية نقيباً للأشراف في حلب ، إلى أن مات سنة (١٣٥٨) هـ ، وكان يحبُّ أن يُمدحَ ، ويُعَظَّمَ ، فكان في حياة أخيه يزورُ حمص وحماة والمعرة وحلب ، وكان الناس يتنافسون في إكرامه، والاحتفاء به من أجل أخيه، وكانوا يقيمون له الأذكار، فيقفُ في رأس الحلقة يرشِدُ الذاكرين، ويَطْرَبُ حين يسمع مدحَهُ، ومدحَ أبيه وأخيه وأجداده مع ذكر الله .

وصفوة القول: إنّ هذا البيت كان أبو الهدى أساسَه ونبراسَه ، فلما مات تقوّض وانهار ، وبُدِّلَ ضياؤه ظلاماً حالكاً ، وذهب كلُّ مجدٍ كان أسسه ، كما ذهبت دولةُ الطريقة الرفاعية ، التي كان أذكى مصباحَها ، وفلق إصباحها ، وقد بنى لأبيه مقاماً في مدينة حلب ، ودفنه فيه سنة (١٣١٢) هـ وهو غربيّ قبلية مسجد الرواية ، تحت القلعةِ ، قُرْبَ بابِ محلَّة الطون بغا .

والناس مختلفون في أبي الهدى ، فمنهم من يجعله علماً في العلم والتقى وحسن السيرة ، ومنهم من ينسُبُ إليه أموراً يأباها

العلم والتقى ، وأنا لا أستطيعُ الجزمَ بأحدِ الأمرين ، لأنّي سمعتُ كلامَ محبٍّ له يتزيّدُ في حديثه ، ومبغضٍ لا يتقيّدُ بالحقيقة ، ولكنّي قلتُ ما سمعتُ ، ولا يعلم حقيقةَ ذلك إلا الله تعالىٰ.

وإنما أطلتُ القولَ فيه ، لأنّ ظهورَ مثل هذا الرجلِ من مثل هذا البيت ، وهذه البيئة ، بمثل هذا المظهر العظيم ، جديرٌ بأن لا يُحْرَمَ التاريخُ شيئاً من خبره.

ولأني رأيتُ الناس في أمره على طرفي نقيض ، وأظنُّ أنّه لو وُفِّقَ إلى اختيار أتباعه وخلصانه من خيرة الناس ، لكان أمرُه إلى غير ما كان، ولاعترفوا بما كان له من جميل ومعروف بعد مماته، ولكنه اتخذ أُناساً كانوا يحبونه لأجل الفائدة التي يتوقعونها منه، فلما يئسوا منها، قلبوا له ظهر المجن ، فكانوا معه ما كان الدهر معه، فلما صار الدهرُ عليه، صاروا عليه مع الدهر ، وهذه عاقبةُ كلِّ إنسانٍ يشتري لصداقته الخسيسَ من الناس بثمنٍ بَخْسٍ[1] .

* * *

(١) «تاريخ معرة النعمان» (٢ : ٢١٥ ـ ٢٢٩) .



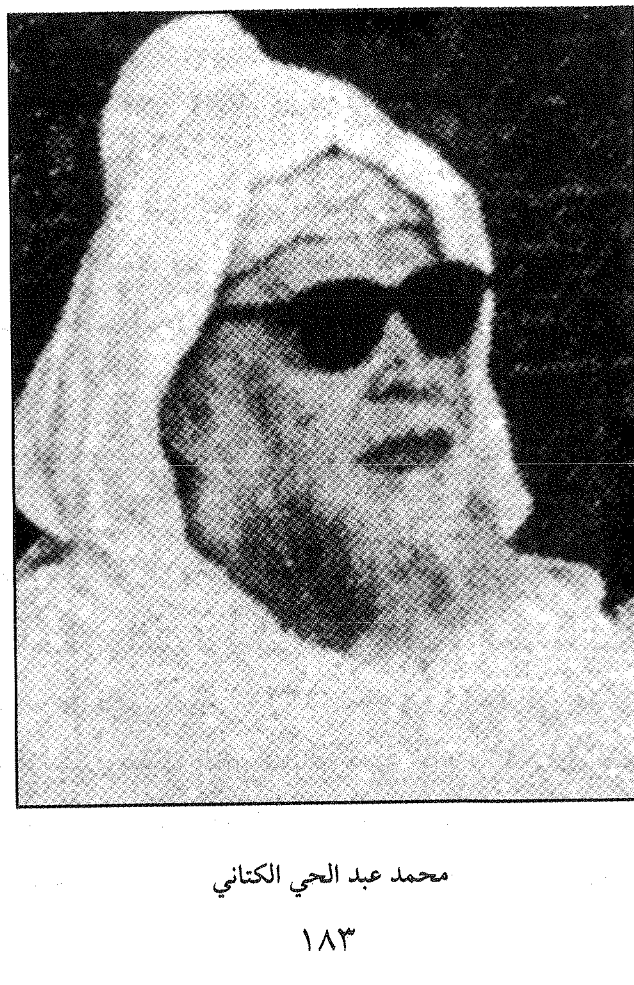
عبد الخالق عبارة الحمصي (منشد أبي الهدى)

القسم السابع

أبو الهدى الصيادي

بقلم

محمد عبد الحي الكتاني



محمد عبد الحي الكتاني

محمّد عبد الحي الكتّاني

(١٣٠٥ ـ ١٣٨٢هـ = ١٨٨٨ = ١٩٦٢م)

هو محمد عبد الحي بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي ، المعروف بعبد الحي الكتاني. صدر من صدور المغرب ، عالم بالحديث ورجاله .

مغربي ، ولد وتعلّم بفاس ، زار أكثر بلدان العالم الإسلامي ، وعاد بأحمال من المخطوطات ، وكان جمّاعة للكتب ، ذخرت خزانته بالنفائس ، وضُمّت بعد سنوات من استقلال المغرب إلى خزانة الكتب العامة بالرباط .

كان منذ نشأته على غير ولاءٍ للأسرة العلوية المالكة في المغرب ، واعتقل سنة (١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م) في دار المخزن ببلده ، ولما فُرضت الحمايةُ الفرنسية عام (١٩١٢) انغمس في مولاتها ، وجاهر بالبيعة لابن عرفة صنيعة الفرنسيين بعد إبعاد محمد الخامس عن بلاده وعرشه ، ولما استقلّ المغرب عام

(١٩٥٥) كان الكتاني في باريس ، فاستمر مقيماً فيها إلى أن مات .

له من التآليف :

١ ـ «فهرس الفهارس» .

٢ ـ «اختصار الشمائل» .

٣ ـ «التراتيب الإدارية في وظائف الحكومة النبوية» .

٤ ـ «الكمال المتلالي والاستدلالات العوالي» .

٥ ـ «ثلاثيات البخاري» .

٦ ـ «مفاكهة ذوي النبل والإجادة» .

٧ ـ «وسيلة الملهوف» .

٨ ـ «البيان المعرب عن معاني بعض ما ورد في أهل اليمن والمغرب» .

٩ ـ «الرحمة المرسلة في شأن البسملة» .

١٠ ـ «لسان الحجة البرهانية في الذب عن شعائر الطريقة الأحمدية الكتانية» .

* * *

أبو الهدى الصيادي

أبو الهدى الرفاعي، هو ابن حسن الرفاعي، الحلبيُّ المولد، الإسلامبوليُّ الوفاةِ والمدفنِ ، أشهرُ علماءِ العرب في دار الخلافة العثمانية أخيراً.

يروي عامةً عن محمود بن حمزة الدمشقي المفتي[1] ، ومحمد بن عمر الأهدل اليمني نزيل الشغور ، وحسن الفخري الحُسيني ، وعمِّه! محمد مهدي الرديني ، الشهير بالرّواس الرفاعي دفين بغداد!! ، وغيرهم.

له:

١ ـ كتاب «أحاديث كبار واسط».

٢ ـ وكتاب «أسانيد الواسطين».

٣ ـ و«الثبت الجامع».

٤ ـ و«الثبت الخاص».

٥ ـ و«النفحات المحمدية في الأحاديث الأربعين الأحمدية».

---

(١) انظر ترجمته في كتاب «علماء الشام كما عرفتهم» للعلامة محمد سعيد الباني (٢١٥ ـ ٢٢٩).

٦ ـ و«شفاء القلوب بكلام النبي المحبوب» ﷺ.
٧ ـ و«الفرقان الدافع بالحق أباطيل أهل البهتان».

ترجم في الأخير لنفسِه، وذكرَ أسانيده وأحوالَه، وتقلّبات الدهر به، أرويها وغيرَها مما يُنْسَبُ له عنه مكاتبةً من الآستانة، بعث لي منها بإجازتين:

إحداهما: عامة، عدّد فيها مؤلفاته، منها:

٨ ـ «المجد المخلد في أسرار اسم محمد» ﷺ.
٩ ـ و«ضوء الشمس في قوله ﷺ «بني الإسلام على خمس» وهو مطبوع في مجلد.
١٠ ـ «المتجر الأكبر في آل النبي الأطهر» = [المشجر الأكبر].
١١ ـ و«قواعد النسّابة».
١٢ ـ و«تراجم الأئمة».
١٣ ـ و«الإيضاح المطرب في ذكر أخوالنا أدارسة المغرب»!!
١٤ ـ و«بطون الآل الكرام» = [الروض البسام].
١٥ ـ و«أشرف السير خلاصة سيرة سيد البشر».
١٦ ـ و«الرحلة البغدادية».

وغير ذلك مما عد نحو المئة[١].

وإجازة أخرى خاصة بالرفاعية، وذلك سنة (١٣٢٣) هـ في

---

(١) [بلغت مؤلفات أبي الهدى (٢١٢) كتاباً ورسالةً].

كثير من مصنفاته يسند عن عمه!! بهاءِ الدين مهدي الصيادي الروّاس ، المذكور أخيراً عن الأمير الكبير ، وثعيلب الضرير ، مع أنّه يؤرخ في كتابه «قلادة الجواهر» وغيرِه دخولَ المذكور لمصر سنة (١٢٣٨)هـ ، **والشيخ الأمير قد مات إذ ذاك** ، إلا أنْ يريدَ الأميرَ الصغير ، فإن كان هو مراده ، **فلم يروِ عن الملوي والجوهري والسفاط إلا بواسطة أبيه الأمير الكبير فاعلمه** ، فعلّه يسقطه غلطاً وسهواً!!

مات المترجَم له سنة (١٣٢٧)هـ ، ودفن بزاويته بالآستانة ، رحمه الله.

ترجمه مجيزُنا الشيخ عبد الرزاق البيطار الدمشقي في تاريخه [حلية البشر] ، وأخذ عنه السيد أبو بكر ابن شهاب الباعلوي نزيل الهند ، وقرّظ أربعينه السمّاة «شفاء القلوب» شيخُنا ابن ظاهر ، وشيخ الجامع الأزهر الشمس محمد الأنبابي وغيره.

وقال عنه صديقنا نقيبُ الأشراف بالديار المصرية ، الكاتب الشهير السيد توفيق البكري الصدّيقي[١] في كتابه «صهاريج اللؤلؤ» :

---

(١) [محمد توفيق البكري (١٢٨٧ ـ ١٣٥١هـ = ١٨٧٠ ـ ١٩٣٢م) شاعر ، أديب ، من أعيان مصر ، مولده ووفاته في القاهرة انظر «محمد توفيق البكري» للدكتور ماهر فهمي].

«رفيعُ العماد ، كثيرُ الرماد ، رحبُ الصدرِ ، رحبُ الفؤادِ ، وقد صُرفت إليه وجوهُ الأمل ، فكان بيتُه قبةً أطنابها السبلُ .

مِعْطاءٌ ، غِطْريفٌ ، يرى أنَّ شِقّاً من باطن البُرَّةِ[١] قسمٌ بينه وبين الضعيف ، غياثُ المُرْمِلِ الممتاح ، وعِصمةٌ في الزمن الكلاح ، عربيٌّ في سجايا مضرٍ وزيدِ مناه ، أجودُ بالجاهِ من المالِ ، وبالمالِ من الجاهِ ، كعبٌ[٢] في الكرم ، والسموْأل[٣] في الذّمم ، وعمرُو بن العاص في الرأي ، والمغيرة[٤] في الدهي ، والشعبي[٥] في العلم ، وابن أبي دؤاد[٦] في الحُكم ، في قريضٍ كاللآلِ ، كلُّ بيتِ شعرٍ خيرٌ من بيتِ مالٍ» .

* وقال عنه الشمس محمد بن عبد الجواد القلياتي المصري في رحلته «روضة البشام في الرحلة إلى بلاد الشام» :

«العالمُ المرشدُ الصالح ، الأستاذ الشيخ أبو الهدى أفندي

---

(١) [حبة القمح] .
(٢) [كعب بن مالك] .
(٣) السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق ، شاعر جاهلي ، يضرب المثل بوفائه] .
(٤) [المغيرة بن شعبة] .
(٥) [عامر بن شراحيل الشعبي من أئمة التابعين وأعلامهم] .
(٦) [أحمد بن أبي دؤاد الإيادي من رؤوس المعتزلة ، تولى القضاء للمعتصم ، وكان وراء محنة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه] .

الصيادي الرفاعي ، المقيمُ الآن بالآستانة العليّة ، في كنفِ الحضرة السلطانية ، ونال من لدنُه رتباً ساميةً ، ونياشينَ عالية ، ومراتبَ علية بهية .

ومع كونه من أهلِ الطريق ، وخليفةٍ من خلفاءِ الطريقةِ الرفاعيّة له إلمامٌ بالسياسة ، وخبرةٌ تامّةٌ بأحولِ الوقتِ الحاضر ، والزمان الغابر ، بمطالعة تواريخ الأمم الماضين ، فهو جدير بالإقبال والقبول ، ونيل المأمول»[١] .

❊ ❊ ❊

---

(١) فهرس الفهارس (١ : ١٦٣ ـ ١٦٥).

القسم الثامن

أبو الهدى الصيادي

بقلم

عبد الحفيظ الفاسي



عبد الحفيظ الفاسي

عبد الحفيظ الفاسي

١٢٩٦ ـ ١٣٨٣هـ = ١٨٧٩ ـ ١٩٦٤م

عبد الحفيظ بن محمد الطاهر بن عبد الكبير الفهري ، أبو الفضل الفاسي ، الأندلسي الأصل ، من بني الجد.

قاضٍ من المعنيين بالتاريخ والتراجم والحديث.

ولد وتعلّم بمدينة فاس ، وقضى زهاء (١٠) أعوام في القضاء الشرعي ، ثم كان من أعضاء المحكمة الجنائية العليا ، وانقطع عن العمل يوم استقلَّ المغرب ، فعَكف على كتبه وأوراقه في منزله بالرباط إلى أن توفي.

أشهر كتبه:

١ ـ «معجم الشيوخ» في جزئين ، سمّاه «رياض الجنة» أو «المدهش المطرب».

٢ ـ «خبايا الزوايا» في التراجم ومراسلات معاصريه.

٣ ـ «الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث المسلسلات».

٤ ـ «التاج» مختصر في ذكر من اسمه محمد من ملوك الإسلام.
٥ ـ «أشهر مشاهير العائلات بالمغرب».
٦ ـ «الترجمان المعرب عن أشهر فروع الشاذلية بالمغرب».
٧ ـ «أربع رسائل في إبطال المهدوية».
٨ ـ «شذور العسجد في ذيل عناية أولي المجد بذكر الفاسي ابن الجد».
٩ ـ «خاطرات مريض».
١٠ ـ «فلسفة تاريخ دول المغرب»[١].

* * *

(١) الأعلام: «٢٧٩ ـ ٢٨٠».

أَبُو الهُدَى الصَّيَّادِي

هو أبو الهدى محمد بن حسن وادي بن عليّ خزام بن حسين ابن عبد العلّام بن عبد الله بن محمود بن محمد بن حسن بن محمد شاه بن محمد خزام بن نور الدين بن عبد الواحد بن محمود الأسمر بن حسين بن إبراهيم بن محمود بن عبد الرحمن بن [عبد الله] قاسم بن محمد السليم بن عبد الكريم بن [صالح] عبد الرزاق بن محمد بن علي بن عز الدين الصياد بن عبد الرحيم ابن عثمان بن حسن بن عسلة بن حازم بن أحمد بن علي بن حسن بن المهدي بن أبي القاسم محمد بن حسن بن الحسين بن أحمد بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن علي زين العابدين بن مولانا الحسين الشهيد ، عليه وعلى والديه السلام، الحُسيني الصّيَادي الرفاعي ، نقيبُ أشرافِ حلب ، وشيخُ السجَّادة الرفاعية بالمقام الصيَّادي ، نزيل دار الخلافة العلية القسطنطينية ، ودفينها ، الشيخ الكبير ، والعلّامة الشهير رحمه الله تعالى .

[أولـيَّـتُـهُ]

بيت بني الصياد الرفاعيين من أشهرِ وأعظمِ البيوتات الشريفة بالشّام ، ولهم بها شهرةٌ عظيمة ، ومَجْد صميم ، وفخر كبير ، قَلَّ أن يساويهم غيرها فيها ، لما تعدَّد فيهم من المشايخ العظام ، والعلماء الكرام ، وناهيك بالشهرة الكبيرة ، والمجد العظيم ، الذي أُوتيه صاحبُ الترجمة ، ولم يشاركْه فيه أو يقاربه أحد من أهل عصره ، وأصلُهم من العراق ، وانتقلَ جدُّهم عِزّ الدين أحمد الصياد إلى نواحي حلب سنة (٦٤٣) ثم رجع بعضُهم ، فاستوطنوا البصرة مدةً ، وما زالوا بها إلى أن رجعَ الجدُّ الخامس للمترجَم برهان الدين حسين سنة (١٠١٤) فتفرّقوا في الديار الشامية والحلبية ، وما زالوا بهما ما بين بدوٍ وحضر .

أما فريق صاحب الترجمة فنزلوا بقصبة صغيرة تدعى خان شَيْخون من أعمال معرّة النعمان ، وبها وُلِدَ صاحبُ الترجمة .

وأصلُ مجدهم ، ومدارُ فَخَارِهم هو الشيخ الكبير والولي الشهير أبو العباس أحمد بن علي الشهير بابن الرفاعي ، دفين أمّ عُبيدة[1] ، وقد كان رحمه الله من مشايخ الصوفية الكُمَّل ، وله

---

(١) أم عبيدة قرية بالبطائح بين واسط والبصرة في العراق .

مناقبُ كثيرةٌ ، وكانت وفاته رحمه الله سنة (٥٧٨) وقد ترجمه كثيرون ، انظر ابن خلكان (١ : ١٧١ ـ ١٧٢).

وبنو الصياد أحفادٌ له من بنته لما ذكره مؤرخوهم ـ ودرجَ عليه ابن خِلِّكان ـ من أنّه لم يُعْقِب إلا من بنتيه ، وأنَّ ولده صالحاً مات في حياته بدون عقب ، لكنّي رأيتُ الجمال الحدادي الكبير ، وهو من مؤرِّخيهم لما ذكر صالحاً المذكور قال : زوّجه والدُه ، وأعقب ولداً اسمه منصور ، وله ذرية اهـ.

قلت : وبواسطة منصورٍ هذا يرفع الرفاعيون ـ الذين كانوا بالمدينة المنورة آخر القرن الماضي ـ نسَبهم إلى الشيخ أحمد الرفاعي ، فإنْ صحَّ هذا فهم أولى بالرفاعي من بني الصيَّاد.

أما جدهم الذي إليه ينتسبون ، فهو عز الدين أحمد الصيَّاد المذكور في عمود نسب المترجَم ، الذي به افتتحنا ، وهو ابن بنت الشيخ أحمد الرفاعي ، وخليفتُه من بعدِه ، وهو المنتقل من أم عبيدة إلى الشام كما أسلفنا ، وله ولبنيه شهرةٌ عظيمةٌ تراجَعُ في كتبهم.

[حاله]

كان المترجَم رحمه الله من أعلا أهلِ عصره قَدْراً ، وأسماهم مَجْداً وفخراً ، عالماً كبيراً ، وإماماً شهيراً ، مشاركاً في كافّة العلوم ، المنطوق منها والمفهوم ، ماهراً في التفسير ،

والحديثِ ، والفقهِ ، والتصوُّف ، والأصْلَين[1] ، والتاريخ ، والأنساب ، متبحِّراً في اللغة ، والبيان ، والمعاني ، والبديع ، وكافَّة علوم البلاغة ، واسع المدارك ، كثير الحفظ ، عجيب الاستحضار ، حتى قيل : إنَّ محفوظاتِه الشعرية تزيدُ على مئة ألف بيتٍ ، وكان جمَّ الفضائل ، عاليَ الجاه ، رفيعَ المكانة ، واسعَ الصدر ، كثيرَ الحِلم ، عظيمَ المروءة .

كريمٌ معطاء ، أجودُ بالمال من الجاه ، وبالجاهِ من المال .

جمعَ أخلاقاً عظيمةً ، ومحاسِنَ جسيمةً ، قَلَّ أن تجتمعَ في غيره ، وتوفّرتَ له أسبابُ السعادة ، ومدَّت له يَدها ، وانقادتْ له بأزمَّتِها ، بل كان نَجْمُ سَعْدِه في برجٍ واحدٍ مع نجم الخليفة الأكبر السلطان عبد الحميد رحمه الله تعالى ، فسار اسمُه مع اسمه في مشارقِ الأرضِ ومغاربها .

وكان محسوداً إلا أنَّ دهاءَه وحِلْمَه وأخلاقه كانت تغلِبُ حسَّاده ، فينقادون إليه .

وكان **سياسياً مُقْتَدِراً ، خبيراً بأحوال الوقت الحاضر** ، والزمان الغابر ، وقد ترجمه كثير من أهل عصره ، منهم من أفرده بالتآليف وهي كثيرة ، وبعضها مطبوع ، ومنهم من

---

(١) [أصول الدين وأصول الفقه].

استطرده في مؤلفاتهم ، وقد أثنوا عليه الثناء العاطر .

وممن أورده مجيزُنا الشيخ عبد الرزاق البيطار في تاريخه[1] ، ومما جاء فيه بعدَ أنْ أطنبَ في وصفه ما نصه : «مع مهارة في العلوم ، ومحاضرةٍ فاضَ فيضُها من فيض سَيْبِه الموسوم ، وأخلاقٍ تألَّقَ جمالُها الوضّاحُ ، وأوصافٍ تألَّقَ عبيرُ رَوْضِها الفوّاح ، وأدبٍ تردَّى بالبراعة وتوشّحَ ، وشعرٍ ترنّم[2] للقبول وترشح ، وحسنٍ تلاعبَ بأطرافِ الكلام ، وتناسبٍ فيما تنشر ألسنة الأقلام ، وجمالٍ ألبسَه الكمال إهابه ، وجلالٍ لو رآه الغضنفرُ الكاسِرُ في غابِه هابه» .

وممن أثنى على أخلاقه وسجاياه السيد توفيق البكري شيخُ الطرق [الصوفية] بالديار المصرية في كتابه «صهاريج اللؤلؤ»[3] .

وبعكس هؤلاء قد تصدَّى للإنكار والإنحاء باللائمة عليه جماعةٌ يطولُ تعدادهم ، منهم الأستاذ الكبير ، الكاتب الشهير ، محمّد راغب أفندي الطباخ ، في «تاريخ حلب»[4] ومما جاء فيه ـ بعد ذكر شيخه الروّاس ، وما نسب له المترجم

---

(١) [انظر ص (٤٥) من هذا الكتاب] .

(٢) [في «حلية البشر» : (ترنح) وما هاهنا أوجه] .

(٣) [انظر كلام البكري في ص (١٨٩) من هذا الكتاب] .

(٤) [إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء» ٧ : ٣٣١] .

من كثرة المؤلفات ، وما يتعلق بأخبار والده ومشيخته ـ قوله :
«ولا ريبَ أنَّ في إقدامه على هذه المفتريات؛ ووضعِه لهذه الأكاذيب؛ جُرأةً عظيمةً ، وإنا ـ وٱيمُ الحق ـ لنأسَفُ على ذكائه المفرط ، وسَعَة مداركه ، وفضلِه الجمِّ ، وما أُوتيه من واسع الجاه ، ورفيع المكانة لدى السلطان عبد الحميد أن يصرِفَ ذلك في ترويج بضاعته ، ونفاق سلعته ، بحيثُ قضت أحوالُه وأطوارُه أن يسيءَ الناسُ الاعتقاد بمن تقدم ، ويقيسوا الحاضِرَ على الغائب ، ولو كانَ صرف عنايتَه إلى إصلاح الأمة الإسلامية ، ولمِّ شعثها ، لأتى في ذلك بالآيات البيِّنات ، ولحُمِدَتْ سيرتُه في دنياه ، وجوزي بالحسنى في أُخراه ، وخَلَّد له في بطون الأسفار ذكرى حسنة ، تتناقلها الأجيال ، ولا يمحوها مرورُ الأيام والليالِ. انتهى.

ولكلٍ وجهةٌ.

ومما يناسِبُ ذكره هنا أنّ بعضَ حسَّاده كان ينتقص قدر المترجم ، بكونه ولد في قصبة خان شيخون ، ولما بلغه بعث إليه بقصيدة فخرية يغلّطه في ذلك ، وقد استحسنتُ إيراد بعضِها هنا لبلاغتها، وعلوِّ معانيها وحلاوتها، وانسجامها، وإن كان ذلك على غير شرط الكتابِ، قال جدَّد الله عليه الرحمات :

سَلِ المَجْدَ إنَّ المجدَ أعدلُ شاهدٍ ... هل الفَضْلُ إلا في عُرُوْقِ الأماجِدِ

تفاخَرَ أقوامٌ بِسُكْنَى عَوَاصِمٍ ... وتـاهـوا بـأَسْـوَاقٍ بهـا وَمَعَـاهِـدِ
فيا عجباً والدّهرُ فيه عجائبٌ ... أيَفْخَرُ شَهْمٌ بالحِجَارِ الجَلامِدِ
وَهَلْ باجْتِماعِ النّاسِ في بلدٍ لَدَىٰ ... سـلامـةِ رأيٍ مَفْخَـرٌ عِنْـدَ نـاقـدِ
تعالى أخو الرأي القصيرِ وبيننا ... شؤونٌ هَوَتْ فيه لأدنى المواردِ
فما النّاسُ إلا ـ أين كانوا ـ معادِنٌ ... فذا تحتَ أقدامٍ ، وذا بالقلائدِ
نعم حَلَّ في شيخونَ بعضُ جدودِنا ... فبثُّوا بها في الكونِ عِطْرَ المحامدِ
وسارَ مَسِيْرَ الشَّمْسِ ممدوحُ صِيْتِهِمْ ... وذا الأمرُ إرثٌ من عليٍّ وخالدِ[(١)]
رووا مذهبَ العليا صحيحاً مسلسَلاً ... تـواتـرَ عنهـم واحـداً بعـدَ واحـدِ
مِنَ الشُّمِ أبناءِ الشآبيب كلِّهم ... لهمْ فوقَ عرشِ الفَخْرِ أعلا المساندِ
لنا مِنْ صميمِ الآلِ في العُرْب الأُلى ... مراتبُ مَجْدٍ دونها كلُّ حاسِدِ
تدلَّتْ بنا أنسابُنَا بينَ عارفٍ ... وشَهْمٍ سَخِيٍّ أريحيٍّ وعابدِ
نقولُ لِمَنْ بالوهمِ فاخَرَ بيتَنا : ... أضعتَ ثميناً، واحتفلتَ بكاسدِ
نطحَتَ الجبالَ الشاهقاتِ تجلُّداً ... روَيْدَك ما هذا سبيلُ التَجالُدِ
أردتَ عِنـاداً لـلإلٰـهِ بـوَهْبِـهِ ... وإحسـانِـه ، واللهُ غَيْـرُ معـانَـدِ
أفاضَ علينا الفَضْلَ في طينِ كوننا ... ومَدَّ لنا بالغيبِ خَيْرَ الموائدِ
فَقُمْنا على نَهْجِ العنايةِ مَثْلَما ... أرادَ نجوماً فوقَ سِرِّ المراصدِ
إذا قام يوماً للمفاخرِ شاهِدٌ ... لنا مِنْ براهينِ العُلا أَلفُ شاهدِ

---

(١) [إشارة إلى أنه ينتمي إلى الصحابيين الجليلين علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما].

[رحلتُه ونباهتُه]

كانت ولادَةُ المترجَم رحمه الله تعالى بخان شيخون سنة (١٢٦٦) وفي سنة (١٢٨١) أو بعدها توجَّه إلى دار الخلافة العلية ، فأُحيلتْ لعُهدته نقابةُ أشرافِ جسر الشغور .

وفي سنة (١٢٩٠) تولّى نقابة أشراف حلب ، فانتقلَ إليها ، واستوطنها .

وفي سنة (١٢٩٤) قصدَ دار الخلافة أيضاً ، فاتصل بجلالة السلطان الخليفة عبد الحميد ، الذي قرَّبه منه ، والتفتَ بكليتِه إليه ، ورقَّاه في المراتب العلمية ، إلى قضاء العسكرين[1] ، وقد ارتفعَ قدره عندَه ، وقدَّمه على أشباهه وأقرانه من أهل العلم ومشايخ الطرق ، لما توسَّم فيه من العلم والذكاء ، والسياسة والدهاء ، ولما أظهرَه من الإخلاص للخلافة ، والنُّصح في خدمتها ، والدفاع عنها ، فصُرفت إذ ذاك الآمالُ إليه ، وأكبَّ الخَلْقُ عليه ، وفزِعوا من سائر الأقطار الإسلامية إليه ، وكان السلطانُ عبد الحميد يقضِي مآرب مَنْ لاذَ به ، وتعلَّق بجنابه ، وكذلك كان رجالُ دولته ، ينفِّذون كل ما يشيرُ

---

(١) [عسكر الأناضول وعسر الروملي ، وهي أعلى مراتب القضاء في الإدارة العثمانية] .

به ، تقرُّباً إليه ، واسترضاءً لجلالة السلطان ، وبسببِ ذلك أغدقَ النعمَ على قرابتِه ، واللائذين به ، من أهلِ العلم والأشراف ، فوُجِّهت إليهم الرتب والمراتب ، وتقلَّدوا المناصب العالية ، والمرتبات الكافية ، بل حتى على أعدائِه وحسَّادِه إذا توجهوا إليه ، وحَطّوا آمالهم بين يديه ، وهذه هي النقطة الوحيدة ، والمحور الذي كان يدورُ عليه مدحُ الناس وذمهم ، **فمن نال على يده ما يرجو كان من المادحين له ، والمقدِّسين لأعماله ، بل أطراه حتى بما ليسَ فيه ، ومن لم ينلْ على يده شيئاً حمله البغضُ والحسدُ على أنْ أطلقَ عِنانَ القلم في إشهار مساويه ، سواء الصحيح منها أو المكذوب .**

إلاّ أنّ هناك فريقاً لم يكن من الأولين ولا من الآخرين ، بل كان نظره نحو الصالح العام ، والكشف عن الحقائق اللثام ، فإنّهم تكلّموا بكلامٍ تؤيِّده الحجج ، ويقبله العقل ، فلا تتصوَّب إليه سِهامُ الملام ، ولا يقاتلون بسيوف الانتقام .

لكن ربما يُجاب عن المترجَم بأنه لم يكن في وسعه أن يعملَ كلَّ ما يُتَطلَّبُ منه ، وإنه لو عاكسَ عبدَ الحميد لظنَّ به سوءاً ، أو أنه كان(١) يدافع أعداءه الذين كانوا يتربّصون بالدولة

---

(١) [في الأصل (أن له)] .

الدوائر ، فكان قانعاً منه بما كان يساعده به من النفع له ولقرابته واللائذين به ، والحاضر يرى ما لا يرى الغائب ، ولا معنى لأن يرفضَ ذلك إذا لم ينل منه غيره.

[مشيخته]

يروي رحمه الله عن ابن عمه بهاء الدين محمد المهدي آل خزام الصيادي البغدادي المعروف بالروَّاس !! وعن السيد محمود أفندي الحمزاوي الدمشقي الشهير ، ومحمد بن عمر الأهدل اليمني ، وحسن الفخري الحسيني وغيرهم.

وتلقى طريقةَ أسلافه[1]، ولبسَ خرقتها من ابن عمه المذكور ، ومن والده حسن وادي ، ومن ابن عمّه علي بن خير الله الحلبي ، حسبما كلٌّ ذلك مبيَّن في ثَبْتِهِ ، وفي إجازاته المطبوعة ، وغيرها من كتبه.

أما ابنُ عمه[2] بهاء الدين الرواس ، فقد صرَّح المترجَم في كتبه أنه يروي عن الشيخ ثعيلب المصري ، ومحمد الأمير ، قال كلاهما: عن الشهاب الجوهري ، ويعني بالأمير هنا

---

(١) [في الأصل (أسلافهم)].

(٢) [كان الرواس شيخه كما هو في ترجمات المشرقيين ، ثم صار عمه عند الكتاني المغربي ، ثم صار ابن عمه عند الفاسي !!].

الكبير ، لأنّه هو الذي يروي عن الجوهري ، وذلك لا يصح ، ففي كتابه «قلادة الجواهر» ونقله عنه عزة باشا المَوْصِلي في «العقود الجوهرية» ما يفيدُ أنَّ الروَّاس إنما دخل مصر سنة (١٢٣٨) والشيخ الأمير كان إذ ذاك ميتاً، فقد توفي سنة (١٢٣٢) كما في غير ما ديوان ، انظر «تاريخ الجبرتي» (٤ : ٢٠٨).

وعليه فلعلَّ مرادَه ابنُه الأمير الصغير ، إلا أنّ الأستاذ الطباخ المتقدم الذكر ، لما استطرد لذكر المترجَم في تاريخه لحلب عند ذكر ترجمة والده قال: إنّ المترجَم طبع عدة كتب ، نسبها لبعض المتقدمين ، ولشيخه الشيخ محمد المهدي الروّاس ، الذي لا وجود له إلا في مخيلته ، انظر (٧: ٣٥٢).

قلت: وأمرُ الروّاس هذا مشكل جداً ، فإنَّ المترجَم لما ذكره في كتابه «قلادة الجواهر» وصفه بأوصافٍ عالية في العلم والعرفان ، وقال: إنَّه شيخُ العصر علماً وعملاً ، وزهداً وأدباً ، ونسبَ له مؤلفات ودواوينَ شعرية وطبعها ، وقال: إنّه كان خامِلاً ، لا يستقرُّ في بلدٍ ، ويتعيَّش من بيع الرؤوس المطبوخة ، ومن البعيد أن يكونَ كما ذكره ، ولا يعرفه أحدٌ أصلاً عدا المترجَم ، لأنَّ العلم من شأنه الظهور ، ولو أخفَى نفسَه الإنسانُ وأخملها ، فإنَّ زكيَّ عبيرِه لا بدَّ أن يستنشقه الناسُ .

وَهَبْ أنه كان خاملاً ، فإنَّ الناس لا محالةَ يعرفونه ، فيذكرونه خاملاً حقيراً ، أو ينكرون فضله وعِلْمَهُ. ومؤلفات النبهاني[1] مملوءةٌ حتّى بالمعتوهين ، ومن لا يعرَفُ لهم اسمٌ ولا محل ، والحالةُ أنّه لا وجودَ لمن ذكره أو عرفَه ـ لا كونه شيخَ العصر وشاعَره ، ولا كونه أميّاً جاهلاً أو خاملاً ـ إلا المترجَم في مؤلفاته ، وأتباعُه كعبد القادر أفندي قدري في كتابه «الكوكب المنير» ، وأحمد عزة باشا المَوْصلي في كتابه «العقود الجوهرية» وأمثالهما ، ممن يستقي من بحره .

وإقدامُ المترجَم على اختلاق وجوده وأخباره ومؤلفاته وأشعاره ـ إن صحَّ ـ ممَّا يُستغرَبُ صدوره منه .

لكنَّ للمترجَم وأتباعه أن يجيبا بأنه كان في غنًى عن ادّعاء وجودِ هذا الشيخ كذباً ، لعدم توقفه في تأسيس مجده على وجوده ، فقد كان حصلَ على أقصى ما يرجوه الإنسان في دنياه من الجاه العريض ، والنفوذ العظيم ، وإقبال الخلق ، والتفافهم

(١) [الشيخ يوسف النبهاني (١٢٦٥ ـ ١٣٥٠هـ = ١٨٤٩ ـ ١٩٣٢م) من كبار علماء وشعراء عصره ، من رجال القضاء ، ولد في فلسطين ، وتخرّج من الأزهر ، وعمل في الآستانة في تحرير «الجوائب» له من مصنفات كثيرة منها «جامع كرامات الأولياء» الذي يتحدّث عنه الفاسي . انظر «الأعلام» (٨ : ٢١٨)] .

حولـه ، وتقديسهـم لأعمالـه ، وذلك بدهائـه وعقله ، والتفات السلطان نحوه.

وأن يجيبا أيضاً بالقاعدة المقرَّرةِ ، وهي أنّ عدمَ الوجودِ لا يدلُّ على عدم الوجدان ، هذا ما ظهرَ لنا بحسب الاحتمالات العقلية ، والتصوُّرات الفكرية ، وإلا فالحقيقة علمها عند الله!!

[مؤلفاته]

للمترجَم رحمه الله مؤلفاتٌ عديدةٌ ، ومصنفات في مواضيع مفيدة ، دلَّت على مكانته في العلوم ، ومقدرته على الكتابة في المواضيع المختلفة ، وبراعة قلمه وسيلانه ، وقد عَدَّ في إجازته لي أسماءَ ما يزيدُ على مئة وستين تأليفاً ، لكنَّ أكثرَها في مناقب جده الشيخ أحمد الرفاعي ، ومناقب بيتهم وطريقتهم ، والدفاع عنها ، والرد على غيرها من أربابَ الطرق ، ولنذكر البعض منها مما هو في غير هذا الموضوع.

فمنها:

١ ـ «الصراط المستقيم في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم ، وأسرار الفاتحة».

٢ ـ و«نفحة الرحمن في تفسير القرآن».

٣ ـ و«المجد المخلَّد في أسرار اسم محمد» ﷺ.

٤ ـ و«ضوء الشمس في قوله ﷺ بني الإسلام على خمس».

٥ ـ و«بغية أولي الأفهام في الفرق بين الحال والمقام».

٦ ـ و«طريق الصواب في الصلاة على النبي الأواب».

٧ ـ و«حضرة الإطلاق في مكارم الأخلاق».

٨ ـ و«داعي الرشاد إلى طريق الاتحاد».

٩ ـ و«المشجّر الأكبر في آل النبي الأطهر» ﷺ.

١٠ ـ و«تحقيق مسألة الجهة».

١١ ـ و«الإيضاح المطرب في ذكر أخوالنا أدراسة المغرب».

١٢ ـ و«أحكام الفراسة».

١٣ ـ و«أسرار سياسة الشريعة الإسلامية».

١٤ ـ و«حكم الفلسفة والديانة».

١٥ ـ و«الفرائد في العقائد».

١٦ ـ و«قلادة النحر في شرح حزب البحر».

١٧ ـ و«أسرار الوجود الإنساني» = [أسرار الوجود الرباني].

١٨ ـ و«غاية المدارك في إدارة الممالك».

١٩ ـ و«أشرف السير».

٢٠ ـ و«نفثة مصدور» في الأدب.

٢١ ـ و«أسرار القيافة».

٢٢ ـ و«أحاديث كبار واسط».

٢٣ ـ و«أسانيد الواسطيين».

٢٤ ـ و«الثبت الجامع».

٢٥ ـ و«حديقة الفتح في ذكر الشطّاحين والشطح».

٢٦ ـ و«إبهات الجاحد في إثبات خرق العوائد».

٢٧ ـ و«حكم التساوي الشرعي».

٢٨ ـ و«حفظ آداب الدين».

٢٩ ـ و«معنى حب الوطن من الإيمان».

٣٠ ـ و«بهجة الزمان في مآثر السلطان عبد الحميد خان».

٣١ ـ و«آداب المسلمين المأخوذة من سيد المرسلين».

٣٢ ـ و«الحقيقة الباهرة في أحكام الديانة المحمدية».

٣٣ ـ و«مفاخر البيت العثماني».

٣٤ ـ و«وجوب تقديم العلماء».

٣٥ ـ و«قواعد النسابة».

ودواوينه الشعرية العديدة المطبوعة، التي ظهر فيها تفوّقه في علوم البلاغة.

[روايتي عنه]

استدعيت منه الإجازة ، فكتب إلي من الآستانة العلية عام (١٣٢٤)هـ بإجازتين طويلتين: إحداهما عامة ، وعدد فيها جميع مؤلفاته ، وبعض أسانيده العلمية ، مشتملة على تسعة أوراق ، والثانية إجازة خاصَّة بالطريقة الرفاعية وبخرقتها وأسانيدها ، وهي طويلة كسابقتها.

وملخص الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أيدَّ هذه الأمة المرضيَّة المحمديَّة بالأسانيد الصحيحة ، وفضَّلها على سائر الأُمم بالبراهين البيِّنة والآيات الصريحة ، والصلاة والسلام على سيد سادات البرية ، وروح هذه العوالم الكونية ، الذي ثبتت له الدلالات ، وصحَّت عنه الروايات ، وروى عن الرب الجليل ، وتلقى الوحي عن أخيه جبريل ، وكشف ظلمات الجهل والبهتان ، وأتى بنور الهدى والإيمان ، سيدنا ونبينا ورسولنا محمد حبيب الرحمن ، عليه صلوات الملك المنان ، وعلى آله مصابيح السيادة ، وأصحابه نجوم السعادة ، والتابعين والصالحين ، وحملة شريعته ، ورجال طريقته أجمعين ، إلى يوم الدين .

أما بعد: فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى، المستعين به في الشؤون والدواعي، محمد أبو الهدي بن المرحوم أبي البركات السيد حسن وادي الصيادي الرفاعي غفر الله له ولوالديه، وأحسن بدار الجزاء جزاءهم يوم القدوم عليه والمسلمين: قد طلب مني بكتابته إليَّ العالم الفاضل بقية الأماجد الأفاضل الشيخ عبد الحفيظ بن الشيخ محمد الطاهر الفِهْري نَسَباً الفاسي، حفظه الله من نزغة كل نازغ، وهجمة كل (قاسي) والمسلمين أجمعين آمين، واستجازني في العلوم الظاهرة والباطنة من جليل علم التفسير، وكريم حديث نبيِّنا القمر المنير، وبقية العلوم المتداولة الشرعية والتصوفية، وبخرقة السادات الرفاعية، ذوي الطريقة المنيرة المرضية فأجبته لذلك، وإن كنتُ لست أهلاً لما هنالك فأقول:

أجزت الشيخ عبد الحفيظ المومى إليه؛ سَحَّتْ سحائب العناية الربانية علينا وعليه؛ بجميع ما تجوز لي روايته؛ وتصحُّ لي نسبته ودرايته: من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول، وكلام، وتصوف، وغير ذلك، وأجزته أن يروي عني الكتب الستة الصحاح المشتملة على كثير من كلام شمس الفلاح، وصراط النجاح ﷺ، وأن يروي عني مصنفاتي ومؤلفاتي ومنظوماتي وأسانيدي، التي أُجزت بها من أشياخي قدس الله

أرواحهم، وأقول قول من قال:

أكابرُنا شيوخُ العَصْرِ حازوا صنوفَ العِلْمِ فاغتنموا وفازوا
أجازوا لي إجازةَ ما رَوَوْهُ وها أنا قد أجزتُ كما أجازوا

كل ذلك بشرطه المعتبر عند أهل الحديث والأثر، وإني أوصي نفسي أولاً والمجاز ثانياً؛ بتقوى الله تعالى، وبالتمسُّك بسنة النبي ﷺ، وأحثُّه على الاشتغال بالأسباب، مع طرح النظر إليها، ليستغني بالله عن غيره، وأن يجعل النتيجة من علمه لله وحده، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ طلبَ علماً ليُجاري به العلماءَ، أو ليماري به السفهاءَ، أو يصرِفَ به وجوهَ النّاسِ إليه أدخلَه الله النارَ»[(١)].

وأوصيه أن يختم أواخر مجالسه بما روي عن سيدنا أمير المؤمنين علي المرتضى كرم الله وجهه ورضي عنه مرفوعاً: «مَنْ أحبَّ أَنْ يكتالَ بالمكيال الأوفىٰ من الأجرِ فَليَقُلْ آخرَ مجلسِه أو حينَ يقومُ: سبحانَ ربِّكَ رَبِّ العزَّةِ عمَّا يصفونَ، وسلامٌ على المرسلينَ، والحَمْدُ للهِ ربِّ العالمين».

حرر في ٢٥ من شهر رمضان المبارك أحد شهور سنة ١٣٢٤

---

(١) [أخرجه الترمذي عن كعب بن مالك رضي الله عنه بإسناد حسن كما قال في «صحيح الجامع» رقم (٦٣١٣)].

هجرية خاتماً بالصلاة والسلام على روح خير البرية ، وعترته الزكية ، وأصحابه وأتباعه ومحبيه وأشياعه ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

وأما الإجازة الخاصة بالطريقة الرفاعية ولباس خرقتها ، فبعدما رفع أسانيد مشايخه الثلاثة كتب ما نصَّه :

الحمد لله الذي رفع أعلام الطريقة العلية الرفاعية فوق الرؤوس ، وأدار على سُلاَّكها في حضرة أنسه رائق الكؤوس ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد شمس الشموس ، وعلى آله وأصحابه الذين بذلوا في محبته نفائس النفوس .

أما بعد :

فإن جميع ما نقل عن لساني في هذه الإجازة الشريفة من إلباس الخرقة الجليلة الرفاعية ، والجلوس على السجادة العلية الأحمدية ، وإعطاء العهد والإذن بإرشاد المريدين ، وتربية الطالبين ، والخلافة في هذه الطريقة ، التي هي أقوم طرق أهل الحقيقة للولد القلبي الصالح ، والمحب الموفق الرابح ، الفاضل الكامل ، الشيخ عبد الحفيظ الفهري نسباً ، الفاسي موطناً ، أصلح الله شأنه ، ووفقه بعنايته لحفظ حقوق هذه الأمانة ، فهو صحيح لا ريب فيه ، ولا شك يعتريه ، واللهَ أسأل

أن يوفِّق لنا وله وللمسلمين من الخير أعمَّه ، ومن التوفيق المحض أكمله وأتمَّه آمين .

حرره بقلمه ، وقاله بفمه ، الفقير إليه تعالى محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي الحسيني نقيب أشراف حلب ، وشيخ السجادة العلية الرفاعية ، والمقام العامر الصيادي عفي عنه .

[نكبته ووفاته]

لما خلعت جمعية الاتحاد والترقي الخليفةَ عبد الحميد ظلماً وعدواناً نكبوا كل من هو من بطانته ، لا سيما المترجَم ، الذي كان من أعظم المخلصين له ، وكانوا يظنون أنه كان في وسعه أن يقود عبد الحميد لإصلاح حال الدولة على ما يشتهون ، إلا أنه كان عكس مطالبهم ، وألد أعدائهم ، فسجنوه ، وسلبوا نعمته انتقاماً منه ، وقد بينت ما جرياتُ الأحوال بعد ذلك أنهم كانوا على خطأ في مطالبهم ، وأن عبد الحميد ومن التفَّ حوله كالمترجَم كانوا على صواب في إبعادهم والقضاء عليهم ، لمعرفتهم بدخائلهم وإلحادهم ، وإضْمارهم الضرر للدولة ، وناهيك باضمحلال تلك الإمبراطورية العظيمة بمجرَّد سقوط

عبد الحميد، واستيلائهم عليها[1]، وقد بقي المترجَم خاملاً منكسرَ الخاطر، إلى أن انتقل للدار الآخرةِ بالآستانة العلية عام ١٣٢٧، ودفن فيما يقال بزاويته ثمة، رحمه الله تعالى، وغفر له بمنه آمين[2].

* * *

(١) [انظر كلام السياسي الكبير: فارس الخوري في عبد الحميد ص (٢٤٨) من هذا الكتاب].

(٢) [عبد الحفيظ الفاسي: «رياض الجنة» أو «المدهش المطرب» (١٤٤ ـ ١٥٥) ط المغرب ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣١م].



احمد عزت باشا العابد

القسم التاسع

أبو الهدى الصيادي

بقلم

الدكتور سامي الكيالي



سامي الكيالي

الدكتور سامي الكيالي

(١٣١٦ ـ ١٣٩٢ هـ = ١٨٩٨ ـ ١٩٧٢م)

سامي بن علي بن محمد الكيالي.

أديب باحث، مولده ووفاته بحلب، تعلم بها، وكان أمين السر العام لبلديتها مدة «٢٥» عام، ومديراً لدار الكتب الوطنية فيها، ومن أعضاء مجمع اللغة في القاهرة.

أصدر مجلة «الحديث» شهرية من سنة (١٩٢٧) إلى سنة (١٩٦٠) ونشر(٢٦) كتاباً من تصنيفه منها:

١ ـ نظرات في التاريخ والنقد والأدب.

٢ ـ شهر في أوربة.

٣ ـ سيف الدولة وعصر الحمدانيين.

٤ ـ الفكر العربي بين ماضيه وحاضره.

٥ ـ المرأة هذا اللغز الأبدي.

٦ ـ الراحلون.

٧ ـ صراع في سبيل القومية العربية.
٨ ـ يوميات في أمريكة.
٩ ـ الحركة الأدبية في حلب.
١٠ ـ الأدب العربي المعاصر في سورية.
١١ ـ خمر وشعر.
١٢ ـ من خيوط الحياة.
١٣ ـ السهروردي.
١٤ ـ مع طه حسين (جزءان).

* * *

أبو الهدى الصيادي

من المفارقات العجيبة في تاريخ حلب الأدبي أنّ أكثرَ الأدباء والشعراء الذين ظهروا في منتصف القرن التاسع عشر ـ كان الأدبُ طريقهم إلى السياسة.

وحديثي اليومَ عن رجلٍ يختلِفُ في نهجه عن نهج مَنْ سبقوه، وقد استطاع عن طريق الشعر أن يدخل البيوتَ، ويتصل بمختلف الشخصيات، وينتقلَ من بلدٍ إلى بلدٍ ـ وليس هذا فقط، بل استطاعَ بشعره وذكائه وسلوكِهِ طريقَ التصوفِ أن يبلغَ أرفعَ مقام في السلطةِ العثمانية، وأن يكونَ خدين السلطان وعشيره، والآمرَ الناهيَ في الكثيرِ من شؤون مملكته.

وقصتهُ عجيبةٌ من عجائبِ الدهر!!

إنه إنسانٌ كبيرُ المطامح، ذو دهاءٍ عجيبٍ، بدأ حياتهَ بدايةً فيه لونٌ من الذِّلِّ والخنوع، وانتهى إلى أن بلغَ أرفعَ ما يطمَحُ به إنسانٌ.

إنّ حديثي عن شاعرٍ متصوِّفٍ لعبَ دوراً خطيراً في حياة السلطان عبد الحميد الثاني ، وكان له شأنٌ يذكَرُ في سياسة الدولة العثمانية ـ أريدُ به : **السيد أبا الهدى الصَّيادي** .

وأبدأ بكلمات عن نشأته فأقول :

ولد سنة (١٢٦٦هـ ـ ١٨٤٩ م) في خان شيخون ـ وهي قريةٌ من أعمال حلب ـ تقع بين حماه والمعرة ، وقد عاش في كنف أبيه الشيخ حسن وادي ، الذي يتصل نسبُه بسيِّد الأقطاب الإمام الرفاعي .

وقد كان أبوه من مشايخ الطرق ، من الذين يقيمون الأذكار ، ويستعطون أهلَ الجودِ والكرمِ .

ونشأ الفتى نشأةَ أبيه ، فلم يكد يشبُّ على الطوق ، وتظهرْ عليه علائمُ النجابةِ والذكاء ، حتى ترك خان شيخون ـ القرية التي ضاقت به ـ إلى حلب .

جاءَها كطالب علمٍ ، فانتسب إلى إحدى مدارسها الدينية ، وتتلمذَ على مشايخها ، يأخذُ عنهم الفقهَ والتفسيرَ والحديثَ والأدبَ والأصولَ وكل ما يزيدُ في ثقافته الدينية .

وبدأ حياته بنظم الشعر ، وظهر في الأوساط الحلبية كشاعر مدّاحٍ ، وشعرُهُ بالنسبة لاتجاهاتِ الشعر في القرن التاسع عشر ،

على جانبٍ عظيم من الرقة والجزالة ، فمن قوله في الغزل :

ما هَبَّ نَشْرُ الصَّبَا إلا فُؤَادِي صَبا
والتفتت همّتي لريمِ ذاكَ الخِبا
يا ساكناً مُهْجَتِي صيَّرْتَها كالهَبا
رِفْقاً بذي لَوْعَةٍ رأى الهَوىٰ مَذْهَبا
لأجلِ خَدَّيْكَ قد يُعْشَقُ وَرْدُ الرُبىٰ

وإنا لنقرأ في دواوينه الكثيرَ من القصائد الوجدية ، التي تفوحُ منها نسماتُ الشوق والحُبّ ، كما نرى في نثره هذا اللونَ الصوفِيَّ المشرقَ الذي يدنيه من أدب كبار المتصوفة.

فمن نثره يصف الفراق بقوله :

«الفراق عند النظريين سِرٌّ لطيفٌ ، يتَّصِلُ بالقلب من طريق المخيِّلة ، فيمرُّ بالحافظةِ ، ويقيم لباصرةِ القلب مشهداً تراهُ بعين رؤيتها، فهي إذا رأته هزّت القلبَ ، فاعترك عليه البثُّ والحزنُ، فتشوّفت العين لرؤية ذلك المشهد ، وحيثُ لم تشهده للبعد والفراق ، بكتِ العينُ ، وحنَّتِ الروح ، وخفقَ القلبُ ، وانتشر سر ذلك الوجد والألم على الجوارح ، فألقى على العين رمداً ، وعلى الجسم كمداً ، ولا دواءَ لداءِ الفراق سوى التلاقي ، غيرَ أنَّ كلَّ مفارقٍ لا يبقي فيمن فارقه ذلك الأثر ، إذ الروح لطيفةٌ

نورانيةٌ أَمْرِيَّـةٌ تحِنُّ إلى كلِّ لطيفةٍ معنويـةٍ أو ماديةٍ ، لا ينبعِثُ منها الحَنينُ إلى كثيفٍ أصلاً ، إذ الكثائف سافلة ، واللطائف عالية ، وحنينُ الروح لمن يفارقه ذو الروح لا يكونُ إلا لمعنى في المفارق لطيف ، تدرِكُه الروح ، ولو أغفلَه الإنسانُ لما ينصبُّ لمنافذ بصيرته من الحجب الكثائف ، ولما يكون في لطيفة فكره من الضيق ، وفي حبل نور عقله من القصر ، حتى ينصرفَ لمجرَّدِ مرئًى من مالٍ أو جمالٍ أو شأنٍ أو حالٍ ، لاحظَّ للرُّوح بِه .

وأربابُ الأفكار الوسيعة ، والعقول النيرة الطويلة ، ولو طرقتْهُم طوارقُ الميل للكثائف ، فمنهم يعلمونَ أنَّ سِرَّ الحبِ للطائف ، يعرف ذلك العارف»[1] .

ونثره قليلٌ بالنسبة لشعره ، الذي تعددتْ أغراضُه ، وإن كان المدحُ والوجدُ هما أظهر مافي شعره . .

وهو إذ يحدِّد أغراضَ الشعر يقول:

«ومعلوم أنّ شعر العرب مع كثرةِ فروعِـه وأصوله ، واختـلافِ معانيـه ومبانيه ينقسم إلى أقسام:

---

(١) ديوان الدر المنتظم ص (١٣).

فَوَصْفُ الشجاعةِ والصبرِ في مواطن الخوفِ يقال له: حماسة.

ووصفُ الكرمِ والحسبِ والمجدِ القديم يقال له: تقريظ ومدح وفخر.

وما يُثنى به على المرءِ بعدَ موته، كذكر مناقبه، وخصالهِ، وشرفِه، وخلالهِ، فهو رثاء، وتأبين.

وذكرُ أخلاقِ الرَّجل أعني الأخلاقَ الممدوحةَ، كالإغضاءِ والحياءِ، والإعراضِ عن الفحشاءِ، والصفحِ عن عثراتِ الأَخلّاء، فهو: أدبٌ.

ووصف الحُسْنِ والجمالِ، واللطف والدلال، فهو: غزل ونسيب.

وذكر نقصان المرء وبخلِه ولؤمه، وسوء خُلقه، وقبيح عِرقِه، فهو: هجاء.

ورفض الدنيا، والحثُّ على الرجوع إلى الله، والتوكل عليه، فهو: زهد.

ووصف الأشياء على اختلافِ أخبارها ورقائقِ أسرارها فهو: مِلَحٌ ووصف ونعت»[1].

ولا يتّسعُ المجالُ لأن نعطيَ نماذجَ من شعره في المواجدات والتصوف، فقد انتشر في الكثير من دواوينه، وكلُّها تصوِّر نهجَ الرجل الذي تجلببَ بلباس الصوفيين، وسلك طريقهم، فأوصله هذا السلوك إلى أرفع مناصب الدولة، وهذا ما سنعرِضُ إليه في حديثنا عن هذه الشخصية العجيبة.

ـ ٢ ـ

اتخذ أبو الهدى الشعر ـ كما قلنا ـ وسيلتَه للظهور، وفَرْضِ شخصيته على المجتمع الحلبي.

كان ينظم قصائدَ المدح، ويطوف على البيوتات الكبيرة، يمدحُ رجالاتِ الدولة، وأعيانَ البلد..

وإذ كان من المنتسبين إلى السيّد الرِّفاعي، فقد أجازه والدهُ بطريقة أسلافه، وألبسه الخرقة الشريفة بإذن ابن عمه الشيخ علي أفندي آل السيد خير الله الصيادي شيخ مشايخ حلب، ثم

(١) المصدر السابق (٢٩٥).

أتمَّ السّلوكَ على يد شيخِه الأجل السيد بهاء الدين الصيادي الشهير بالرّواس(١).

وعُرِفَ أبو الهدى، بعد أن لبس جلبابَ التصوّف، بأنه: شيخ طريقة، ودقّاق مزهر.

وإذا كان للوظائف الدينية مقامُها، فقد طمحتْ نفسُه للتولية على «خان شيخون» مسقط رأسه ـ وسعى إلى ذلك، حتى وُجِّهتْ إليه توجيهاً شرعياً بحكم محكمة ولاية سورية، وذلك سنة (١٢٨٠) هـ، وعمره يومئذ تسعة عشر عاماً، وقد نصّتْ حجةُ التوليةِ الشرعيةِ على نسبه الشريف من الجهتين إلى الإمام الصّيادي ابن السيّد الرفاعي، وإلى الصحابي الشهير خالد بن الوليد(٢).

ولكن ما تولية خان شيخون هذه!! إن نفسه طامحة لأعظم من هذا.

ولقد كانت بيوتاتُ حلبَ ورجالاتها ينظرون إليه نظرةَ الهزءِ والسُّخريةِ، ولا يعتبرونه أكثرَ من شيخ طريقة، ودقاق مزهر،

---

(١) الدر المنتظم، مختصر براهين الحكم ص (٢٩٩).

(٢) نفس المصدر. [ومن الجدير بالذكر أن سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه انقرض نسبه في العصر الأول].

وشاعر مدَّاح ، يستجدي أهلَ الجودِ والكرم ، وكان يرى نفسَه في القمة نسباً وحسباً.

وكان له من فَرْطِ ذكائه هذه الطمحات الواسعة. . ومدينةُ حلبَ لن تضمنَ[1] له هذه الطمحات ، لذلك فكّرَ بالسفر إلى إستانبول ، ولم يكن السفرُ في ذلك العهد من السهولةِ كما هو اليوم. .

ولكن ما هي مشاقّ السفر إزاء ما كان يحلُمُ به من السيطرةِ والمجدِ !؟

ـ ٣ ـ

شخص إلى إستانبول ، ونزل أحد خاناتها ، ويصفُه المرحوم محمد كرد علي في «مذكراته»[2] نقلاً عن أبيه بقوله:

«. . كنّا بضعةَ تجار من الشاميين في إستانبول في خانٍ من خاناتها ، ولم تكن الفنادِقُ يومئذٍ معروفةً ، وكنّا نتآلفُ ونشترِكُ في النفقة والسمر ، وكان يزورنا درويشٌ شابٌ ، أسمرُ اللون ، جَهّوَرِيُّ الصوت ، تبدو أمارات الذكاء عليه ، وله جدائل

(١) [في الأصل (تطمئن) ولا معنى لها].
(٢) المذكرات (١ : ٢٤٢).

يرخيها على ظهره ، يعتم بمئزر ، ويكتسي عباءة وقُفطاناً ، ويضرِبُ بالدُّفِّ ، وينشِدُ أشعاراً على طريقة القوم[1] ، وما كان يشارِكنا في النفقة ، ومهمَّتهُ أن يسلِّينا بأناشيدِه كلَّ ليلةٍ ، وهذا الفتى هو محمد بن حسن وادي المعروف بأبي الهدى الصّيادي الرفاعي»[2] .

لقد شخص إلى إستانبول وهذِه حالُه ، وأخذَ يتَّصِلُ بمن عرفهم من المرموقين من كبار الرجال ، فرأوا فيه فتًى ألمعيَّ الذكاءِ ، يفيضُ قلبُهُ بالشعر ، ويفيضُ جنانُه بنفحاتِ التصوُّفِ ، فما كان منهم إلا أن عملوا على تحقيق بعض رغباته ، فوجَّهوا إليه نقابةَ أشرافِ قضاءِ جِسْرِ الشغور ، كما نال رتبة مولوية أزمير ، وسنُّه يومئذٍ ثلاث وعشرون سنة ، ثم وُلِّيَ قاضياً على جسر الشغور ، مع احتفاظِه بنقابة أشرافها ، وفي سنة (١٢٩١) هـ عُيِّنَ نقيبَ أشرافِ عمومِ ولاية حلب ، وكان في الخامسةِ والعشرينَ من عمره .

ـ ٤ ـ

هنا ، في هذه الفترة ، وبعد أن حَظِيَ بعطف الدولة ، بدأت

---

(١) [الصوفية] .

(٢) «المذكرات» (١ : ٢٤٢) [وانظر ص (١٢١ ـ ١٣٩) من هذا الكتاب] .

وجهات النظر تتبدل حوله ، وأخذ الناس يتقرَّبون إليه ، ويلتفّون حولَه ، ويزجوْنَ إليه التهنئة ، ويلتمسون منه العطف والرعاية ، ولاسيّما بعد أن خصَّه الخليفة السلطان عبد العزيز خان براتبٍ خاص ، ولم يقف الأمرُ عند هذا الحد ، بل فوَّضَهُ نقيبُ أشرافِ دارِ الخلافة النظرَ على نقباءِ ولاياتِ سورية ، وديار بكر ، وبغداد ، والبصرة ، بل فوَّضه أن يعطيَ هو منشورَ النقابةِ لجميع النقباء في ولايةِ حلبَ.

وفي سنة (١٢٩٤) هـ ، وُجِّهَتْ إليه باية الحرمين الشريفين بالإرادة السنية من لدن السلطان عبد الحميد[١] .

لقد بدأ الناسُ ينظرون إلى أبي الهدى نظرةً تختلفُ ـ كما قلنا ـ عن النظرة القديمة. إنّه الآن بموجب هذه المراسيم السلطانية ، وبحكم مركزه الجديد ، أصبحَ في حلب وفي غير حلب ، من الأعلام المرموقين ، وأصبحتْ له الكلمةُ النافذةُ في مختلف الشؤون والقضايا العامة.

وقد بلغ ، في هذه الفترة من حياته بعضَ أُمنياته ، ولكنَّ مطامحه كانت أجلَّ من هذا بكثيرٍ.

وكما اتخذ الشعرَ وسيلةً للظهور ، فقد كانت الصوفية أو

---

(١) التاريخ الأوحد للغوث الرفاعي الأمجد ص (١٤١).

الدروشة ، والسير سير الأولياء الصالحين وسيلةً لمطامحه الكبيرة .

ولكن كيف نوائِمُ بين الصوفية ـ ولحمتُها الزهد والتقشف ـ وبين هذه الطمحات ، التي تتلمَّسُها نفسيةُ شاعرٍ يريدُ أن يبلغَ سريعاً أرفعَ المناصب وأعلى المراتب؟

نعم ، كيف نوفِّق بين رجلٍ يريدُ أن يصلَ إلى القمةِ ، ويصلَ حياته بحياة رجالِ الدولة ، وبين شيخٍ متصوّفٍ يفْترَضُ فيه أن يتركَ بهارِجَ الدنيا ، ويبتعدَ عن نعيم السلطان .

إنّ الطموحَ كثيراً ما يوقِعُ الإنسانَ في التناقض .

على أنّ الشيءَ الراهنَ أنّ نزعةَ الحياة كانتْ عندَه أقوى من نزعةِ التقشُّفِ ، وقد اتخذ المدائح النبويةَ وسيلةً لتحقيق مآربه . . وإذْ كانتْ النزعاتُ الدينيةُ هي السائدةُ في عصره ، وكان للدين قداستُه وتأثيرُه ، فقد استغلَّ هذه الظاهرةَ للوصول إلى أرفع مرتبة في الإمبراطورية العثمانية ، التي كانت الشمسُ لا تغيبُ عن أطرافِ مملكتها . .

كان السلطان عبد الحميد خليفةُ المسلمين ، فلم لا يكونُ الصياديُّ شيخَه ووصيفَه؟ فهو ذو نسب ، وهو من الأشراف ،

وهو من المتصوفة. وهو إلى كل هذا، شاعرٌ ذَلْقُ اللسان، ونبيهٌ من أذكياء البشر.

كيف الوصولُ إلى الأعتاب السلطانية؟

لقد أعدَّ قصائِدَ المديح ليهنِّىءَ السلطانَ، بعد أن وُجِّهَتْ إليه باية الحرمين الشريفين.

ولكنّ السلطانَ قد اعتاد سماعَ هذه النغمات من كثيرين غيرَه، وثمنُها أعطيات وأوسمة... وقد قبضَ الثمن. وكان المفروضُ أن يرجعَ إلى وطنه.. ولكنَّ مطامحَه وأمنياتِه أوسعُ من هذا، فما هو السبيلُ إلى بلوغ هذه الأمنيات؟

لقد تحققتْ أمنياتُه عن طريق المرأة، نعم، عن طريق المرأة أتيحَ له أن يكونَ من أقربِ المقرَّبين إلى قلبِ السلطان.

والحادثةُ التالية تكشِفُ لنا هذا السرَّ:

«فقد أصيبت امرأةُ ناظرِ الضبطيةِ بمرضٍ أعجزَ الأطباء، وكان يحبُّها حباً جماً، فتذرَّعَ بكلِّ مافي وسعه لشفائها. ولما كاد ييأسُ من عافيتها، وصفوا له أبا الهدى الصيادي، وما يكتبُ من حجب وتمائم، وما يقرأُ من أدعيةٍ وعزائمَ، فاستدعاه لِطبِّ حبيبته بما عنده من بضاعةِ المشايخ، بعد أن عجز الطبُّ الحديث عن برئها.

والغالب أنّ الشيخَ لم يقطع ترتيب الطبيب ، وتركَ السيدة تتناولُ ما وُصِفَ لها من أدوية وعقاقير ، فبرئت بعد أيام ، فعظمَ مقامُ الشيخ في عين سيّدها ، وشاع بذلك ذِكْرُه في دار المُلك ، وكثر قصّادهُ والمعتقدون به ، وجمهورُ الترك يحسنون ظنَّهم بمن يأتيهم من طريق الدين بما يلائم عقلَّيتَهم ، ويسارِعون إلى تصديق مَنْ يعتقدونَ فيه الخيرَ.

ولم تمضِ أيامٌ ، حتى أصيبتْ إحدى حظايا السلطان عبد الحميد الثاني بعارِضٍ يشبِهُ عارضَ امرأةِ الناظر ، فعلم الوزير بالأمر ، وعرض على مولاه ما كان من الشيخ أبي الهدى مع زوجه ، وقال فيه كلَّ خيرٍ حببّه إلى السلطان ، فاستدعاه لمداواةِ حظيته بأدعيته ، فجاء يداويها بما داوى به امرأة الناظر ، فَشُفِيَتْ الجاريةُ بعد أيام ، وأعقب ذلك اتصالُ أبي الهدى بالسلطان عبد الحميد»[1] .

وبعد هذه الحادثة ، وبعد قصائد المديح التي رفعها إلى أعتاب السلطان دُعِيَ لشرفِ الحضور الأقدس السلطاني ، بواسطة نافذ باشا المشير ـ السرقرناء يومئذ ـ وهي أول مرةٍ فاز

---

(١) مذكرات محمد كرد علي (١ : ٢٤٢) [وص (١٢١ ـ ١٣٩) من هذا الكتاب ، ولا يخفى ما في هذا الخبر من غرابة!!].

بها بشرفِ المثولِ بين يدي جلالته ، وسنُّه يومئذٍ ثمان وعشرون سنة ، وقضى حوائجه ، وتعطّفَ عليه ، وأمره بملازمةِ خدمة أعتابه مرةً أو مرتين في كلِّ أسبوع ، وأغدقَ عليه نعمتَه ، وبعد أنْ أقامَ مدةً يسيرةً استأذن جلالتَهُ في السفر ، فمنعه ، ونصّبَهُ رئيسَ مجلسِ المشايخِ في نفسِ دار الخلافة ، وبموجب الإرادة حُرِّرَتْ له التذكرةُ الرسميةُ من شيخ الإسلام خليل أفندي[1] .

ـ ٥ ـ

لقد كانتْ سياسةُ السلطان عبد الحميد ترمي إلى اجتذابِ الشخصياتِ الدينية الكبيرة إلى حظيرته ، لتكونَ عمادَه في السيطرة وبسط نفوذه[2] ، وبلغَ مسامعه ما يتحلّى به أبو الهدى من صفاتٍ ومزايا ، ففتحَ له البابَ على مصراعيه ، وسرعان ما ولجه باطمئنان .

من قرية خان شيخون إلى الآستانة العاصمة العثمانية . . من الضّعة إلى المجد ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الهاوية إلى

(١) تاريخ الأوحد ص (١٤١).

(٢) [ليضمن لفكرة «الجامعة الإسلامية» النجاح ، إذ عليها يتوقف بقاء الدولة العثمانية].

القمـة.. ومن التمـرّغِ على الأعتـاب، إلى التربُّعِ فـي دِسْـتِ القصور ونعيم المُلك والسلطان.

وهكذا كان.. وهنا أنشد قصيدته الشهيرة التي يفتخر بها:

كيـف لا تَـزْدَهِـي بنـا العليـاءُ ولنـا المجـدُ طينـةٌ وَرِدَاءُ

وعاد الناس يتساءلون، ولاسيّما في موطنه، عن السرِّ في بلوغ الرجل هذه المكانة السامقة.. لقد تخطّى كبارَ الشخصيات من العظماء ورجالات الدولة، وأصبحَ من أقرب المقرّبين إلى السلطان.. وبعد أن كان أبو الهدى في نظرهم من الحواة المشعوذين، أصبح من الدهاة المرموقين.

وهنـا أي بعـد أن صـدرتْ الإرادةُ السنيـةُ بتقليـدِه مشيخـةَ المشايخ في المملكة العثمانية خرستْ الألسنةُ عن ذكر نشأته وماضيه، وأصبحتْ لا تذكره إلا بالتكريمِ والتبجيلِ والتعظيمِ، إلا أنّ شاعراً شذَّ عن هذا التبجيل فهجاه بقوله:

هـذا الـذي قـد كان قَبْـلَ دخولـهِ «دارَ السعادَةِ» مُعدَماً شَحّاذا

واليـومَ صُـوْرَتُـهُ تبيِّـنُ أنـه أَضّحَى بِأَكْبَرِ حيلةٍ أُسْتاذَا

وقضى الشيخُ ثلاثين سنة إلى جانب السلطان، فكان من أكبر ثقاتهِ، وكان خلالَ هذه المدة ملجأَ القاصدين، وكان قصرهُ في بشكطاش بغيةَ الروّادِ من مختلف الأقطار والأمصار،

وكلمتُه في المملكة العثمانية تجري في نفوسِ الحكام مجرى السحر. .

وما مِنْ رَجُلٍ قصده إلا وقد حقّقَ له أمنيته ، وأناله مبتغاه.

وإذ وصل إلى هذه المكانة السامقة كَثُرَ حاسدوه ، وكثر شانئوه ، وكثر خصومه. . والمنتقصون لقدره. . وبينا كان يسمع أماديحَ الشعراء بحقه كانت الدسائسُ تحاكُ له من وراء ستار. . فكانَ يبتسِمُ لهؤلاء وأولئك ، ولا يُظْهِرُ الحقدَ لأحدٍ ، حتى إذا تمكَّنَ من الفرصة ضربَ ضربتَهُ القاصمة ، فقد كان خصومُه من كبارِ الرجالِ ، ومن أهلِ الحَظْوَةِ عند السلطان ، فما زال بهم حتى بزَّهم واحداً واحداً، وبقي مكانَـهُ كالطودِ الرّاسخِ، لا تزعزِعُ قواعِدَه الصروفُ ، ولا ترتقي إليه الهممُ[1] !!

وقد مشى وراء خطواته الوزراء والكبراء ، وقبّل يديه أعيانُ العصر والأمراء ، وانفرد عن الأشباه والنظراء ، فظلَّ في صحبة عبد الحميد باقعة السلاطين من آل عثمان زهاءَ ثلاثين سنة ، في صعودٍ متوالٍ ، ورفعة شأنٍ ، ولم ينلْ أحدٌ من أبناءِ الأمة العربية بل التركية ما ناله عنده من المنزلة الرفيعة والحظوة السنية.

---

(١) المعلوم والمجهول: (١ : ٩١) [وص (٨١) من هذا الكتاب].

وكانت حضرتُه يومئذٍ في القسطنطينية قبلةَ ذوي الآمال من القُصّاد ، ومثابة الغرباء على اختلاف الأجناس من أقصى البلاد ، فكنتَ ترى أبناءَ الهند ، والصين ، والأفغان ، ومرّاكش ، ومصر ، والسودان ، إلى غيرهم من أجناس الأمم المنتشرة في أبعد جهات آسية وأفريقية ، بل كثيراً من عظماء الفرنجة يؤمّون تلك الحضرة ، للتحدُّثِ في بلادهم بمشاهدة الرجل الذي طبَّقَتْ شهرتُه سائِرَ العروش[1] .

وقد خصَّه شعراءُ البلادِ العربية من ذوي الحاجات بالكثير من المديح ، واستعانوا على مدحه لقضاء حوائجهم ، فأخذَ بناصرِهم ، وأكرمَ وفادتهم ، وأدنى منه مجلسهم ، فكانَ منهم من يؤلِّفون الأسفار ؛ ويعزونها إليه ، ومنهم من ينظمونَ الأشعار ؛ ويروونها عنه ، فتناقلتِ الألسنُ ما بدا من فضلِهِ المتزود ، وسهتْ الأفكار عن نقصهِ الكمينَّ فيه»[2] .

وكما ألمعنا في البدء أنّ هذا الرجل كلّما ازدادَ رفعةً عند السلطان ، وازداد جاهه ، كثر حاسدوه ، وعظم مناوئوه . .

وليست الخصوماتُ الشخصيةُ مما يجدُرُ الإلماعُ إليها ،

---

(١) «أدباء حلب» لقسطاكي الحمصي (١٠٥) [وص ١١٤ من هذا الكتاب].

(٢) ولي الدين يكن في «المعلوم والمجهول» (١ : ٩١) و[٨٦ من هذا الكتاب].

فهذه أمورٌ طبيعية ، مع أيّ إنسان يرتفع قدره ، وينبه ذكره ، ولاسيّما مع رجلٍ بلغَ هذه المكانة السامقة عند السلطان ، ولكنْ هناك تيارات تمرُّ من حياةِ المرموقين لا يمكنُ للمؤرِّخِ أن يغفلَها ، كالخصومة العنيفة التي وقعتْ بينَه وبين حكيمِ الشرق السيد جمال الدين الأفغاني ، ففي الفترة التي لمع فيه نجم أبي الهدى ، كان الحكيمُ جمال الدين قد ظهر في المجتمع الإسلامي كسياسيٍّ كبير ، ومصلح دينيٍّ عظيمٍ له خطرُه.

والمتتبّعون لسيرة جمال الدين يعلمون أنه قام بأكبرِ ثورة اجتماعيةٍ في العالم الإسلامي ، وكان يرمي[1] من ثورته الاجتماعية النهوض بالعالم الإسلامي من جهة ، ـ وتخليصَه من ربقة الاستعمار من جهة أخرى ، وكان لصوته الداوي أثره القويّ ، ورجّته العنيفة في الشرق وفي الغرب . .

وحين دعاه السلطان عبد الحميد لزيارة الآستانة ، وكان في لندن ، استجابَ للدعوة ، وجاء عاصمة الخلافة ، فاستقبل بالحفاوة البالغة ، وأعدَّ له السلطان قصراً منيفاً ، وأجرى عليه راتباً ضخماً ، بغيةَ جعلهِ من خواصِّ رجالهِ ، واستخدامِه كأبي الهدى في توطيدِ نفوذِه وسلطانهِ . .

---

(١) [في الأصل: (يرمز)].

ولكن هل أهدافُ الشيخينِ واحدة؟

لا . . فأهدافُ جمال الدين كانت غيرَ أهدافِ أبي الهدى ، ولم تكن المظاهِرُ المادية لتغري جمالَ الدين للسعى وراءها . .

ومنذ وصوله إلى الآستانة ، بدأت إتصالاتُه بالسلطان ، فرأى فيه رجلاً يختِلفُ كلَّ الاختلاف عمن عرفهم من الرجلات . .

ورغب السلطانُ أن يستخدِمَ جمالَ الدين في دعوةِ المسلمين إلى الاعتصام بعروة الخلافة ، أي أن ينضووا جميعهم تحت رايته ، وأن يسبِّحُوا بحمدِه وسلطانه ، وما كان جمالُ الدين ليقبلَ أن يكون أداة وبوقاً يكيلُ المدحَ للسلطان في سبيل مآرب خسيسة ، بل كانت مقاصِدُه النهوضَ بالأوطان الإسلامية كلِّها ، وتحريرها من العبوديتين : عبودية السلطان الجائر ، وعبودية الأجنبي المتحكم .

وفي هذه الفترة التي نزل فيها السيد جمال الدين ضيفاً على السلطان ، توثّقت الصلات بين الداهيتين : بين الأفغاني وأبي الهدى ، ثم ما لبثْ أنْ توتّرت ، فقد اعتقد أبو الهدى أنّه جاءَ ليزاحِمَه على مقامه الديني الخطير ، لاسيّما بعد أن عَرَضَ السلطانُ على جمال الدين مشيخةَ الإسلام . . وهنا انقلبَ

أبو الهدى على جمال الدين ، وأخذ يتّهمه بالكفر والزندقة والإلحاد ، وأنّه جاءَ ليفسِدَ العقائد[1] . .

وفي رسالةٍ كتبها أبو الهدى إلى الشيخ رشيد رضا صاحبِ «المنار» جاء فيها :

«إني أرى جريدتك طافحةً بشقاشقِ المتأفْغِنِ[2] جمال الدين الملفقة ، وقد تدرّجتَ به إلى «الحسينية» التي كان يزعمها زوراً ، وقد ثبت في دوائر الدولة رسمياً أنه مازندراني من أجلاف الشيعة ، وهو مارقٌ من الدين كما مرق السهم من الرمية[3] .

ـ ٧ ـ

على أنّ أبرزَ هذه الدسائس التي حيكت حول جمال الدين ما نُقِلَ للسلطان أنّه كان يجتمعُ بالخديوي عباس [حلمي] سِرّاً ـ وكان الخديوي في الآستانة ـ لتأسيس دولة عباسية ، وأنّ جمال الدين قد مهد للخديوي بضم سورية إلى مصر ، لأنها

(١) [وبنى الصيادي اتهامه على ما تقصاه من أخبار جمال الدين في نشأته الأولى حيث اتهمه علماء النجف إبان دراسته فيه بالزندقة انظر «جمال الدين الأفغاني في آثار دارسيه» لأستاذ علي شلش (٨٤ و٨٥)].

(٢) [وأبو الهدى هو أول من نبه إلى أن جمال الدين إيراني وليس أفغانياً].

(٣) [انظر كتاب «حقيقة جمال الدين الأسد أبادي» للدكتور عبد النعيم حسنين].

مفتاح العراقين ، واشترط عليه أن لا تكونَ عاقبته كعاقبة أبي مسلم الخراساني مع العباسيين.

وقد كان لهذا الخبر الذي يعزوه المؤرخون إلى دسائس أبي الهدى فعل السم في نفس السلطان ، فانقلبَ على جمالِ الدين ، الذي شعرَ بالضيق من هذا الجوِّ الموبوء ، الذي يعجُّ بالدسائس ، فاضطر أن يترك إستانبول ، وفي نفسهِ من الثورة على أوضاعها ما جعلَ الكلامَ ينطلِقُ من فمه كالبراكين ، وأوجز كلماته:

«إنّ هذا السلطان سِلٌّ في رئةِ الدولة العثمانية. .».

وفي روايةٍ أنّ دسائسَ أبي الهدى لم تضطره إلى ترك إستانبول ، بل كان العاملُ الأكبر ضغطَ حكومةِ الأفغان[(١)] ، التي طلبت من السلطان تسليمَ جمالَ الدين ، ولاسيّما بعد مصرع الشاه ناصر الدين بيد الميرزا رضا الكرماني أحد أتباع الأفغاني[(٢)].

---

(١) [كان سبب تركه استانبول بل طرده منها الحملة التي شنّها عليه شيخ الإسلام واتهامه بالزندقة إذ أنكر في محاضرة له أمام طلاب دار الفنون بإستانبول النبوة].

(٢) وكان الميرزا رضا من كبار البهائيين وكان سبب قتلهم لشاه إيران أنه طرد البهائيين من بلاده ، انظر عن علاقة جمال الدين بالبهائية كتاب «السلطان عبد الحميد الثاني» للدكتور محمد حرب ص ١٧٧ ـ ١٧٩].

ومهما كانت الأسباب ، فالمؤرّخون يجعلون أبا الهدى من العوامل التي كانت سبباً في نزوح جمال الدين عن الآستانة ، وبسفرِه قد انجابتْ عن أبي الهدى غاشيةٌ رانتْ على قلبِهِ فترةً غير قليلة ، فتنفّس الصعداءَ.

ولكن لم يكد يتخلّص من نفوذ الأفغاني ، حتى ظهر له خصمٌ جديدٌ ، خصمٌ له قوتُه وسطوتُه ، أريدُ به عزّة باشا العابد ، أحدُ كبارِ دهاقنةِ العرب في عصره ، هذا الرجل الذي تقرَّب إلى السلطان ، فجعله قربه ، وكاتبه الثاني في المابين ، وظلَّ خادِمَه الأمين نحو ثلاث عشرة سنة[1]، فضاق به أبو الهدى ، كما ضاق عزة العابد بنفوذ الشيخ ، وأخذ كلُّ واحدٍ يكيدُ للآخر ، وكان عبد الحميد ـ وهو من الدهاة ـ يستغلُّ نفوذَ وذكاءَ الاثنين في سبيل توطيدِ سلطانه ، بل كانا في سيطرتهما ونفوذهما ككفتي ميزان ، إذا رجحَ أحدُهما خفَّ ثانيهما .

---

(١) [ولد أحمد عزة باشا في دمشق عام (١٨٥٥م) وتعلم بها وببيروت ، وأجاد الفرنسية والتركية ، وكان اتصاله الأول بالسلطان عبد الحميد عن طريق الشيخ أبي الهدى الصيادي ، غادر البلاد العثمانية بعد الانقلاب العثماني ، وتنقل في عدة بلدان ليستقر في مصر ، حيث توفي بها سنة (١٩٢٤) ونقل جثمانه إلى دمشق ليدفن فيها] .

وقد اشتدّتْ وطأةُ كلٍّ منهما على الآخر ، وضاعَتْ بينهما مصالح الدولة والأمة ، وانقسم عامةُ الناس إلى حزبين ، أحدُهما «هدائي» وثانيهما «عزتي» فما يبرمُ هذا أمراً إلا وينقضه ذاك ، ولا يفتحُ ذاك باباً إلا ويغلقه هذا .

ولما رأى الناس من العابد ثباتَ قدمه في مناوأة(١) أبي الهدى ، جنحوا إليه بآمالهم ، ولاذوا بركنه عند فزعهم ، وسُرّ بذلك عبدُ الحميد ، فاتخذ كلاً من المتفاضلين رقيباً على مفاضله ، ورأى سائرُ أعداءِ أبي الهدى أنْ لا يختِلفُوا في محاربته ، فاتحدوا ، ورضوا بعزة العابد زعيماً ، فساروا تحت رايته ، وعملوا برأيه ، حتى كادوا يغلبون الصيادي ، ويزيحونه عن طريقهم(٢) .

وبالرغم من كلِّ ذلك ظلَّ عبد الحميد يعتمد على أبي الهدى في الملمّات ، وقد اتخذه مستشاره الأمين ، وسلاحُ أبي الهدى في مناوأة خصومه قداسةُ الدين ، وللدين أثره وسحرُه في نفوس السلاطين ، **وكان الشيخُ يزوِّدُ مولاه كلَّ يومٍ بعجيبة من العجائب ، فآونةً بتبليغهِ سلامَ النبيﷺ ، وحيناً يقصُّ عليه رؤيا**

---

(١) [في الأصل: (مواصلة)].

(٢) المعلوم والمجهول (١ : ٩٣) [وص (٨٨) من هذا الكتاب].

يزعُمُ أنّه رآها ، ويفسِّرُها له على ما يلائِمُ هواه ورضاه ، ثم يدّعي لأبيه ولنفسِه كرامات لا وجودَ لها ، وكان عبدُ الحميد محباً لهذه الأشياء ، ويظنُّ أنها من أقربِ الوسائل لاستدامةِ حكمه[1] .

بهذه الوسائل قويتْ سيطرة أبي الهدى على عبد الحميد ، وتمكّنت بينهما الأُلفة الروحية ، حتى إنّ خصومَ الصيادي لما صارحوا السلطان بأنّ هذه البضاعة التي يبيعها له ليست إلا نوعاً من الخزعبلات ، قال لهم: «عجبتُ لهؤلاءِ الخونة ، يحسدونَ شيخي ، وليس فيهم من يليقُ به أن يكون من خدّامه ، يكتبُ إليّ الواحدُ منهم كتاباً يطلب فيه بدرة مال ، أو رتبةً لا تكادُ تذكر ، وهو مع ذلك يتعسَّفُ الحيل ، ولا يهتدي إليها سبيلاً .

أما أبو الهدى فإنْ سألني سألني عن ثقة وظَرْفٍ ، ولا يتدنّى بقدره إلى طلب ما يكون مشاعاً يمكِنُ أن ينازِعَهُ فيه غيره ، بل يطلبُ منّي ما يفتخِرُ الشريفُ بنيله ، فهو الأميرُ ، وهم الصعاليك» .

ويدلُّنا هذا القول على الثقة الكبرى التي كان يتمتَّعُ بها أبو الهدى عند السلطان ، وقد ظلت الأُلفة الروحية بينهما

(١) المعلوم والمجهول: (١ : ٩٣) [وص (٨٣) من هذا الكتاب] .

بالرغم من كلِّ الدسائس التي حِيْكَتْ له ، حتى دسيسة طموح أبي الهدى ليكون خليفةً!

فقد جاء في «تاريخ الأُستاذ الإمام الشيخ محمد عبده» أنّ أبا الهدى لم يكن يقنعُ بما بلغه من مقامٍ سامٍ عندَ السلطان ، بل كانَ يطمعُ في الخلافة(١) .

وسواءٌ أصحَّتْ الروايةُ أم لم تصح ـ وهي شائعةٌ أطلقَها المرحوم ولي الدين يكن ، ليوغرَ صدرَ السلطان عليه ـ أقولُ: سواءٌ أكانت هذه الرواية صحيحة أم مختلقة (٢)، فإنّ مَنْ يرجِعُ إلى تاريخ حياة أبي الهدى ، ويقارنُ بين نشأته الأولى وبلوغه ما بلغه من المقام الكبير في الدولة ، وإخضاعه السلطان لوحي سلطانه ، لا يستبعدُ أن تطمحَ نفسُه إلى الخلافة ، ما دامتْ الخلافةُ في قريش ، وهو من المنسوبين إلى آل البيت .

وبعدُ : فقد ظلَّ أبو الهدى بالرغم من جميع الدسائس التي حِيْكَتْ حول اسمه ، من المقرّبين إلى السلطان ، وظلَّ نفوذُه يمتدُّ في كلِّ بقعةٍ من بقاعِ الإمبراطورية المترامية الأطراف ، إلى

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» [للسيد محمد رشيد رضا] (١ : ٩١٣).

(٢) [كيف تكون صحيحة وقد اعترف ولي الدين باختلاقها على أبي الهدى . انظر ص (٩٧) من هذا الكتاب] .

أن وقعَ الانقلاب ، فكان مصيرُه كمصير عبد الحميد ، ففي اللحظة التي هجم فيها الاتحاديون على السلطان الأحمر[1] في قصر يلديز ، هجموا على قصر شيخه أبي الهدى ، وكان في سريره ، يعاني آلام المرض ، فهلع واضطرب ، وكادَ يقضي [نحبه] ، فأشفقوا عليه ، وحملوه في سريره إلى جزيرة الأمراء (برانكيبو) ، فظلَّ فيها عدة أشهر ، يعاني الآلام وعنت الأيام ، وما زال في همٍّ ويأسٍ وكمدٍ ، يشكو غدرَ الزمن ، ويستسلم

---

(١) [قال الأستاذ محمد الفرحاني في كتابه «فارس الخوري وأيام لا تنسى» ص (٣٠٢): قال لي فارس الخوري ذات يوم: تأكد لي بما لا يقبل الجدل أن هذا الخليفة الإسلامي (عبد الحميد الثاني) قد راح ثأر اليهودية العالمية التي ساءها رفضه لاقتراح تيودور هرتزل، واتخاذه مختلف الوسائل لمنع اليهود من الهجرة إلى فلسطين، ووضعه قانون الجواز الأحمر الخاص بكل يهودي يدخلها للسياحة والزيارة، ومنعه إياهم من تملك الأراضي، مما أدى لحنقهم عليه، وشروع منظماتهم بالعمل مع الدول الاستعمارية على مناوأته شخصياً، وعلى كيان الدولة العثمانية يوم اتخذوا من مدينة سلانيك وكراً رئيسياً لدسائسهم ومؤامراتهم، لأن هذه المدينة تضم عدداً كبيراً من (الدونمة) اليهود الذين انتحلوا الإسلام، وتظاهروا باعتناقه والعمل له، وتغلغلوا بواسطة ذلك في مختلف وظائف الدولة العثمانية حتى تمكن فريق منهم من بلوغ أعلى المناصب، وكان أحد الثلاثة الذين انتدبهم مجلس المبعوثين العثماني لإبلاغ السلطان عبد الحميد الثاني قرار خلعه عن العرش نائب يهودي يدعى عمانويل قره صو أفندي].

لتصاريف القدر، إلى أن تلاشى، وقضى نحبه (١٣٢٨هـ-١٩٠٩م)، فكانتْ نهايتُه نهايةً لدورٍ مظلمٍ قامَ فيه الصراعُ قوياً مدةَ ثلث قرن كامل، بين سيدِهِ السلطان عبدالحميد الثاني وأحرار الفكر، انتهى بإعلان الدستور، وظفر الأمة بحريتها السليبة(١).



لقطة تاريخية نادرة للسلطان عبدالحميد لحظة مواجته للماسونيين الأربعة الذين خلعوه عن الخلافة وبينهم: اليهودي قره صو، والأرمني آرام والأرناؤوطي طوبطائي والكرجي حكمت.

---

(١) [«الحركة الأدبية في حلب» (١١٣-١٣٤)].

من شعره الوجـدي

[قوله][1]:

يا غائباً في القلب حاضر ... لمتى.. وأنتَ أحبُّ هاجرْ
أَخفيتَ سِرّك والهوى ... في باطني ما زال ظاهِرْ
ارحَمْ عشيرَك يا حبيـ ... ـباً حسنُه فَتَنَ العشائِرْ
مالي وطرفُك، وهو هـ ... ـذا فاترٌ وعليَّ قادِرْ
فكري بلطفِ جميلِ ذا ... تكَ يا رقيقَ الخَصْرِ حائِرْ
وحياةِ عينكَ لم أَزَلْ ... طولَ الدُّجَى بهواكَ ساهِرْ
أبكى ودَمْعِي ناظمٌ ... دُرَراً ملأْلأَةً وناثِرْ
وإذا نظرتُ ففي جميـ ... ـع البارزاتِ إليك ناظِرْ
أودعتُ شخصَك مهجتي ... وعليه مِنْ رُوحي ستائِرْ
مُذْ صرتَ في قلبي أرا ... كَ عُدِدتُ مِنْ أهلِ البصَائِرْ
قد قرَّحَ الجَفْنَ البُكَا ... رُحماكَ يا نُورَ النواظِرْ

---

(١) الدر المنتظم (١٣٦).

قــاطعتنــي ، وأنـــا وحِقْـ　　ـــكَ غيـرَ هَجْـرِكَ لا أُحـاذِرْ
وَرَمَيْتَنَـــــي بِجَفَـــــاكَ إ　　نَّ جفـاكَ مثـلَ الليـلِ كـافِـرْ
لاحـــظْ ولـــوهـــي إننـــي　　مـا جال لـي بسواك خَاطِرْ
معنـــاكَ قبلـــةُ عيـــنِ روحـ　　ـيَ في المحافِلِ والمحاضِر
أحيَـــا وصـــالُـكَ مهجتـــي　　لكنَّـــه زادُ المســـافِـــرْ
وأذابنـــي هـــذا البعـــا　　د وعنـك قلبـي غيـرُ صـابِـرْ
لكَ مِنْ جميعي نَشْرُ وجـ　　ـدٍ بُـثَّ فـي طـيِّ الضمـائِـرْ
ارفَـــقْ بجســـمٍ هُـــدَّ لا　　كـنْ فـي خفـاه هـواكَ عـامِـر
لا عــــاذلاً يخشـــى ولا　　يسليـــه آنـــاً قـــولُ عـــاذِر
بـــك هـــامَ طـــوراً ســـرُّه　　وأولـو الهيـامِ لهـم سـرائِـرْ
يـــا عـــادلاً بقـــوامِـــه　　وقُليبـــهُ قـــاسٍ وجـــائِـــرْ
هـــوِّنْ عليـك ففجـرُ خَـدْ　　دِك آه تمحـوه الـديـاجِـرْ
هل شُمْتَ ضوءاً لم يكنْ　　لغـلاغـل الظلمـاتِ صـائِـرْ
تُطـوَى الـدفـاتـرُ والمحـا　　بـرُ والمشـاهِـدُ والمظـاهِـرْ
فـارحَـمْ لتُـرْحَـمَ واغتنِـمْ　　أَجْرِي ، وكنْ للكَسْرِ جابِرْ

ومن قصائده الوَجْدِيّـةِ أيضـاً :(١)

مِـــنَ الهَـــوَىٰ آهُ　　والصَّـــــــــــبُّ أوَّاهُ

---

(١) الدر المنتظم (٢٨٢).

أفنى الهوى كُلِّي   والقلبُ يَرْضَاهُ
وَيْلاهُ مِنْ رِيْمٍ   في القَلْبِ مَثْوَاهُ
لم يَشْتَغِلْ فِكْرِي   واللُّبُّ لَوْلاَهُ
يَطِيْبُ لي مَعَنًى   يفِيْدُ ذِكُرَاهُ
والعَيْنُ لم تُبْصِرْ   واللـه إلاهُ
أقامَ في سِرِّي   والرُّوْح مَعْنَاهُ
وَثَغْرُهُ الأَلْمَىٰ   ياما أُحَيْلاهُ
سبحانَ مَنْ فضلاً   بالحُسْنِ حَلاّهُ
كَمْ طَرْفُهُ أَدْمَىٰ   فُؤَادَ مُضّنَاهُ
مَتَى تَرَىٰ عَيْنِي   سنا محيّاه
ويشتفي العاني   بلثمِهِ فاهُ
كَأَنَّهُ بَدْرٌ   في بُرْجِ مَجْلاهُ
آدابُ مُضْنَاهُ   دَلاَلُ عُلْيَاهُ
كم أَوْقَعَتْ فِيْهِ   النِّبَالَ عَيْنَاهُ
يامَنْ غَدَتْ رُوْحِي   بِالوَجْدِ تَرْعَاهُ
وَمَنْ أرى قَصْدِي   في الكَوْنِ رُؤْيَاهُ
لَوْ زارَ في لَيْلٍ   بالنَّوْم مَوْلاه
كَفَاهُ مَعْنَاهُ   أَحْيَتْهُ لُقْيَاهُ
كَمْ مَرَّةٍ دارَتْ   بِنَا حُمَيَّاهُ

مِـــنْ ثَغْـــرِهِ كَـــمْ مِـــنْ ... كَـــأْسٍ شَـــرِبْنـــاهُ
وَسَطْـــرِ أشـــواقٍ ... مِنْـــهُ قَـــرَأْنَـــاهُ
وَكَـــمْ تَـهَـتَّـكْنـــا ... لمّـــا رَأَيْـنَـــاهُ
وَعَـــاذِلٌ بـــاغٍ ... قَـــدْ سـاءَ مَـــرْآهُ
يَلُـــوْمُنَـــا فِيْـــهِ ... لمّـــا عَشِقْنَـــاهُ
قُلْنَـــا لَـــهُ: يـــا مَـــنْ ... طبعـــاً هَجَـــرْنـــاهُ
خَلِّيـــكَ مِـــنَ قـــومٍ ... بِخِلِّهِـــمْ تَـــاهُـــوْا
مـــا لُمْـــتَ لـــو تَـــدرِي ... كـــالقَـــوْمِ حُسْنـــاهُ
فَحُسْنُـــهُ يُحْيِـــي ... بـــاللُّطْـــفِ مَـــوْتـــاهُ
اللهُ مِـــنْ لطـــفٍ ... لاشَـــكَّ سَـــوَّاهُ
آهٍ لِمَعْنَـــــاهُ ... آهٍ لَمْغنَـــــاهُ
آهٍ لِمَجّـــــلاه ... آهٍ لِمَـــــرْآهُ
هَـــوَاهُ أَفْنـــانِـــي ... مِـــنْ الهـــوى آه

ومن شعره أيضاً:(١)

سهرْنا على ذِكْرِ الأحبَّةِ يا هْنِدُ ... فما انكَشَفَ المعنَى ولا أُنْجزَ الوعدُ
نَعُدُّ نُجَوْمَ اللَّيْلِ مِنْ فَرْطِ وَجْدِنا ... ويَعْبَثُ فينا اللَّيْلُ ، والوَجْدُ والعَدُّ
وَنَبْكِي إذا الحَادِي حَدَا بِنُعُوتِهِمْ ... فَيَعْجَبُ إذْ نَبْكي، وَنَعْجَبُ إِذْ يَحْدُوْ

---

(١) الدر المنتظم (٨٢).

وَتأْخُذُنا الأَشْواقُ مِنْ كُلِّ جانبٍ ... فلا طَوْقُنا طَوْقٌ ، ولا جهْدُنَا جهْدُ
فعَسَىٰ نَفْحَاتُ الغَيْبِ تَمْنَحُ باللِّقَا ... وَيَطوِي بِسَاطَ القُرْبِ ما مَدَّهُ البُعْدُ
أحبتَنا! طالَتْ لَيَالِي صُدُوْدِكُمْ ... مَتَىٰ بِصَنِيْعِ الوَصْلِ يَنْدَفِعُ الصَّدُّ؟
تَطَوْفُ بِنَا أَرْوَاحُنَا كُلَ لَحْظَةٍ ... وَيَشْمَلُهَا مِنْ كُلِّ أَطْرَافِهَا الوَجْدُ
تُقَلِّبُكُمْ مِنّا القُلُوْبُ بِسِرِّهَا ... وَيُطْبَعُ فِيْهَا الصِّدْقُ والحُبُّ والوُدُّ
إِذَا سَكَنَتْ مِنْ خَافِقِ الوَجْدِ طرفةٌ ... تكَادُ بِشَرْعِ الحُبِّ تَهْوَي وَتَرْتَدُّ
وَلُطْفُ مَعَانِيْكُمْ وَسَاعاتُ قُرْبِكُمْ ... وكاساتُ وَصْلٍ دُوْنَ لَذَّتِها الشَّهْدُ
سَرَائِرُنا أَنْتُمْ نظَامُ فُنُوْنِهَا ... وفي سِرّها الممدوحِ جَوْهَرُكُمْ فَرْدُ
شَكَوْنَا فَأَبْكَتْنَا الشِّكَايَةُ في الهَوَى ... وَغِبْنَا فلا قَبْلُ سِوَاكُمْ وَلا بَعْدُ
وَطِبْنَا بِكُمْ، وَالكُلَّ أَنْتُمْ، ولم يَكُنْ ... سِوَاكُمْ لَهُ في السِّرِّ أَخْذٌ وَلا رَدُّ
مَتَىٰ يُسْعِفُ السَّعْدُ النَّؤومَ بِوَصْلِكُمْ ... وَيَحصُلُ ما نَهْوَىٰ، وَيَسْتَيْقِظُ السَّعْدُ
وحقُّ الهوى من يوم غابتْ شخوصكم ... فلا غورنا غورٌ ، ولا نَجدُنا نَجْدُ
يحنُّ لَنا الصَّخْرُ الأَصَمُّ تَرحُّماً ... وَيَلْحَظُنَا بِالرَّأفَةِ الحُرُّ والعَبْدُ
أَعِيْدُوا لَنَا بِاللهِ عَادَاتِ بِرِّكُمْ ... وَرِفْقاً بِدَمْعٍ شُقَّ مِنْ سَيْلِهِ الخَدُّ
وَمُنُّوْا عَلَيْنَا بالوَفَا بَعْدَ هَجْرِكُمْ ... فَلَيْسَ لَنَا واللهِ مِنْ دُوْنِكُمْ قَصْدُ
طَوَيْنَا بِلُبِّ السِّرِّ ناراً لأَجْلِكُمْ ... يَذُوْبُ له ـ يا قومَنا ـ الحَجْرُ الصَّلْدُ

*** *** ***

القسم العاشر

أبو الهدى الصيادي

بقلم

أدهم الجندي



أدهم الجندي

أدهم الجندي

(١٣٣٢هـ - ١٣٩٧ = ١٩٠٢هـ - ١٩٧٧م)

هو أدهم بن محمد بن سليمان الجندي الحمصي.

ولد بحمص عام ١٩٠٢، درس في مدرسة حنّا خباز، ثم في كلية الاتحاد الوطني الأهلية الثانوية، ثم دخل دار المعلمين بدمشق.

قام بعدة رحلات، إلى فرنسة، وإيطالية، والولايات المتحدة الأمريكية، والبرازيل.

عمل في عهد الانتداب موظّفاً في محافظة دير الزور، وحلب، وحمص، وحوران.

وفي عهد الاستقلال نُقِلَ إلى الإدارة المركزية في وزارة الداخلية، إلى أصبح رئيس ديوان وزارة الداخلية.

توفي عام ١٩٧٧م.

مؤلفاته:

١ ـ «تاريخ الثورات السورية» صدر في مجلد ضخم.

٢ ـ «أعلام الأدب والفن» أصدر منه مجلدين حافلين.

* * *

أبو الهدى الصيادي

العصامي الجبار ، الذي استولى بذكائه ودهائه على مقدّرات الدولة العثمانية ، أمثولةٌ حيَّـةٌ لكلِّ طموحٌ إلى المجد ، وصفحةٌ مشرقةٌ للعرب.

محمد أبو الهدى الصيادي

لقد أنعمني الحظ أن أكتبَ عن شخصيةٍ كريمةٍ ، طواها التاريخ القريب ، كانت عظيمةَ بأسرارِها الإلهية ، وتومىء حيويةُ صاحبها الكامنة في معترك الحياة إلى أنه سيكون يوماً ما علماً من أعلام التاريخ البارزين.

استولى بحدة ذكائه ، وفصاحة لسانه ، ودهائه الخارق على مقدّرات الدولة العثمانية في عهد السلطانين عبد العزيز وعبد الحميد ، وكانت له الكلمة العليا طيلةَ مدّةِ وجوده في أسمى الوظائف التي تقلدها ، فإذا سألتني أن أصفَ لك عوامِلَ

السحر في نفسه الوثّابة ، وخلابة روحِه ، فقد كلّفتني شططاً ، ذلك هو موضِعُ الإعجاز في مواهبه ، التي سَمَتْ به إلى أَوْجِ العُلا ، على أني أحاول أن أنقُلَ في رسالتي هذه طَرَفاً من أخبارِ هذا العصامي الفذّ وعبقريته الشامخة .

أصله

هو المرحوم محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي ، بن حسن وادي ، ويتصلُ نسبُه بالإمام الرفاعي ، السيد عزّ الدين أحمد الصياد ، ومنه إلى الحسين السِّبْط ، شهيد كربلاء .

ولد في قرية خان شيخون من أعمال قضاء معرّةِ النعمان ، في شهر رمضان سنة (١٢٦٦هـ ـ ١٨٤٧م) وبعد أن تلّقى القرآنَ الكريم ، ومبادىءَ العلم ، سافر إلى بغداد ، والتحقَ هناك بمعاهدها الدينية!! وظهرت عليه علائمُ النبوغ منذ حداثته، حتى إنَّ شاعرَ العراق الأخرس مدحه في عام (١٢٨٣هـ) بقصيدةٍ مطلعُها :

بارقُ الشامِ إلى الكرخِ سَرَى فَرَوى عَنْ أهلِ نَجْدٍ خَبَرَا

إلى المجد

ولما عاد إلى سورية كانت أولُ وظيفةٍ رسمية تولاها هي التوليةُ على خان شيخون ، وذلك سنة (١٣٨٥هـ) وعمره يومئذ

(١٩) سنة ، وكان بعدَ ذلك وكيلُه فيها المرحوم عبد الرحمن بن أحمد آغا الحسن ، حاكم خان شيخون السابق.

وبتاريخ (١١) ربيع الأول سنة (١٢٨٧هـ) وُجِّهت إليه نقابةُ أشرافِ جسر الشغور.

وفي سنة (١٢٨٩هـ) نار رتبة (مولوية أزمير) وهي أول رتبة نالها ، وسنّه يومئذ (٢٣) سنة.

وفي سنة (١٢٩١هـ) عُيِّن نقيبَ أشرافِ عموم ولاية حلب ، وعمره (٢٥) سنة.

وفي سنة (١٢٩٢)هـ عُيِّن لعضويةِ مجلس المعارف ، وعضوية مجلس التدقيقات الإدارية في حلب نفسِها ، مع بقاءِ النقابة وعمره (٣٦) سنة.

وأحسنَ إليه السلطان عبد العزيز بمعاش خاص ، باعتباره من السلالة الرفاعية الطاهرة ، وضُمَّ على معاشه من النقابة ، فكان مجموعُ معاشه الشهري يومئذ ثلاثةَ آلافٍ وستمئة قرشٍ ذهبي ، وهو مبلغٌ ضخمٌ بالنسبة لذلك العهد .

وفي أواخر هذه السنة فوّضَ له نقيبُ أشراف دار الخلافة النظرَ إلى نقباء أشراف ولايات سورية ، وديار بكر ، وبغداد ، والبصرة.

وفي سنة (١٢٩٣هـ) فوّضَ له نقيبُ الأشراف في دار الخلافة أن يعطي هو بنفسه منشورَ النقابة لجميع النقباء في ولاية حلب .

وعَيَّنه الصَّدْر الأعظم يومئذٍ رئيساً لمجلس الهيئة (القومسيون) الخصوصي ، الذي تألّف لحسم المنازعات الزراعية الواقعة بين الزراع وبين الملاكين من الأكابر والأعيان .

سفره إلى الآستانة

وفي سنة (١٢٩٤)هـ وُجّهت إليه باية الحرمين الشريفين ، ودُعي لشرف الحضور لمقابلة السلطان عبد العزيز وسنه (٢٨) سنة ، وأغدق عليه نعمته ، ثم استأذنه في السفرِ ، فمنعه ، ونصّبه رئيساً لمجلس المشايخ .

وفي أواخر سنة (١٢٩٤هـ) توفيت والدتُه ، فاستأذن بالسفر ، وعاد إلى حلب ، وبعد إقامته فيها دونَ الأربعة أشهر صدرت الإرادة السنية البرقية إلى والي حلب بتوجيهه إلى دار السعادة معزَّزاً مكرَّماً .

ولما عاد إلى دار الخلافة أنزله السلطان ضيفاً في منزل عثمان بك السرّ قرناء ، وبعد مدة يسيرة خُصّصت له بنايةٌ فخمة ، وأمره الخليفة بإحضار عائلته ، وأبلغَ الوالي برقياً بذلك ، وأجرى له المرتَّبات العظيمة .

وفي سنة (١٢٩٦هـ) وُجّهت إليه باية إستنابول الرفيعة مع النيشان المجيدي، وفي أواخرها وُجّهت إليه رتبة قضاء عسكر الأناضول، والنيشان المجيدي الأول، وله من العمر يومئذ (٣١) سنة.

وفي سنة (١٢٩٩هـ) زيدت مرتباته إلى الضعف دفعةً واحدةً بإرادة سلطانية.

وفي سنة (١٣٠٠هـ) وُظِّفَ للنظارة على إقراء الأمراء من العائلة المالكة أركانَ العلومِ الشريفة الشرعية.

وفي سنة (١٣٠١هـ) أُمر بتأليف بعض كتبٍ شرعيةٍ، فنسجَها على أحسنِ منوال.

وفي سنة (١٣٠٢هـ) أُنعم عليه برتبة قضاء عسكر الروملي، وهي منتهى المراتب العلمية، وحاملها يعدُّ من الصدور العظام في الدولة العثمانية.

وفي سنة (١٣٠٥هـ) أمره الخليفة الأعظم بتلاوةِ «شرح العقائد» بحضوره بصورة خاصة[1].

---

(١) [هذه الترجمة مأخوذة عن ترجمة الصيادي التي كتبها بنفسه انظرها ص (٢١ ـ ٣٠)].

اجتماعه بالسلاطين

لقد سافر إلى الآستانة ثلاثَ مرّات ، منها مرتين في عهد السلطان عبد العزيز ، والثالثةُ في أول عهد السلطان عبد الحميد ، واتصل به شخصياً فأصبحَ من أقرب المقرَّبين إليه ، وبدأ نجمه يسطع ، ونفوذه يقوى .

إنَّ حياة هذا العظيم سِفْر جليلٌ ، لا تخلو صفحة من صفحاته من المثل العليا ، وكان الوحيدَ الذي يجرؤ على مصارحة السلطان بكلِّ الحقائق ، ومن أكبرِ المطالبين بالإصلاحات في البلاد العربية ، ومزيته أنه كان ناصحاً مخلصاً .

عبقريته

كان عصامياً خلقَ نفسَه(١) بمواهبه الفذّة ، فالعبقريةُ في سمّوها غيرُ مشاعةٍ ، ووقفاً على الخاصة دون العامة ، وإنّي أحيي فيه العبقرية المتوثِّبة للعلا ، ولو لم يكن هذا الرجلُ العجيبُ زعيماً دينياً لكانَ في مقدورِه أنْ يكونَ زعيماً سياسياً موفقاً .

---

(١) [لا يخفى ما في هذا التعبير!!].

صفاته

كان فصيحَ اللسانِ ، قويَّ الحجةِ ، ثابتَ الجَنَانِ ، حاضرَ البديهةِ ، يفرضُ عليك أن تهابَه وتحترمَه ، وإنْ كنتَ مِنْ أخصامه الألدّاء ، يودُّ أن يكون أصدقاؤه مخلصينَ له في صداقتهم ، فإذا أحبَّ إنساناً لم يبغضه إلا إذا خَانَه ، كان يعرفُ كيف يحبُّ ، وكيف يبغِضُ ، **فقد كان حبُّه من الشَّهْد المصفَّى ، وبغضُه سماً زُعافاً** ، يتحدَّثُ إلى زائريه مبدياً عظيمَ اهتمامه بشؤونهم ، تزخر أحاديثُه بالحكمة الراجحة ، والبحثِ الطريف ، في ابتسامتِه سحرٌ يجتذِبُ أفئدة الناس ، ويجعلُهم أسرى الولاء له.

إذْ لا يفيدُ الشَّمْسَ كثرةُ مَدْحِهَا والـدُّرُّ لا يَغْلُـوْ بِنَظْـمِ الشّـادِي

عطفه وكرمه

ومن أبرز أعماله أنّه كان رحمه الله من أعظم المناصرين للعرب كافة ، وما قَصَدَهُ أحدٌ من أبناء البلاد العربية إلا آزَرَهُ ، ولبَّى حاجته.

ومن مآثره المشهورة أنه حمى بنفوذه كتّاب العرب والأدباء كالمرحومين توفيق البكري ، والمويلحي ، والرصافي ، والزهاوي وغيرهم .

وما حضر أحدٌ من طلّاب العربِ إلى الآستانة إلا قصدَ داره ، وفي مقدمتهم الزعيمُ الكبير المرحوم إبراهيم هنانو[1] ، حين ذهبَ إليها للدراسة .

كان للعربِ أباً رحيماً ، يبذُلُ جهودَه ونفوذَه لخيرهم ، لا يكترثُ لبهرجةِ السلطانِ ، ونشوةِ الجاه ، والاعتزازِ بحطامها وزخرفها ، ولم يشغله عَرَضُ الدنيا عن أهله ، والعطف على ذوي الرحم ، ولم تَأْخُذْ عليه الأنانيةُ مسالكَ الشفقة ، فقد أحاطهم بعونِه ، وحماهم من براثن البؤس والفاقة ، وكان هذا البر يمتدّ إلى أبعد من حدود ذوي القربى ، فكان يساعِدُ عائلات كثيرة ، قلبَ لها الدهرُ ظهرَ المِجنّ ، ولو بحثنا عن الذين قصدوه في المطالب والحاجات ، لتعذَّرَ علينا إحصاؤهم ، لأنّه كان في كل وقت رهن إشارة الراغبين في الاستعانة بنفوذه ووفائه ، ويعرف الجميعُ أنّه ليس بالرجل الغني ، فإن مخصَّصَاته من الرواتب كان يصرفها على دار الضيافة ، حتى إنّه اضطر وهو في أوْج مَجْده إلى رهن حلي عائلته ، لتلبيةِ حاجاتِ قاصديه .

---

(١) [إبراهيم هنانو (١٢٨٦ ـ ١٣٥٤هـ = ١٨٦٩ ـ ١٩٣٥م) من كبار المجاهدين السوريين في عهد الانتداب الفرنسي ، كردي الأصل ، تخرج من المدرسة الملكية بالآستانة انظر «الأعلام» (١ : ٤١)] .

مؤلفاته

إنَّ مؤلفاتُه كثيرة ، لا يتَّسع ذكرُها في هذا الحديث ، وأهمها:

١ ـ كتاب «نفحة الرحمن في تفسير القرآن» .

٢ ـ و«المجد المخلد في أسرار اسم محمد» .

٣ ـ و«الروض البسَّام في أشهر البطون القرشية في الشام» .

٤ ـ وديوان «الفيض المحمدي والمدد الأحمدي» .

٥ ـ والديوان الثاني المسمى «التبيان الجامع بين الحكمة والبيان» .

٦ ـ والديوان الثالث المسى «براهين الحكم» = [الدر المنتظم] .

٧ ـ والديوان الرابع المسمى «مرآة الشهود في مدح سلطان الوجود» .

٨ ـ و«بهجة الزمان في مآثر السلطان عبد الحميد خان» .

وغيرها من المؤلّفات والمرسلات الأدبية الرائعة ، والتعليقات الصوفية الفريدة ، وكان شاعراً بليغاً في اللغتين التركية والفارسية !!

لقد درس على أفحل العلماء في العراق ، وتلقّى علومَ اللغة والمنطق والبيان على أستاذه محمد مهدي الروَّاس الصيَّادي ، واختلف الناس بأمره ، فزعم حُسَّاده بأنّه كان يكلِّف الشعراءَ بنظم الشعر بالمناسبات التي يراها ، ويدَّعيه لنفسه ، وهذا غيرُ معقول ، ولا يرضى به أي شاعر ، مهما بلغت به الفاقة أن يتخلّى عن عبقريته وإنتاج قريحتِهِ مهما كان الثمن .

على أنَّ الواقعيةَ التي اتَّسَمَتْ بها مؤلفاته تتضمن كثيراً من مناحٍ شتّى من الفلسفة الصوفية ، التي يعزُّ على بعض الشعراء التكلُّف بتقليدها .

وقد سَبَق أن اتَّهم الحسَّاد المرحوم النابغة الشيخ عبد الغني النابلسي بعجزِهِ عن نظم الشعر ، فأفحمهم ببدائعه الفريدة .

واستطاعَ الإمام الأكبر المرحوم الشيخ محمد عبده أن يتعلّم اللغة الفرنسية في بضعة أشهر .

والمفروض أنه ليس بالعسير على من خلق نفسه بمواهبه وعصاميته ، وبلغت به العبقرية هذا الحد أن يمتلك ناصية اللغة ، ويبرز في التأليف ونظم الشعر ، فدواوينُه المطبوعة كالأزاهير المونقة ، قرّظها علماءُ الأزهر في حينه ، وهي تشهدُ له بالبلاغة الفائقة ، والنبوغ الفكري .

ومن شعره الجيد في الغزل تشطيره قصيدة (سلو حُمرةَ الخدين عن مهجة الصب) ومنها قولُه:

لا تنكروا لَحْظَ العيونِ فإنّه | له مسّةٌ - أيْ والهوى - مَسَّةُ العَضْبِ
فلا تعجبوا إن قلتُ: عضبٌ، فمسُّه | لسيفٌ إلى قلبي وسحرٌ إلى لبي

فنه

كان عليماً في الفن الموسيقى، وفي ضروب الإيقاع، حافظاً الشيءَ الكثير من الموشّحات والقدود الفريدة، وقد برع في نظم القصائد والموشحات وتلحينها، وكلُّها صوفيةٌ، كانت تُنْشَدُ في حلقة الذكر من أرفع المنشدين، وأسحرهم صوتاً، وهو المرحوم عبد الخالق عَبّارة الحمصي، وكانتْ حلقةُ الذكر تقام في زاويته الفخمة مرةً في الأسبوع، وكان يلذُّ للأمراءِ والوزراء والعظماء التقرّبُ منه، وكسبُ رضاه، والتملّي بطلعته الرفاعية المهيبة، ويجلِسُ في السُّدّةِ المشبّكة وحدَه، فيرى غيرَه ولا يراه الآخرون، وفي المشهد الأخير كان ينزِلُ من السدة، ويدور في حلقة الذكر لمشاهدةِ الذاكرين، كأنّه يستعرضهم، وينقرُ على المزهر نقراً يهز المشاعر، بينما ينشد المرحوم عبد الخالق بصوته الشجي الساحر:

جـاءَ النَّسيـمُ بعطـرٍ مِـنْ محـاضِـرِكُـم
فغـابَ قلبي لفـرطِ الـوَجْـدِ مُـذْ حَضَـرَا
نـاحَ الحمـامُ لنَـوحِـي فـي محبّتِكُـمْ
عطفـاً فطـوّقتُـه مـن أَدمُعِـي دُرَرَا

فيبلغ بالسامعين الشجوُ والتأثرُ إلى حد البكاء والنشيج، فكان المترجَم رحمه الله يتقدَّم إلى المنشد، ويمرُّ بيده الكريمة على كتفه دليلَ العطف والتقدير، ويقول له: انعشتَ الأرواح يا عبدو، سلمك الله.

أحواله الخاصة

ومع أنه بلَغ ذِروةَ المجد والصفاء، فإنَّ الدهرَ قد صبَّ عليه مصائبه المتتابعة، وعكّرَ صفوه، ومع هذا فكان تقياً صابراً، فقد توفي والدُه وشقيقه نور الدين، وشقيقتُه خالدية، وولدُه سراج الدين، المدفون بجانب عمّته في إستانبول رحمهم الله، وزاد في تأثّره سفرُ ولده المرحوم حسن خالد إلى اليمن، فاستوحشَ لفراقه، وجادت قريحتُه بأروع الشعر الصوفي، ومما قاله في ذلك:

قلبي تُصَدِّعُه الهمومُ وحظُّهُ كـدَرٌ مِـنَ الأعـداءِ والأحبـابِ
نشرتْ به الأحزانُ طياً كلّه غصصٌ لها دمعي كسيلِ سَحابِ

هيهاتَ يصفو مَنْ يكدِّرُ صفْوَهُ   روحٌ تَحِنُّ بعودةِ الغُيَّابِ

ولما عاد ولده من اليمن ، ـ وهي منطقة خطرة كما هو معلوم ـ صفا بالُه ، وعاش قريرَ العين ، لا يعكّره إلا إيقاعُ الحسَّاد به ، فكان كالجبلِ الرّاسي ، لا تناله العواصف.

حساده

ولعظم آماله لا تناله الحادثات ، ويتحدّث فيه الحاسدون فيقول لهم :

عجبتُ لأنذالٍ أساؤوا محسَّداً
كريماً غدا ينحطُّ عن مجدِه البَدْرُ
ومحسودُهم ما زالَ في ذِروةِ العُلا
عليه من الألطافِ رَغماً لهم سَتْرُ
لقد قَصَدوا خَزْلَ المعاني وإنه
له مِنْ يدِ المولى على رَغْمِهم نَصْرُ

ثم ازدادوا في غيهم فقال :

أسدٌ ينامُ على الصّعيدِ سُوَيْكِتاً   وكِلابُ وَجْرَةَ تَسْتَزِيْدُ نُباحَها
فمذِ استقرَّ وقامَ يَزْأَرُ أدبرتْ   سوْدُ الكِلابِ فما سمعتُ صِياحَها
وتوسَّدَتْ في كلِّ جرفٍ حفرةً   بالذّلِّ ترجُفُ ليلَها وصباحَها

مصاهرته للعوائل العريقة

لقد تشرَّفت العوائل العريقة بمصاهرته ، ففي سنة (١٢٨٧هـ) صاهر العائلة القيصرية المشاهير ، وفي سنة (١٢٨٩هـ) صاهر العائلة البدرخانية ، وفي سنة (١٢٩٤هـ) صاهر العائلة الكيلانية في حماه ، وفي سنة (١٣١٥هـ) صاهر العائلة الحراكية في معرّة النعمان .

وازدهرت الطريقة الرفاعية بعهده ، وشيَّد السلطانُ ضريحَ القطب الرفاعي على نفقته الخاصة ، وهي أكثر الطرق انتشاراً حتى الآن .

حليته

كان رحمه الله أنيق المظهر ، طويل القامة من غير إفراط ، بديناً باعتدال ، قمحي اللون ، عظيم الرأس ، كبير العينين ، أسود الشعر واللحية ، ببياض قليل ، عظيم الهيبة والوقار ، وهو أسدٌ بصورة إنسان .

مرضه

لم يسمح رحمه الله لأحد طيلةَ حياته بأخذ صورته الغرَّاء لزهده في المظاهر [١] ، ومبادئه الصوفية التي كان شديدَ التمسك بها ، وقد نسبوا له بعض الصور ولكنّها ليست حقيقة .

---

(١) [أثبت للشيخ صورتين ، إحداهما في شبابه ، والأخرى في كهولته] .

كان يشكو مرضَ القلب قبل النكبات الواقعة بأشهر عديدة ، وكان لا يقوى على مغادرة البيت بسبب هذا المرض عند إعلان الدستور ، وقد أشاعَ بعضُ أخصامه في ذلك العهد أنّه يريد مغادرةَ البلاد العثمانية ، والالتجاء إلى بلاد أخرى ، فأعلن رحمه الله على صفحات الجرائد كلمة بعنوان «الخائِنُ الخائفُ» أوضحَ فيها أنه لا يخاف الحساب ، وأنه باقٍ تحت تصرُّف السلطان ، ليحاسَبَ فيما إذا كان عليه شيءٌ ، وقد أُوقف فعلاً مع ولده المرحوم حسن خالد مدةً قصيرة ، ثم أُخلي سبيلهما ، نظراً لبرائتهما التي ثبتت بشكل قاطع ، وعندئذٍ انتقل من منزله المعروف في بشكطاش في قلب الآستانة ، إلى منزلٍ للاصطياف بجزيرة الأمراء الشهيرة ، وهناك ازداد مرضه ، وأصيب بالاستسقاء ، وعانى آلاماً شديدة ، وبقي مالكاً لجميع حواسِّه ، ومحافظاً على معنوياته ورباطة جأشه بصورة تفوق حدَّ التصور ، وقد روي صدقُ ذلك من زاروه ، وقُبيل وفاته بأيام قلائل زاره وفدٌ من أبناء العرب ، فنسي مرضَه ، وأخذ يفسّرُ الآية الكريمة ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] تفسيراً مطولاً بليغاً.

وفاتــه

وبعد إعلان الدستور العثماني الشهير في عام (١٩٠٨م) ، وقبل نزول السلطان عبد الحميد عن العرش بمدةٍ وجيزةٍ فاضت

روحُه الطاهرة ، وانتقلَ هذا الجبلُ الأشمُّ من عالم الفَنَاء إلى دار الخلود ، وانطوتْ أنبلُ وأمجدُ صفحةٍ من التاريخ القريب ، ودُفِنَ في زاويته التي كانت بجوار منزله في بشكطاش باحتفالٍ عظيم ، اشتركتْ فيه جميعُ السلطات الحاكمة.

وفي عام (١٩٣٧م) نُقَل رفاتُه إلى حلب ، ودُفن في الزاوية الصيَّادية إلى جانب المرحوم والده.

وأعقَب من الأولاد المرحوم حسن خالد ، الذي تقلَّد أسمى المناصب ، وقد توفي بنهاية عام (١٩٣٨) وسراج الدين ، وقد توفي في حياة والده ، ودفن في إستانبول ، وثلاث إناث وقد توفين أيضاً ، ولم يبقَ من ذرية المترجَم إلا حفيدُه صاحب السماحة تاج الدين الصيادي نقيبُ السادة الأشراف وأولاده ، وقد وَرِثَ شمائِلَ جدِّه العظيم ، وبعد وفاته غادرت أسرتُه البلادَ العثمانية إلى مصر ، وإلى بلاد أخرى ، ولم يبق من منقولاته النفيسة الموروثة إلا النزر اليسير من مكتبته ، التي تحتوي على نفائس الكتب المخطوطة والمطبوعة ، طيَّبَ الله ثراه ، وسَلاَم عليه بين الأبرار والصَّالحين[1].

* * *

---

(١) أعلام الأدب والفن (١ : ٣١٠ ـ ٣١٣).

القسم الحادي عشر

طرائف وأخبار

عَنْ أبي الهدى الصَّيَّادي



محمد راغب بن السيد محمود بن الشيخ هاشم الطباخ
الحلبي عفي عنه

١ ـ قال الأستاذ إبراهيم المويلحي[١] في «مصباح الشرق» بتاريخ ٢٤مايو سنة ١٩٠١ :

لما سافر المرحوم عبده الحمولي في سنة (١٨٩٦) إلى الآستانة العلية ، وحظي هناك بالمثول في الحضور الشاهاني مراراً، وأُعجبَ أميرُ المؤمنين[٢] بمهارته في فنه، وحسن تأديته له، فأسنى عطيته، وبلّغه حسن رضائه. وكان الواسطة بينهما للتبليغ في ذلك المجلس سماحة السيد أبي الهدى الصيادي، ومما تلقَّاه من أوامر أمير المؤمنين أن يلقِّنَ ما غناه في حضرته من الأصوات لبعض ضباط الموسيقى الشاهانية، فلقنَ المرحومُ منه ما أمكنه، ولم يسع الوقتُ تمامَ القيام بالأمر، ووعد أنه سيشتغل عند عودته إلى مصر بربط تلك الأصوات برابطة «النوطة» ثم يعرضها على الأعتاب، ليسهلَ أخذُها على ضباط الموسيقىٰ .

وأهمل المرحوم مدة وجوده في الآستانة التردد على سماحة السيد أبي الهدى الصيادي، واجتمع ببعض المتزاحمين معه على الأعتاب الشاهانية، ورغب كل واحد منهم أن يكون له الحظوة

---

(١) [تقدمت ترجمته ص (٨٩)] .

(٢) [السلطان عبد الحميد الثاني] .

بتقديم تلك الأغاني والأصوات عند عودة الحمولي إلى مصر، وإرسالها إلى الآستانة.

فلما أتمها عشرين صوتاً (دوراً) مربوطة بالنوطة، تردد في كيفية إرسالها، وخشي أن يُغضب أحدهم باختيار سواه عليه في تقديمها، فامتنع عن إرسالها لهم جميعاً، وأرسلها من طريق رسمي، **فأسرّها له السيد أبو الهدى في نفسه**.

ولما ذهب إلى الآستانة، وقابل من قابل مزوداً بالآمال، لم يشعر هناك، وهو في مجلس أنس لبعض كبار المصريين من أصدقائه في جهة البوغاز، إلا وقد أحاط به رجالُ الشرطة، فسار معهم، وصاروا ينقلون هذا ـ الذي لم ينتقل في عمره من مجلس أنس إلا إلى مجلس سرور ـ طول ليلته من مخفر إلى مخفر، ومن سجن إلى سجن، حتى وصلوا به إلى مأمور الضابطة، فأمره بالخروج حالاً من دار الخلافة.

وعلم المرحومُ (الحمولي) مما سمعه من بعض الأعوان الحلبيين من ذكر السيد أبي الهدى، ووجوبُ السعي في دوام رضائه، وأن الأمرَ مقصودٌ لمجازاته على إهمال أمر سماحته، فلم يلتفتْ إلى غيرِ المبادرة إلى إجابة الأمر بالرحيل عن الآستانة، فأثرتْ فيه هذه الحالة، وعاد إلى مصر مصاباً بداء البول السكري، فأنهك قواه.

٢ ـ كان السلطان عبد الحميد يعرّج أثناء ذهابه إلى صلاة الجمعة لزيارة درويش في زاوية، فأثارت هذه الزيارة حفيظة السيد أبي الهدى الصيادي، وخشي أن تتطور العلاقة بين الدرويش والسلطان فتأثر على مكانته، فأوعز إلى قلم السفارة العثمانية في برلين، ليبعث بتقرير سري إلى السلطان يحذره فيه من وجود قنبلة في زاوية هذا الدرويش، فأمر السلطان بكبس الزاوية، وفتشت، ولم يعثروا فيها على شيء، إلا أن السلطان لكثرة وساوسه لم يعد إلى زيارة هذا الدرويش، وتم لأبي الهدى ما أراد.

٣ ـ كان عبد الغني الطرابلسي صفيَّ أبي الهدى، ثم تهاجرا، فلجأ إلى عزة العابد، وباح له من أسرار الشيخ بما لا تستقيم له هذه السطور، واضطر بعد ذلك إلى مصالحة أستاذه، وطلب الإذن له بالذهاب إلى الحج، فأذن له السيد [أبي الهدى]، ودس له من رماه برصاصة ذهبت بحياته [١].

٤ ـ قال مؤرخ حلب العلامة الشيخ محمد راغب الطباخ [٢]

---

(١) [المعلوم والمجهول (١ : ١٤٧)].

(٢) محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي (١٢٩٢ ـ ١٣٧٠هـ = ١٨٧٧ ـ ١٩٥١م) مؤرخ حلب، ومن كبار فضلائها، مولده ووفاته بها، تعلّم في إحدى مدارسها الابتدائية، ثم قرأ على علمائها، فحفظ =

عن أبي الهدى الصيادي: ومن أكاذيبه ما قاله في كتابه «قلادة الجواهر» في ترجمة أبيه الشيخ حسن وادي من أنه تلقى الطريقة الرفاعية على الشيخ رجب الصيادي، دفين كفر سجنى، وأقامه عنه خليفة، فجلس على السجادة الرفاعية بزاويته في قصبة خان شيخون، الملحقة بمعرة النعمان، واشتهر أمره، وسار في البلاد ذكره، وانتسب له خلق كثير من القبائل والقرى والمدن، وانتفع به جماعة كثيرة، وله مناقب مأثورة، وعنايات مشهورة. ثم ساق له عدة كرامات، ووصفه بالسيد الجليل الفاضل الأصيل، [ثم قال]: وأما سخاؤه، وكرم طبعه، ففي نواحيهم أشهر من أن يذكر، وأما علو مظهره، وتأييد ظهوره، فهي أشهر من نار على عَلَم، [ثم قال]: وانتسب إليه خلق لا يحصى عددهم، وزاد خلفاؤه على المئة خليفة. سكن حلب الشهباء من سنين يسيرة، وعمَّر الزاوية الرفاعية فيها، وعلت شهرتُه في

= كثيراً من المتون، فتأدب وتفقَّه، واشتغل بالتجارة، ثم أنشأ المطبعة العلمية سنة (١٣٤١) هـ، وكتب كثيراً في الصحف والمجلات، لا سيما مجلة «المجمع العلمي العربي». وكان من أعضائه، درَّس في الكلية الشرعية بحلب ثم صار مديراً لها.

من مؤلفاته: «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» (٧) مجلدات، وهو أشهر كتبه، و«الثقافة الإسلامية»، وغير ذلك من الرسائل التعليمية، وحقق عدة كتب نشرها في مطبعته.

حلب الشهباء ونواحيها ، وحسن فيه اعتقاد الناس. ثم ساق بعد ذلك نسبه إلى الإمام الحسين رضي الله عنه. وترجمه بنحو ذلك في كتابه «تنوير الأبصار» ، وربما يكون ترجمه في غير كتاب من كتبه.

وجميع ما وصفه به ولده من العلم والفضل ، وما نسبه إليه من الكرامات ، وخوارق العادات ، وسخاء الطبع **لا أصل له ، وهو محض افتراء** ، فوالدُه لم يكن سوى رجل من البسطاء المغفلين ، أُثِرَ عنه في تغفُّلِه عدةُ حكايات ، وليس فيه ميزة علم ، ولا سمةُ فضل.

وحقيقة أمره أنه لما نشأ ولده أبو الهدى أفندي ، وعلا أمره ، وذاع في الناس صيته ، استحضره إلى الآستانة ، وألبسه العمامةَ الخضراء ، التي هي شعارُ السادة الرفاعية ، وصار يعظِّمُ شأنه لدى سكان الآستانة ، وينسبُ إليه ما شاء من الفضل والكرامات والأحوال [1] ، ليصطاد بذلك حطامَ الدنيا ، **وهو ممن برع في ذلك جداً** ، وأنشأ له زاويةً في حلب ، في محلة باب الأحمر ، سنة ثمان وتسعين ومئتين وألف.

ثم إن ولده أرسله إلى حلب قبيل سنة (١٣١١) هـ فقطن في

---

(١) مثل كرامة أكل الخيار انظر ص (٨٩) من هذا الكتاب.

دار ملاصقة للزاوية ، إلى أن توفي سنة (١٣١٢) هـ فدفن في قبلية الزاوية ، على الطرف الأيمن ، وعمر له ضريح فخيم يخاله الناظر إليه أنه أحد أكابر الأولياء!! أو من أعاظم العلماء!!

ومدح وقتئذ من بعض المنافقين بعدة قصائد ، تقرباً من قلب ولده ، ووصفوه بأنه ممن نال درجة القطبية والغوثية!! وحقيقة ترجمته ما قدمناه[١].

وزاد الشيخ أبو الهدى في الطنبور نغمةً أنه طبعَ عِدَّة كتب نسبها لبعض المتقدمين[٢]، ولشيخه الشيخ مهدي الرواس ، الذي لا وجود له إلا في مخيلته ، ولذا لم ننقل عن كتبه في تاريخنا سوى ما نقلناه هنا ، مع التنبيه على ما فيه ، وسوى مكانين آخرين أو ثلاثة ، نقلنا عنه سطوراً قلائلَ ، علمنا صِحَّتها بمشافهةِ بعض من نثق به.

ولا ريبَ أنَّ في إقدامِه على هذه المفتريات ، ووضعِه لهذه الأكاذيب جرأةً عظيمة ، وإنا ـ وأيم الله ـ لنأسَفُ على ذكائه المفرط ، وسعة مداركه ، وفضله الجم ، وما أوتيه من واسع الجاه ، ورفيع المكانة لدى السلطان عبد الحميد ، أن يصرِفَ

---

(١) وهذا موافق لما ذكره العلامة الثقة الجليل الأستاذ محمد سليم الجندي في ترجمته لأبي الهدى ص (١٥٨) من هذا الكتاب.
(٢) انظر ص (١٧٠) من هذا الكتاب.

ذلك في ترويج بضاعته ، ونفاقِ سلعته ، بحيث قضت أحوالُه وأطوارُه أن يسيءَ الناسُ الاعتقاد بمن تقدم ، ويقيسوا الحاضِرَ على الغائبَ.

ولو كان صرف عنايته إلى إصلاح الأمة الإسلامية ولمِّ شعثها ، ـ وإنه (والحق يقال) ممن توفّرت لديه الأسباب ، وتمهّدت له السبل ، ومدتْ له السعادةُ يدَها ، وانقادت له أزمتها ـ لأتى في ذلك بالآياتِ البيناتِ ، ولحُمِدَت سيرتُه في دنياه ، وجُوزي بالحسنى في أخراه ، وخلَّد له في بطون الأسفار ذكرى حسنةً تتناقلها الأجيال ، ولا يمحوها مرور الأيام والليال[1].

٥ ـ ذكر الشيخ أبو الهدى في «تنوير الأبصار» أن السيد أبا بكر الرفاعي ، الجد الأعلى للشيخ علي بن خير الله الرفاعي ، كان نزل قرية متكين من عمل المعرة ، ثم لما نزل السيد حسين برهان الدين الخزامي الصيادي قبيلةَ بني خالد ، واشتُهِرَ أمرُه ، انتسبَ إليه السيد أبو بكر ، وزوّجه ابنتَه ، وكان يرسله إلى مريديه ، الذين في الأقطار السائرة ، وكان كثيراً ما يتردَّدُ لأطرافِ حلب ، ويمكثُ أحياناً في قرية بَلِّيْـرَمُون من

---

(١) «إعلام النبلاء» (٧: ٣٣٠ ـ ٣٣١).

أعمال حلب ، ففي سنة وفاة شيخه وعمه، ألحَّ على الشيخ أبي بكر مريدوه ، فنقلوه من القبيلة الخالدية إلى قريتهم ، وبنوا له بيتاً وزاويةً ، وأقام فيهم يرشدهم إلى سنة ستين ومئة وألف ، ففيها سافر إلى ديار الشام ، فتوفي في جبل بيروت ، فبنوا عليه قبة عظيمة .

ومات عن ولدين ، هما السيد خير الله ، والسيد سيف الدين ، أما الثاني فلم نعلم أنَّ له عقباً .

وأما السيد خير الله فإنه اشتهر اشتهار الشمس في رابعة النهار ، وخلّف الكثير من المشايخ (ذكر منهم جملة) ، وأقامَ في الزاوية التي بناها والده في قرية بَـلِّيرمون ، فلما اشتهر أمرُه في حلب ، أجمع رأي إخوانه وأتباعه على نقله بعياله إلى حلب ، فوافقهم السيد خير الله ، وانتقل بأهله إليها (وهنا ساق الشيخ أبو الهدى حكاية العلمين بين المترجم وبين بعض مشايخ السعدية في حلب ، **وهي حكايةٌ لا صحة لها ، ولا ريب أنّها من الخرافات التي يتناقلها الجهلة ، ويتحدثون بها في مجالسهم** ، (ثم قال): وكانت وفاته سنة اثنتين وسبعين ومئة وألف ، ودفن عند أبيه بالمدفن المبارك المعروف بمدفن الشيخ العرابي[١] .

---

(١) قبل ذلك بقليل ذكر أن والده دفن في بيروت من أرض الشام ، وهنا =

وأعقب السيد محمداً ، وقد خلَّفه في مشيخة الشيوخ ، ولمَّا مات دفن في مدفن العرابي أيضاً .

وأعقب السيد خير الله الثاني ، فخلفه في المشيخة إلى أن مات ، وخلّف ولدين: السيد علي والسيد محمد ، فالسيد محمد لا عقبَ له من الذكور ، والسيد علي هو المترجَم. اهـ[1].

٦ ـ الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي مع اعترافنا بفضله ووفور ذكائه ليس بثقة ، فلا يعتمد على التراجم والأنساب التي ذكرها في مؤلفاته إذا انفردَ بها ، فإنّ فيها أكاذيبَ كثيرة ، وأموراً واهية ، ولعمري إنه لو كان في زمن تدوين الحديث النبوي لَعُدَّ في مقدمة الوضاعين.

منها قوله : إن السيد أبا بكر جد المترجم السيد علي خير الله نزل قرية متكين ، فهذا لا أصل له ، فإن أصلَ هذه العائلة من كفرطاب ، ثم انتقلوا منها إلى جهة العمق ، لقحطٍ أصابهم ، ثم

= قال : إنه دفن بمدفن العرابي ، وهذا المدفن في حلب ، وهذا من جملة تناقضات الشيخ أبي الهدى!!

(١) [«إعلام النبلاء» (٧: ٣٢٨ ـ ٣٢٩)] .

انتقلوا منها إلى قرية بَلِّيرمون من أعمال حلب، وبها ولد المترجَم.

ومنها قوله (إن السيد أبا بكر لما نزل السيد حسين الخزامي الصيادي انتسب إليه، وزوَّجه ابنته) **فهذا لا أصل له أيضاً**، وقصد الشيخ أبو الهدى بذلك أن يجعلَ بين أجدادِه وبين هذه العائلة نسبةً، ولا أثر لذلك.

ومنها قوله في حق المترجَم: (إنّه ممن اشتهر أمره وعلا شأنه، وتواترت بالديار الحلبية كراماته، وكانت له أحوال قدسية، وكلمات شريفة، وإنه انقادت له قلوبُ العامة والخاصة، وروى له الجم الغفير الكرامات الكثيرة) **فكل ذلك محض افتراء، لا أصل له، كما تحققتهُ من العارفين الثقات من أهل تلك المحلات.**

نعم كان رجلاً صالحاً، نبيهاً شهماً، ذا مروءة وفتوة، له ميل عظيم إلى قضاء حوائج الناس، ونفع الكثير منهم بواسطة ذلك، ودوداً متواضعاً، بعيداً عن حب الشهرة والظهور(١).

٧ ـ اشتد غضب الصيادي على آل بدر خان إلا اثنين منهم، وهما بدري بك، وعثمان باشا، فسلّط على علي شامل بك

---

(١) [«إعلام النبلاء» (٧: ٣٢٩ ـ ٣٣٠)].

البدرخاني جماعةً من الحمالين ، هاجموه ذات يوم ، ولكنّه أدخلَ يده في جيبيه ، فأخرج مسدساً كان معه ، ورمى به في الهواء ثلاثَ رمياتٍ ، فأسرع البوليس إلى المكان الذي دَوَّتْ منه الرصاصات ، وقبضوا على المعتدين ، واستاقوهم إلى نظارة الضابطة ، وخلَّص الله البدرخاني من أعدائه .

وأراد علي شامل باشا ـ وهو أيضاً من كبارِ أولاد بدرخان[1] الشهير ـ أن يعاقِبَ أخاه عثمان باشا على صداقته للصيادي ، فقابله في يومٍ من أيام رمضان إحدى السنين ، وهو خارجٌ من الجامع ، فضربَ علي شامل أخاه ضربةً على وجهه هشمت أنفَه ، ووقع على الأرضِ صريعاً ، فنقلوه إلى البيت[2] .

٨ ـ لعلي شامل باشا البدرخاني واقعة أخرى ، فقد التقى يوماً بحسن خالد الصيادي [نجل أبي الهدى] بجهة الفنار ، وكان حسن خالد ذهب إلى هناك لينزه ناظريه في جمال تلك الغانيات ، وقد ملأن الروابي والبطاح ، فضربه علي شامل أمامهن حتى أسفه التراب[3] .

---

(١) [من الجدير بالذكر أن أبا الهدى الصيادي تزوج فتاة من أسرة بدرخان انظر ص(١٦٥) من هذا الكتاب] .
(٢) [المعلوم والمجهول (١ : ٢٢٠ ـ ٢٢١)] .
(٣) [المعلوم والمجهول (١ : ٢٢١ ـ ٢٢٢)] .

٩ ـ كان أبو الهدى أشد الناس بغضاً لعزة العابد[١]، وكان العابد أشد الناس بغضاً لأبي الهدى ، وكان السلطان عبد الحميد مصطفياً كليهما، وهو يعلم أنهما لا يتفقان على رأي، ولا يجتمعان على خطة ، وبذا يتبيّن للمتأمل أن عبد الحميد لم يرد من اختيار المتخالفينِ إلا اتخاذ كل منهما رقيباً على الآخر ، علماً منه أنهما سيسهران لياليهما في رُقبة ، ويرتاح هو بين الرقيبين[٢].

١٠ ـ قال ولي الدين يكن: كانت العداوةُ بلغت مبلغَ الكمال بيني وبين أبي الهدى ، فجاءني منه الوعيدُ بعد الوعيدِ ، وكنت كتبتُ في سيئاته فصولاً نُشرت بجريدة «الرائد المصري» الذي كان يُصدرها بمصر صديقي القديم نقولا أفندي شحادة ، وأنحلتُ لنفسي إمضاء (زهير) إذ لا يصحُّ لموظفٍ في الحكومة أن يراسلَ الجرائد.

وقد قلتُ قصيدةً خاطبتُ بها عبد الحميد ، أذكرها هنا إيثاراً لواقعتها:

ألا أقتلْ أميَر المؤمنينَ أبا الهُدَى ... فقد جارَ في الإسلامِ ما جارَ واعتدى
سَعَى مُفْسِداً بينَ الرعيَّةِ جاهلاً ... فلم يستطِعْ ، ثم استطاعَ فأَفْسَدا
تظنُّ بهِ خيراً ولا خيرَ عندَه ... وما هُوَ إلا الشَّرُّ في جُبَّةٍ بَدَا

(١) [تقدمت ترجمته ص (٢٤٦)] .
(٢) [المعلوم والمجهول (١ : ٢٢٥)] .

رفعتَ أميرَ المؤمنينَ مكانَه ليُرْشِدَ للحُسْنى وما كانَ مُرْشِدَا
فأَكْبَرَهُ قومٌ ودانوا لأمرِه وأصبحَ يُدْعى في البريَّةِ سَيِّدا
يقولُ: غداً يرجو خلافتيَ الوَرَى ومَنْ ذا الذي يرجو خلافتَه غَدَا
عَفَاءٌ على العلياءِ إن رَضِيَتْ بِهِ وويلٌ على الأمجادِ إنْ هُوَ مُجِّدَا
يُهَدِّدُني بالبطشِ لادَرَّ دَرُّهُ ويَعْلَمُ أنِّي لا أبالي مُهَدِّدَا
كأنّي لم أنصبْ له أمسِ غارةً أقامَ لها الدنيا بكاءً وأَقْعَدَا
ولم أرمِ فيهِ من سهَامي صائباً ولم أُجْرِ فيه من سُيوفي مُجَرَّدَا
بلى رُعْتُ منه مُهْجَةً ذاتَ مِرَّةٍ وأوقدتُ فيها الغَيْظَ حتّى توقَّدَا

فغصته هذه الأبيات ، فما ساغ له ريقٌ ، وأقذته فما اغتمضَ له جفنٌ ، وأذكى عليَّ العيونَ والأرصادَ ، وأتبعني بجماعةٍ من رجاله ، ليوقعوا بي في غرَّةٍ مني ، فكلمتُ في أمرِه أحمد جلال الدين ، فإذا قلبُه يتلظَّى عليه غيظاً وحنقاً. فقال لي : هوّن عليك الأمر ، فالخطبُ أصغرُ مما تظنُّ ، ودعني أنازِلُه بالبأسِ ، ونازله أنتَ بالقلم.

قلت: هذا رجلٌ شديد الوطأةِ على خصومه ، صعبُ الكريهةِ ، سابغُ الدروعِ ، تصردُ سهام راميه ، وتصيبُ سهامهُ.

فنظر أحمد جلال الدين إليَّ نظرةً ملؤها الأسف ، وقال: كنتُ أحسبك أعظمَ جرأةً مما أرى.

قلت: عندي رسالةٌ صغيرةٌ كتبتها، اسمها «الخافي والبادي في فضائح الصيادي» وأريدُ أن أطبعها بمصر.

قال: نِعْمَ الرأيِ، ولكن على أن لا تتعرَّضَ للسلطان، فإني أخاف أن يبطشَ بك، أما أبو الهدى فلكَ أنْ تقولَ فيه ما تريدُ، على أن لا تذكرُ شيئاً غير الحق، فإنّي رجلٌ لا أحبُّ النصرَ بالباطلِ.

هنالك كتبتُ رسالتي، وبعثتُ بها إلى مصر مع أخي يوسف حمدي يكن، فطبعت، فباع الطابعُ رحمه الله نُسَخَها، وقد بيعت النسخةُ الواحدةِ منها بجنيه، وبقي لي ولأخي من الكَسْبِ تعبُ الكتابةِ والطبعِ.

ولقد زرتُ الجنرال أحمد جلال الدين باشا يوماً، فرأيتُ عنده الميرآلاي الدكتور عزة بك، وكان عالجني في سفرتي الأولى إلى الآستانة، فلما رآني أحمد جلال الدين قال للدكتور: أعِدْ على وليِّ الدين ما كنتَ تقول لي الساعةَ، فوجمَ الرَّجلُ، فقال له أحمد جلال الدين: ليسَ من الرأي أن تخاطبني في رجلٍ وهو غائبٌ، وأن تسكتَ وهو حاضِرٌ، وأنتَ لا بأسَ عليكَ، وما على الرَّسولِ إلا البلاغُ.

قال عزة بك: إنّ أبا الهدى أرسلني إليك، لتأذنَ لوليّ

الدين في الذهابِ إليه ، وهو يقولُ لك: لا تخفْ عليه ، إنه بمنزلةِ ولدي ، ولا يصيبُه عندي سوءٌ ، وما أدعوه إلا لأعاتبُه عتاب الآباءِ للأبناءِ.

قال أحمد جلال الدين: أعدتَ الآن رسالتَك بمسمع من غريمِكَ ، وها أنا ذا أُعيدُ جوابي لك بمسمع منه أيضاً: بلِّغْ عني أبا الهدى أنّ يدَه لأقصرُ مِنْ أنْ تَصِلَ إلى وليّ الدين بشرٍّ ، وأنا لا أمنعُ وليَّ الدين عن زيارته إذا هو شاءها ، ولكنني أمنعه بعدَ ذلك أن يدخلَ لي بيتاً ، ثم التفت نحوي وقال: وأنتَ ماذا تريد؟

قلت: أرى ما تراه.

ولقد أظهرَ أحمد جلال الدين من النخوةِ ما أؤثره له مع أجمل الثناءِ.

أما عزة بك فرجع إلى أبي الهدى ، وأخبره الخبرَ ، فوقعَ على فؤاده كالسهم إذا أصابَ صميمَه ، وسكنتْ عواصِفُ الغضب في فؤاد عدوٍّ لو ظفرَ بي لأحرقني بالنار(١).

١١ ـ لعل قراء كتابي لا يجهلونَ الشيخ محمد ظافر(٢) ولا

---

(١) [المعلوم والمجهول (١: ١٦٣ ـ ١٦٦)].

(٢) [تقدمت ترجمته ص (٩٩)].

سيرته ، غير أنّ أكثر ما يقالُ عن الأخيارِ ، كما يقال عن الأشرار ، كلُّه غلوٌّ ، وجلُّه بهتانٌ. وقد سمعتُ الناسَ يتكلَّمون كثيراً عن هذا الرجل من قادحٍ ومادحٍ .

فأما القادحون فأنصارُ أبي الهدى ، ولا يجوزُ الاعتمادُ على كلامهم[1]. وأما المادحون فأنصاره هو ، ولا يصحُّ أيضاً الوثوقُ بكلامهم. فكان الصوابُ أن أبلوه وأختبره بنفسي. أردتُ ذلك كثيراً ، ولم أتمكن منه ، إذ لم تأتِ الفرصُ بما يجمعني وإياه. وأنا رجل قليلٌ الجرأةِ على الناسِ ، لا أقْدِمُ على غشيانِ منازلهم، إن لم يسبقْ بيننا تعارف ، وما زلتُ أسكِّنْ ما بقلبي من هذا الشوق حتى حانَ الحينُ ، فجائني ذاتَ يومٍ رجلٌ من معارفي ، يخبرني أنَّ آل ظافر يودونَ التعارف بي ، وأنهم معجبون بما هجوتُ به أبا الهدى ، فسرّني ما بلغني ، ولكنّ إعجابهم بهجائي أبا الهدى أحدثَ في قلبي الريبَ ، فقلت لصاحبي: سأنظرُ في ذلك. على أني أخبركَ منذ الآن أني لا أحبُّ أن أكونَ البادىءُ بالزيارة ، إنّ أولي الجاه والحظوة يزدرون المتطفِّلين عليهم ، فإذا بدأوني ألفوني أهلاً لمودتهم.

(١) [وكذلك ولي الدين ، هو من القادحين في أبي الهدى فلا يجوز الاعتماد على كلامه كلّه ، وإنما أوردت هذه الأخبار للاعتبار].

قال: لك علينا ذلك. ولولا ثقتي منهم بشدَّةِ الرغبةِ إليك لما فاوضْتك في ملاقاتهم، ولا حبَّبتُ إليك مخاطبتهم.

ثم فارقني الرجل غيرَ ضاربٍ ميعاداً لتلك الزيارة، ولا لعودته إليّ.

ومضت على ذلك أيامٌ قلائل، وفي أصيلِ ذات يومٍ، وقفتْ أمامَ بابِ داري عربةٌ، خرج منها ثلاثةُ رجال. فعرفتُ أحدَهم، وهو ذلك الرجل، الذي كان عَرَضَ عليّ زيارة الظوافر، أما رفيقاه فلم أعرفهما بادىء بدءٍ، ولكنني فَطِنْتُ أنهما، أو أنَّ أحدهما لا بدَّ أن يكونَ من أبناءِ الشيخِ محمد ظافر.

فلما أُدخلوا عليَّ، قال دليلهم مشيراً إلى النحيفِ منهما: هذا عطوفةُ مصطفى بك ظافر، ثم أشار إلى البادنِ وقال: هذا محمد أفندي الأسير، نجل العلامة الشهير الشيخ [يوسف] الأسير، صاحب الأسفارِ الجمَّةِ، التي عرفها العلماء، فكان مجلسُنا مجلسَ صفاءٍ. منزَّهاً عن الغيبة والمفاخرة والكبرياء، ولم يشأ مصطفى ظافر أن يبادرني بذكر شيءٍ عن أبي الهدى، وتعمّدتُ أنا أيضاً الصمتَ عن ذكره، وجعلتُ أنشِدُ لهم بعضَ قصائدي، وأقصُّ عليهم ما حضرني من الأخبارِ. فلم يطقْ

محمد أفندي الأسير صبراً ، ورأى أن يجسني بشيءٍ من دهائِه ، فقال: يزعمُ بعضُ الناسِ أنّ أبا الهدى ناقمٌ عليك كثيراً ، وأنّه لا يهنأُ له عيشٌ دون الإيقاع بك ، فلقد آلمه ما كتبتَ عنه في الجرائد ، وأظنه الآن يتدبَّرُ لك مكيدةً يُكْفَى بها شرُّك.

قلت: له أن يصنَع ما يشاء ، ولي أن أصنعَ ما أشاء ، وأشقانا من إذا ظهرَ خافيه استعصى عليه الجدال ، أنا لا أزاحِمُ أبا الهدى على مقامٍ ، ولا يجوزُ أن يكونَ بيننا تنافسُ ، فهو ولي السلطان وأمينه ، وأنا أحدُ أفرادِ الرعية. وهو درويشٌ من الدراويشِ ، وأنا رجلٌ من رجالِ القلمِ ، وموظَّفٌ من موظفي الحكومة ، على أني أحاربه لا مختفياً ولا خائفاً. فإن كان عندَه ما يبطِلُ به كلامي فليأتِ به ، وإذا لم تكنْ لديهِ حجةٌ تدحَضُ ما أقولُ ، فليربأْ على ظِلْعِه [1].

وقال: ما تقولُ إلا الحق ، ولكنْ من لهذا الذي تنازِلُه أن يدينَ للحق ، ولو أنصفَ لاستراحَ وأراحَ ، غير أني سائِلُكَ عن شيءٍ أودُّ أن لا تبخَلَ عليَّ بجوابِه ، ولئن كان العهدُ بمعرفتك قريباً ، فليس العهدُ بمعرفةِ فضلك قريباً.

قلت: هاتِ ما يعنُّ لك ، فإذا كان مما أعرفُه أرضيتُك بالجوابِ.

---

(١) [مثل معناه: أنك ضعيف فارفق بنفسك ، ولا تحمل عليها أكثر مما تطيق ، ويقال أيضاً للمتوعد ، أي لا تتجاوز حدك في وعيدك].

فقال: يقولونَ إن عندك صكاً بخاتم محمد قدري العثماني، كتبه على استلام مبلغٍ من الدراهمِ أنفذها إليه أبو الهدى، وبتلك الدراهم أعيدت جريدةُ «القانون الأساسي» العربية، بعد أن عطّلها صاحِبُها لضيقِ ذاتِ يده، فإذا كانت هذه الروايةُ صحيحةً أرى أن تدفعَ هذا الصّكَّ إلى سيدنا (يريدُ الشيخ محمد ظافر) وهو يرفعُه بنفسِه إلى السلطان، وتكونُ لك من وراءِ ذلك فائدةٌ تجني ثمراتها ما دامتْ لك الحياة، ويلقَى أبو الهدى من العقابِ ما هو أهله.

فقلت: نعم الرأي، ولكنَّ الصكَ الذي تسألني عنه كان عندي، ثم مزقتُه وأنا قادِمٌ إلى الآستانة، قلت: ربما فتشوني في الجمارك، فوجدوا معي هذه الورقة، فيحلُّ بي من غضبِ السلطان ما لا أحبُّ، ولو كان هذا الصكُّ بيدي الآن لما رضيتُ الانتفاعَ به، نحنُ قومٌ لا نعرفُ التجسُّسَ، ولا نُحْسِنُ السعاية. ولأن يفوزَ علينا أعداؤنا خيرٌ لنا من أن نفوزَ عليهم بمثل هذه السعايات، وفيما أكتبُه ويقرأه الناسُ ما يغني عن تعسُّفِ الحيل، ومغالبة الرجال بالدنايا.

فقرأ مصطفى ظافر في وجهي الضجر، فأومأ إلى صاحبه ليكفَّ، ولما همَّ الثلاثةُ بالإنصراف، تقدَّمَ نحوي مصطفى ظافر مصافِحاً مصافحةَ ودٍّ، وقال: والدي مشتاقٌ إليك. وهو شيخٌ

كبيرٌ ، لا يفارِقُ البيتَ كثيراً ، فلو زرتَنا يوماً لزرتَ داراً تَسْعَدُ بقدومِك ، ولنا مجالسُ طيبة ، لا نغتاب فيها أحداً ، ولا نَنْطِقُ فيها بشرٍّ ، فوعدتُه بذلك ، وجعلت الميعادَ يومَ الجمعة .

وذهبَ القوم ، وبقيتُ وحدي ، فقلت: يا سبحان الله! إذا كان الظوافر على ما رأيتُ من محمد أفندي الأسير ، فقد ساء فيهم ظني . نعم إنّ أبا الهدى رجلُ سوءٍ ، وينبغي أن يحارَبَ بكلِّ سلاحٍ ينفَعُ في حربه ، أما اللؤمُ فلا قِبَلَ لي به ، وإذا كنتُ أريدُ أن أحارِبَه بمثلِ سلاحِه ، فخيرٌ لي أن أسالمه ، وأن أنتفعَ بجاهِهِ وكلمتِه ، على أنني لا آمنُ على نفسي الخطأَ في الحكم إذا زعمتُ أنّ ما يقوله الأسير يقوله محمد ظافر نفسُه . هذا الأسيرُ صنيعتُهم ، ويجبُ أن يتقرَّبَ إليهم بإظهارِ الودِّ والإخلاصِ ، وربما استوجبَ عليه كلامُه هذا لوماً وتأنيباً حين يرجِعُ مع ابنِ الشيخِ .

فلما كان يومُ الجمعة ، استصحبتُ الدليلَ الذي سبقَ ذكرُه ، وقصدتُ إلى تكية الظوافر ، الكائنة على يسار شارع يلديز بالآستانة . فإذا بناءٌ شامخُ الأركان ، رحبُ المكانِ ، تحيطُ به قضبانُ الحديد ، فخمٌ ظاهرُه ، عارٍ عن الزخرف باطنُه ، فسعى بنا خُدّامُ التكية إلى حجرةٍ واسعة ، ولم يطل بنا الانتظار ، وإذا

شيخٌ أبيضُ اللحيةِ ، متوسطُ القامة ، أكحلُ الناظرتين ، وسيمُ المحيا ، يسنده في مشيه خادمان له ، فأشار إليَّ صاحبي بأنَّ الداخلَ هو الشيخ ظافر ، فدنونا منه ، فحيانا وحييناه ، وجلسَ وجلسنا إليه ، فأقبلَ علينا بحديثه ، وقال: إنّه سعيد برؤيتنا ، وكان صاحبي عالماً بما ينبغي أن يخاطَبَ به حملةُ العرشِ والمقرّبون. فقال: كدنا واللهِ ننهبُ الأرض نهباً شوقاً إلى مولانا ، وما خاطبتُ وليَّ الدينِ في زيارته لمولاي ، إلا ورأيتُ به من الشوقِ ما لا يبالي به المرءُ الشدائدَ ، فتبسّمَ لنا الشيخ ، وقال: حفظكم الله.

وكان بعضُ الشياطين أخبرني أنّ أحدَ الدراويش قال ذات يوم للشيخِ محمد ظافر: إنّي رأيت مولاي في منامي جالساً على يمين الله ، والملائكةُ بين يديهما خُشَّعُ الأبصارِ ، فاعترضَ على كلامِه أحدُ الحاضرين ، فقال له الشيخ: دعه ، إنما يُنْطِقُه إخلاصُه ، ويريه إخلاصَه ، ومن صفتْ سريرتُه قَرُبَ عندَ الله مكانُه.

فقلت في نفسي: أمتحنه ، فإذا كان كلامُ الراوي صحيحاً علمتُ ذلك من حديثه ، وإذا كان كذباً تبينتُه ، ولكنَّ الشيخَ سبقني إلى السؤال فقال لي: هل تأتيكم من مصرَ جرائد؟

قلت: لا ، فإنّي لم أطلبْ من أربابِ الصحف أن يرسلوا

إليَّ صحفهم ، فإنّي أخافُ أن يتذرَّعَ بذلك بعضُ أعدائي إلى ما يطيلُ هَمّي.

فقال: نحن أيضاً لا نقرأ الجرائد ، ولكن بعضها يأتينا على سبيل البركة ، وابني مصطفى ظافر يحبُّ «المؤيد» كثيراً ، وهو يقول: إنّه أكبرُ جريدةٍ عربيةٍ ، بل أكبرُ جريدةٍ شرقيةٍ ، وكل من قرأ «المؤيد» شَهدَ لصاحبه بالفضلِ ، وقد بلغني أنّه من أكبرِ الشعراءِ ، وأنَّ كلامَه كلَّه سجعٌ لا تكلُّفَ فيه.

وقد كان المرحوم عبد الله النديم[1] يمدحُ لنا «المؤيد» وأخبرني عزة بك (عزة باشا العابد)[2] أنّ جرائدَ مصرَ كلَّها تعترِفُ للمؤيد بحقِّ السبقِ ، وقال لنا: لولا الشيخ علي يوسف[3] لأعلن الإنكليز امتلاكهم مصر.

فجعلتُ أستمعُ هذا الكلام من الشيخ الجالسِ أمامي ، ولاحتْ منّي التفاتةٌ إلى صاحبي الذي جاء بي إلى التكية ، فرأيتُه مطرِقاً خجلاً ، وقد ساد بيننا السكوت دقائقَ معدودة.

وإنا لكذلك ، وإذا بمصطفى بك ظافر قد دخل علينا ،

---

(١) [تقدمت ترجمته ص (٩٣)].

(٢) [تقدمت ترجمته ص (٢٤٦)].

(٣) [الشيخ علي بن أحمد يوسف صاحب المؤيد من أكابر رجال الصحافة بمصر (١٢٨٠ ـ ١٣٣١هـ = ١٨٦٣ ـ ١٩١٣م)].

فحيّانا ، واستأذنَ والدَه في الذهاب بنا إلى حجرته ، فأذن له ، فدخلنا حجرةً رأيتُ بها شيخاً آخر ، ينطق الشيبُ على مفرقه ولحيته ، فتبادلنا السلامَ والمصافحةَ ، ولما استقرَّ بنا الجلوسُ ، أومأ مصطفى إلى ذلك الشيخ وقال: الأستاذ العلامة الشيخ إبراهيم السنوسي ، من سادات المغرب ، هو ضيفُنا الكريم ، ومن المغرمين بشعرِك ، فأجبتُ مصطفى ظافر بما يوافِقُ المقام ، ثم دخلَ الحجرةَ رجلٌ أسودُ اللحيةِ ، معمم ، فدنا مني ، وأمسكَ بيدي ، ووقف أمامي قائلاً: أهلاً وسهلاً بعطوفة البك ، حلّتْ البركةُ ، تشرّفَتْ التكيةُ ، أنا والله محبكم المخلص ، الله يطيل حياتكم ، ويحفظكم ، الله ينصركم على أعدائكم ، الله لا يخيِّب لك رجاء ، الله لا يسوؤنا فيك ، الله يعطيك البركة ، الله يعلي قدرَك ، الله يكفيك شرَّ ما تخافُ .

فكاد واللهِ ينفدُ صبري من كلامِ الرجل ودعائه ، فقد كان يرتجلُه ارتجالاً غير ساعِلٍ ، ولا متوقِّفٍ ، فبادرني صاحبي قائلاً: هذا إبراهيم بك ظافر ، نجل الأستاذ الكبير ، وأخو عطوفة مصطفى بك . فقلت: أنعم وأكرم .

وأخذنا نتحادَثُ مع الشيخ السنوسي ، فرأيتُ منه رجلاً عالماً متفقهاً كثيرَ التعصُّبِ ، مصدقاً لأضاليلِ الأولين ، تمكنَّه

من العلوم الشرعية أعلا قدره في نظري ، واستأنستُ به ، واستطبتُ حديثه.

ثم خرجنا من التكية بعد ما لقينا فيها من الإكرام والترحيب مالا أستطيعُ ذكره في هذا الموجز ، ومحمد أفندي الأسير كان يومئذٍ متغيباً عن التكية ، وكثرتْ الزياراتُ منذ ذلك بين الظوافر وبيني ، فأنسَ إليّ مصطفى ظافر ، وأخذَ يفضي إليَّ بأسرارِه ، ويشكو ما لاقاه من عداوة أبي الهدى له ، وكان يقول لي: إنَّ أبي رجلٌ درويش فقير ، لا يريدُ من هذه الدنيا إلا وقتاً يعبدُ الله فيه ، ويصلّي على نبيه ، وقد بلغ من الحظوةِ عند السلطان مالم يبلغْه سواه ، فلا نالَ رتبةً ، ولا رضي وساماً ، ولا طمعَ في وظيفة يزاحم عليها أهلَ المطامع ، بل عَفَّ عن كلِّ لذةٍ ، وانصرفَ إلى الله عن كلِّ جاهٍ ، وآثرَ الآخرةَ على الأولى ، فهو يحبُّ الفقراءَ ، ويجلسُ إليهم ، ويستطيبُ مجالسَهم ، ولا سمت به نفسُه إلى مخالطةِ الكبراء أولي المطامع ، فوالله ما أدري ماذا يريدُ منه أبو الهدى؟! وهو مع أبي على طرفي نقيض ، تسمو نفسُه إلى المعالي ، ويحبُّ الألقاب ، ويتعشَّقُ الوسامات ، ويفتتن بحبِّ المالِ ، وهل ينالُ أبي شيئاً يُحْرَمُ هو منه؟ حسبنا ما نحنُ فيه. هذه نعمةٌ من الله لا نستطيعُ أن نوفِّيه عليها شكراً ، فلا نريدُ أكثرَ منها ، ولا أحسن منها.

قلت: يخيلُ لي أنّ أبا الهدى شديدُ الوطأةِ عليكم، وأنّه لا يألو في نكايتكم جهداً، ولكنْ هل تعلمُ لذلك سبباً؟ فليسَ من العقلِ في شيءٍ أن يناوئكم طلباً للمناوأة.

فقال: السببُ حسدُ أبي الهدى لأبي، يرى السلطانَ مقبلاً علينا برضائه، واضعاً آلنا تحتَ حمايته، غير مانعٍ عنا خيراً، فيسؤوه ذلك، وهو يريدُ أن لا يحب السلطانُ غيرَه، وأن لا يُقْبِلَ بدولته على سواه، وكثيراً ما وشَى بأبي، ودسَّ له الشرَّ، ولكن نجانا الله من كيدِه.

وكم قال له السلطان: أنا واثقٌ بودِّ الشيخ محمد ظافر، معتمدٌ على صدقِ ولائه، فلا تخاطبني في أمرِه بما لا أحب، غير أنَّ عادةَ الشر تغلِبُ عليه، فيسبقُ لسانُه خاطرَه، وينالُ منا ومن أعراضنا، ويرمينا بكلِّ نقيصةٍ، وله رجالٌ يدخلونَ بيتنا، ويطؤون بساطنا، ويُصيبون من طعامنا، ثم يذهبونَ إليه بأحاديثَ ملفقةٍ، يستزيدُها هو من عندِه ما شاء.

فقلت: وأنتم ألا تنازِلونه كما ينازِلكم؟ أبوك له من الدالَّةِ على السلطان ما يمنع بها حماه، ويكيلُ لعدوه مكيالاً بصاع.

فقال: لما كان المرحوم السيد جمال الدين، والمرحوم عبد الله النديم على قيد الحياة، كانا يغيظانه، حتى تتبادر شؤونه من عينيه، ولقد أطالا سهاده، وضاعفا همه. فما كنتَ تسمع

له إلا صخباً وعويلاً متواصلاً ، وشكاياتٍ إثر شكاياتٍ ، يطرق بها بابَ السلطان ، ولما ألَّفَ فيه المرحوم النديم كتابه الذي سماه «المسامير» قامت له قيامته ، وجعلَ يهدُر كما يهدُر الفحلُ إذا هاج ، ولو مَدَّ الله في أيامهما لعاجلاه بما يلقى به حتفه ، ولكنْ لكلِّ أجلٍ كتابٌ.

وكان السيد جمالِ الدين إذا ذكره في مجلسِ السلطانِ لم يسمه إلاّ أبا الضلال .

ولقد استشاطَ عبدُ الله نديم غضباً ذاتَ يومٍ ، وكان دُعي إلى قصرِ السلطان ، وسئل هنالك أن يكفَّ عن هجاءِ أبي الهدى ـ والسلطان مطلٌّ عليه من كُوَّةٍ يسمعُه ويراه ـ فصاحَ النديم بأعلا صوته قائلاً: لقد قلد مولانا السلطانُ أبا الضلالِ وسامَ الافتخار ، فلألبسنَّه أنا وسامَ العار ، يلازمُه في حياته ، ويصحبه إلى قبره بعد مماته. فخافَ مَنْ بالقصرِ من وعيدِالنديم ، وأخذوا يتلطّفون في إسكاته ، ولم يستطيعوا ذلك إلا بعدَ جهدٍ أضناهم(١) .

١٢ ـ وافاني مصطفى ظافر ليلاً ، فرأيتُ الفزع بادياً على وجهه ، فقلت: ما وراءك؟

---

(١) [المعلوم والمجهول (١ : ١٦٩ ـ ١٧٧)] .

قال: قامت القيامة علينا وعليك. أبو الهدى أو عز إلى أحدِ الجواسيس واسمه ضيا، فوشى إلى السلطان بأنّ بالآستانة جمعيةٌ خفيةٌ تعملُ على الفتك به، والانتصار لأعدائه، وأن رئيسَ هذه الجمعية هو المشير فؤاد باشا، وأني ورضا بك (هو الآن رضا باشا نزيل مصر) والشيخ أسعد شقير إمام آغا دار السعادة (هو الآن نائب أنطاكية بمجلس المبعوثان) ومحمود أفندي نديم (آخر وظيفة له هي متصرفية قره حصار، التابعة لولاية سيواس) أعضاء هذه الجمعية، وأنك أنت قلمُ الجمعية، تنشرُ بجرائد مصر ما نحنُ نتفق عليه، ثم تأتي هذه الجرائدُ باسمك إلى إدارةِ البريد الفرنساوي، فتوزعها علينا، وعلى من يقول برأينا.

وقد أخبر الجاسوس أنّ بإدارة البريد طرداً من الجرائد جاء باسمك من مصر، فأنفذ السلطانُ أحدَ رجاله ليأخذَ له ذلك الطرد، فأبى البريدُ أن يسلّمه إياه، هنالك كلّموا سفيرَ فرنسة الموسيو قونستان، فأمر البريدَ أن يسلّم الطردَ، وأن يسلّم أيضاً كلَّ طرد ترتابُ فيه حكومة السلطان، وقال: نحن لا نريدُ أن يكون بريدنا واسطةً في دخول الدسائس إلى البلاد العثمانية.

ولما نظروا الطرد، وجدوه مكتوباً باسمك، فظهر صدق الجاسوس، واليوم أخذوا الشيخ أسعد شقير إلى نظارة الضبطية، وتولى الناظر وقدري بك رئيس الجواسيس

استنطاقه ، وقد بادر محمود نديم إلى يلديز ، وأخبر عبد الغني (آغا دار السعادة) وعبد الغني بادر إلى السلطان شاكياً باكياً ، وقال: إنّ أعدائي يريدونَ احتقاري ، وقد أخذوا إمامي ، وربما لحقه السوءُ ظلماً وعدواناً ، فصدرت إرادةُ السلطان باستدعاءِ الجميع إلى يلديز ، والاستمرار على التحقيق هنالك.

وقد كان أبو النصر يحيى السلاوي عندنا في يومنا هذا ، فأخبرنا أنّ شفيق باشا ناظر الضبطية ، وقدري بك رئيس الجواسيس دعياه إلى النظارة ، وسألاه عما يعلمُ عنك ، فقال لهم: إنه يعرفك كما يعرفك سائر رفاقك الذين معك بنظارة المعارف.

فقال له قدري بك: وهل يكتبُ ولي الدين فصولاً في ذم السلطان ، ويبعثُ بها إلى جرائد الأحرار بمصر؟

فقال السلاوي: لا علم لي بذلك ، وإذا كان ولي الدين يكتبُ فصولاً كما ذكرَت ، أفلا يخافُ على نفسه العقابَ ، حين يطلعَ الناس عليها؟ وهل علمتم عليه شيئاً من هذا القبيل؟

قال قدري بك: كلا ، وإنما نسألك لنتعرّف ذلك منك ، فأما وقد ذكرتَ أنك لا تعرِفُ شيئاً من أسرارِه ، فلا حاجة إلى زيادةِ الأسئلة ، ونحن نوصيك أن لا تخبر ولي الدين بشيءٍ مما جرى لك معنا ، فأجابهم السلاوي إلى طلبهم وانصرف.

قلت لمصطفى ظافر: ومن ضيا هذا الذي تذكره ، وأين هو الآن!

قال: هو رجل أظنه من أزمير ، وهو الآن في يلديز ، لا يريدون أن يطلقوا سراحه حتى يتمَّ التحقيقُ ، ويظهر صدقه من كذبه ، وقد بادرت إليك مخبراً بما وقع ، فكن على حذر.

قلت: وما ينفع حذري الآن؟ وهل تحسب القوم يغفلون عنا بعد أن بلغهم عنا ما بلغهم؟ ومالي من حيلةٍ سوى انتظارِ ما ستجري به الأقدار.

ثم مضى على هذه الواقعة نحو الأسبوع ، فاتصل بي بعد ذلك أن الذين تولوا تحقيقَ القضية قالوا للجاسوس: من أين عرفت أن ولي الدين اتفقَ مع مَنْ سميتهم على أن يكتب إلى الجرائد في ذم السلطان؟ ومن أين لك أنّ هذه الجرائد ستأتيه ، أو هي أتته ، وأنها محفوظةٌ بإدارة البريد الفرنساوي؟

قال: كنتُ ذهبتُ إلى الباب العالي ، فرأيتُ الشيخ أسعد شقير ، ومحمود نديم ، وولي الدين ، خارجين من شورى الدولة ، وكانوا عند مصطفى ظافر ، فجعلتُ أمشي خلفهم ، وأتسمّعُ ما يقولون ، فوعيتُ كلامهم كلَّه ، ولم أُضِعْ منه حرفاً واحداً.

قالوا له: صف لنا وليَّ الدين.

قال: هو رجلٌ عظيمٌ الجثة، له لحيةٌ شقراءُ، وعينان زرقاوان، فلم يمهلوه إلى أن يتمَّ كلامه، وهنالك هدده أحدُ رجالِ القصرِ بالويلِ والثبورِ إذا لم يعترف بالحقيقة، وتركوه وحده في حجرة ليتمعّنَ فيما هو صائر إليه، فهاله الأمرُ، وأحس بالشر، وأيقن أن لا خلاصَ له مما وقع فيه، فطلب أن يعيدوه إلى المحققين، فلما مثل بين أيديهم قال: إنَّ أبا الهدى عرضَ عليّ كتابةَ تقرير أتهم به من عرفتم أسماءهم، وأعطاني ثلاثَ ورقاتٍ من أوراق البنك العثماني، قيمةُ كل واحدة منها خمسة جنيهات، وكل الذي سمعتم مني لقننيه أبو الهدى، وأنا رجلٌ فقيرٌ، ولي حاجةٌ شديدةٌ إلى أقلِّ من هذا المال، فغلبتني الحاجة، فأنجزتُ ما أراد.

فلما سمع المحققون كلام الرجل، ورأوا أوراق البنك بأعينهم، أبلغوا السلطان ما وقع، فأمر بكتمان الأمر، كلُّ هذا جرى، ولم أعلم به إلا بعدَ أن جرى.

ولما علم فؤاد باشا بالواقعة قصدَ إلى يلديز، وبينما هو يريدُ الصعود إلى عند الباشكاتب التقى بأبي الهدى في طريقه، فتقدّم نحوه، وبادره بالشتم، وكاد يرمي به تحت أقدامه لولا تضرعه وبكاؤه، فأمسك عنه فؤاد باشا، وقال له: أنا بمعزلٍ

عن هذا القصر وعن مطامِعه ، وليسَ لي وإياك شأنٌ ، فإذا أنتَ لم ترعوِ ، وحدثَتك نفسُك بالعودةِ إلى مثل فعلِتكَ هذه رميتُك على الأرض ، ووطأتُ رأسَك بأقدامي! ففارقه أبو الهدى وهو لا يصدق بالنجاة[1].

١٣ـ دلني مرةً رجلٌ من معارفنا على ما يستوقِفُ دوننا دهماتِ أبي الضلال[2] وكان من رأيه أن ننشىءَ بجنيف جريدةً تنشر بالتركية والعربية والفرنساوية ، نذكر بها مثالِبَ هذا العدو الغاشم ، ونبيِّنَ مخازيه ، ليحذره السلطان بعد ذلك ، أو ليضطر إلى حذره ، تنصلاً منه أمام رعيته ، فكلّمنا في ذلك رضا باشا وأسعد أفندي شقير. غيرَ أنّ رأي أسعد أفندي كان موافقاً لرأيي في جعل الجريدة جريدةً حرةً محضةً. وقد صدق ، إذ كنا أقدر الناس على معرفة ما يقع بيلديز ، ولو شئنا لنشرنا نصَّ كل إرادةِ سلطانية من قبل أن تبلّغَ إلى الباب العالي ، ولكن مصطفى ظافر خافَ على نفسه وأبيه غضبَ السلطان ، وقال: إذا ظهر أمرُنـا يوماً فماذا يصيبنا؟ أما أنتم فتسجنون ، أو تنفون ، ولكنني أنفى وأسجن وأزيد عليكم بأن يحلَّ بأبي في كبره

(١) [المعلوم والمجهول (١ : ١٨٩ ـ ١٩٢)].
(٢) [أبي الهدى ، وقد عكس كنتيه جمال الدين الأفغاني].

وبإخوتي من بعده ما يبدِّدُ شملنا ، ويفني حتى أعقابنا. فلما رأينا هذا الخلاف عدلنا عن الأمر[1].

١٤ ـ خرجتُ ذات يوم في حاجة عرضتْ ، فلما كنتُ في بعض الطريق التقيتُ بصديقي القديم الدكتور (ن. . .) ، وهو إنكليزي الأصل، كان جاء الآستانة في أيام الحرب ، التي هاجت بين دولتنا وبين روسية في سنة (١٨٧٧) وكتب[2] في الجندية العثمانية ، ولما وضعت الحرب أوزارها ، خرج من الجندية ، وطابت له الإقامةُ بالآستانة ، فلم يفارقْها إلاَّ مراتٍ قلائل.

وقد تعلَّم اللغة التركية ، وعرف قراءتها ، وكان له في اللغة الفرنساوية باعٌ طويلٌ ، وله بها كتاباتٌ تدلُّ على أخذِه بنواصي البيان ، فدنا مني هذا الصديقُ ، ومال بي إلى قهوةٍ كانت قريبةً منا ، فدعا بي إلى الجلوسِ فجلسنا ، ثم جعلَ يصعِّدُ فيَّ نظرَه ، ويصوِّبُـهُ ، وقد عرتْهُ دهشةٌ مما رأى من نحولي ، فأنكرَ ما شاهد في وجهي من التغيُّرِ ، وأخذَ يسألني عما أدّى بي إليه. فقلت: لزمتُ البيتَ ، وانقطعتُ عن النزهةِ والاستشفاءِ بمعتلة النسائم ، فأحدثَ فيَّ طولُ اللبثِ ، وفرطُ الانكبابِ على التفكيرِ ما ترى.

---

(١) [المعلوم والمجهول (١ : ١٩٢ ـ ١٩٣)].

(٢) [أي عمل].

فقال: وما الذي دعا بك إلى هذا الاعتزال؟

قلت: مللتُ مغالبةَ الغاشمين، وكلَّ عن نضالهم ساعدي، فهادنتهم حتى استعيدَ قوتي، أو أجدَ نصيراً على الحرب.

فتأمل الرجل النطاسيُّ وجهي مليًّا، وتنهَّدَ تنهداً سمعتُ له زجَلاً في صدرِه، ثم قال: ألم أقل لك يا ولي الدين إنّك خاطئٌ في إغضابِكَ أبا الهدى، وقد ظننتَ بي الظنونَ يومئذٍ، وزعمتَ أني متشيِّعٌ له؟ ومالي والتشيّعُ لأبي الهدى، وليسَ له عليَّ من سلطانٍ. أنا رجل إنكليزي، وقصارى ما ينالني من غضبِ عبد الحميد أن يأمرَ بإخراجي من بلاده، فأخرَجُ مكرهاً، ثم أعودُ مدعوًّا، فيستقبلونني بالعطايا، ولو كنتُ أُحاوِلُ ذلك لنلتُه منذ أمدٍ بعيدٍ، وإنما كان لومي خوفاً عليك من كيدِ رجلٍ لم يثبتْ على لقائهِ منازِلٌ، وعلماً مني بأنّ كلَّ هؤلاء الذين في قصر الملك يخافونَ أبا الهدى على أنفسِهم، ولا يجاهِرُ أحدٌ من أعدائهِ بحمايةِ عدوٍّ يكونُ أبو الهدى مطارِدُه، ولم أقل لك في نصحي: شارِكِ الرجلَ في مفاسدِه، وأعنهُ على الخيانةِ، وتحبَّبْ إليه بالكذبِ والنفاق، بل قلتُ لك: دعهُ وشأنه، واحترس من غوائلهِ، واكفِ نفسَك شرَّ بطشِهِ، والآن ماذا تريدُ أن تفعل؟

قلت: سبقَ السيف العذل، ما أنتَ باخلٌ بنصحٍ، ولا الجد

ذاهب بمأملٍ ، ولا أنا نادمٌ على ما فات ، إني فعلتُ حين قـدرتُ ، وأمسكـتُ حيـن عجـزتُ ، وإذا عـاودتنـي المقـدرةُ عاودتُ العملَ.

فقال: أنتَ أملكُ مني لنواصي الكلام ، وأنا أبصرُ منك بمواضعِ الرأيِ ، فلا تغالبْ حقائقي بزخارِفكَ ، واسمعْ لما ألقي علَيك ، تقومُ من ساعتِكَ ماضياً في حاجتك ، التي خرجتَ لها من دارِكَ. وسأكونُ واسطةً لإصلاح ذاتِ بينِكَ مع أبي الهدى. ولكنْ إيّاك أنْ تنقادَ لهواه ، وتستخدمَ قلمَك في أغراضه ، فتقضي بذلك لباناتِه ، حتى إذا حاقَ بك سوءٌ ، وقفَ يضحَكُ على عقلك ، ويسخَرُ من رأيك ، وسأزوركَ في دارك بعدَ يومين.

فمضى صاحبي لشأنه ، ومضيت لشأني ، وتمَّ الصلح بيني وبين أبي الهدى على يدِه ، وزرتُ أبا الهدى في بيتِه ، وزارني بعد ذلك نجلُه حسن خالد بك الصيادي. وبعد أن مضتْ على الصلح أيامٌ توجهت إلى منزل الصياديِّ ، لأنظرَ ما سيبدي لي من وُدٍّ ، أو عتـابٍ ، وقـد كنّـا تراضينـا على أن لا نعيـدَ ذكـرَ ما فات ، وأن لا يكلِّفَ أحدُنا صاحبَهُ عملاً. فلما أُدْخِلَ بي على الرجل ، تلقاني بصـدرٍ رحبٍ ، وثغـرٍ باسمٍ ، وأدنى منـهُ مجلسي ، وأقبل عليَّ بوجهه ، وطيبِ حديثه ، وأنا لا يطمئنُ له

فؤادي ، ولا تنبسط لهُ نفسي ، وكنت أعلم أنّ أبا الهدى لا يُفْلِتُ فريسةً أمكنهُ الدهر منها ، وأنهُ أشدُّ ما يكون فاتكاً ، إذا ظفرتْ يداه بعدوٍّ له ، فأضمرتُ الحذرَ ، وأظهرتُ الاستسلام ، فإذا هو يميلُ عليَّ بكله ، وجرى يومئذٍ بيننا حديثٌ طويلٌ ، وأطلعني على كثيرٍ من أسرارِه ، وأقرأني من أوراقِه ما لو عرض على عدوٍ غيري لنال بها من الثراء ما يبقى لأعقاب أعقابه ، وحلفَ لي بالأيمانِ المغلَّظة ، أنّهُ لا علم لابنه حسن خالد بشيءٍ مما في تلك الأوراق ، فأعدتُها لهُ ، وعاهدتُهُ أن لا يعلم مني أحدٌ شيئاً مما أسرَّهُ إليَّ ، وها أنا اليومَ أوفي بعهدي ، وأحفظُ لهُ سِرَّهُ. ولو عاش في دولته إلى يومنا هذا لحاربتُهُ حربَ المستميتِ ، ولكن غير مغالِبٍ لهُ بأسرارِه ، وقد أيقنتُ بعدَها أنّ الرجلَ جرى معي على غير شيمتِه ، وأنّه لا يُضْمِرُ لي غَدْراً ، فأمِنتُ غوائله ، واسترحتُ من طولِ الحَذَرِ ، ولو كان أبو الهدى غيرَ خائنٍ لدولتي لحرصتُ على ودِّه ، ولأقمتُ على مناصرتِه ما بقيتْ لي في الحياة بقيةٌ.

على أنني ما صالحتُ أبا الهدى إذ صالحتُه إلا لأُكْفَى طولَ مناضلتِه ، وأُفَرِّجَ عن وجهي ما كان يمنعني عن الفرار والخلاص مما كنتُ فيه ، وأما وقد تهيأَ لي ما أردتُ ، فلم يبقَ إلا تشمري وشدِّ رحالي.

وبينا أنا في نقضٍ وإبرام ، إذ دخلَ علينا شهرُ رمضان ، فحمدتُ قدومَ الصيام ، ورأيتُ في شغله الشاغل للنّاس ما يُعمي أبصارَهم عما أَتأَهَّبُ له ، وأقمتُ استنجِزُ الفرصَ ، وإني لفي داري مشتغِلٌ بما ذكرتُ ، وإذا رسولُ أبي الهدى يتعجَّلُ مضيي إليه ، قلت: ما أتى السيِّدَ حتى أنفذك إليَّ؟ .

قال: لا أدري؟ ولكنّهُ أخبرني أنه سيكون في انتظارِك بعَد الإفطار.

قلت: بلِّغهُ أنّي قادمٌ عليه .

ولما ولّى الرسول ، أنجزتُ ما كان بيدي من أعمالي ، وما أزفُ الوقتُ إلا واكتريتُ عربةً ، وبادرتُ إلى موعدي ، فتلقاني حسن خالد في طرقة الدار ، وسأَلتُهُ عما دُعيتُ لأجله ، فأَبدى تجاهُلاً حَسُنَ عنده سكوتي ، ثم أُدخلتُ عند أبي الهدى ، فاستقبلني قائماً ، ولم أرَ على وجهه بشاشتَهُ التي عوَّدنيها ، ولابدتْ على ثغرِه بسماتها تلك التي خَدَعَتْ الماكرين ، ولكنّي رأيتُ في حاله من الوجلِ ما كادَ يستخفُّ بحلمي ، فأَمسكَ بيدي ، وجعلَ يتأمَّلُ وجهي ، وأنا مستمسك بنفسي ، موطد قدمي ، ولا أدري ما نهاية ذلك كلِّه ، فأَخذ يَسْكُنُ روعُه قليلاً قليلاً ، وثابت إليهِ أناته ، وراجعه وقاره ،

فأشار إليَّ أن أجلسَ ، وجلس هو بمكانه ، ثم قال: إنّي لفي قلقٍ عليك منذ البارحة.

قلت: وكيف ذلك؟

قال: سمعتُ أنّ الشرطة دخلتْ بيتَك ، وأخذت كتبك وأوراقك ، وأنّك قضيتَ ليلتك في دار الضابطة ، فبتُ لا أدري ما أصنع ، ولا كيف أستخبر صحةَ الخبر ، فما أصبحتُ إلا وأنفذتُ رسولي إليك ، ولما رجعَ ، وأخبرني أنّه رآك بمنزلك ، خفَّ عني بعضُ ما كان حَلَّ بي من الجزع. ثم خُبِّرتُ أنّ القوم أخذوا ما وجدوا عندك من كتبٍ وأوراق ، ولمَ يتعرَّضوا لك بسوء ، فَقُصَّ عليَّ الآن كيفَ كان ذلك ، ومن هذا الذي وشَى بك ، ولم يعلم أنّ وراءك أباً لا يكلُكَ إلى مَنْ يجَهَلُ عليك.

فقلت: سيدي! لم يحدث شيء مما تذكره ، وإني لأحسُّ بشرٍّ ولا أتبينه. وقد بثوا عليَّ العيونَ ، وأذكوا الأرصاد ، وما أدري ما رابهم من أمري؟!

فقال: إذا لم يصحَّ ما ذكر لي ، فذلك فضلُ من الله ، ولكنني أوصيك بنفسكَ خيراً ، افتح عينيك يا ولي الدين ، ولا تدعْ لأعدائِكَ سبيلاً إليك ، ومهما يكنْ عندَك من كتابٍ أو ورقةٍ مما يحجُّ به الخصومُ خصومَهم فمزقهُ ، ولا تخفْ بعد

ذلك واشياً ، ولا تبال رقيباً ، وإذا مسَّكَ الضرُّ من مكيدةِ عدّوٍ ، فبادر إليَّ ، لا متريثاً ولا متغافلاً ، فهممتُ أن أخبره بما عزمتُ عليه من الهجرة ، ولكنني أمسكتُ ، مخافَة أن تكونَ الفتنةُ فتنتُه. ثم استأذنتُهُ في الانصراف ، فأذنَ لي ، وودعتُهُ ، وخرجتُ من عنده لا ألوي على شيء ، فما أدركتُ منزلي إلاَّ عمدتُ إلى كتبي وأوراقي ، فأخذتُ أتفقدها ، وأستخرجُ منها ما لايلائِمُ هوى القوم ، وكان عندي من كتب أحرارنا وجرائدِهم شيءٌ كثير ، جاءني بعضُه على يدِ بعضِ أصحابي من الأجانب ، وأحضرتْ بعَضَهُ والدتي حين قدمتْ عليَّ من مصر ، فجعلتُ أمزِّقُ هذه المذخورات الغوالي ، تفادياً بها من ليلٍ لم أعلم أنّه لا محالةَ مدركي ، ومِلْتُ بعد ذلك على أوراقي ، فتفقدتُها ورقةً ورقةً ، وأنا كلَّما أجدُ شيئاً يُسترابُ منه أمزقُه ، وألحقُه بغيره.

ولم أزل كذلك في نظرٍ وتنقيبٍ حتى آذنَ ليلي بالبلج ، فأخذتُ تلك الممزَّقات ، وألقيتُ بها في النار ، وما استقلَّ بها اللهب إلاَّ وأنا كالآيب من احتطابٍ في الجبلِ ، أو كالخارج من غمراتِ الوغى.

وكان لي بحجرة والدتي صندوقٌ ، فيه أوراقٌ وجرائدُ وصورٌ نسيتُها كلَّها ، ولم أتعهدها منذ قدومي الآستانة ، وقد فاتني أنّ

بذلك الصندوق ما يستطير الشرر من عيني عبد الحميد ، ولكم حاول أهل بيتي أن يحملوني على فتحهِ ، وإحراق ما يكون فيه من أشباهه ونظائره ، فلم ألقِ للنصح بالاً .

فلما كان اليوم الثاني من شهر يناير في سنة (١٩٠٢) جلستُ في حجرتي ، وجعلتُ أمامي ورقاً وأقلاماً ، وأنشأت أكتب فصلاً كان خطر ببالي ، وقد أمسيتُ ، وأوقدتُ حولي المصابيح ، وأنا مستغِرقٌ في شغلي ، لا أستشعر شيئاً من ذلك ، فدخلت عليَّ الخادمة تخبرني أنّ بأسفلِ الدار زائرين يريدان أن يرياني ، وأنّ وراءَهما جماعةٌ من رجال البوليس وقوفاً على باب الدار .

قلت : لا ضير ، أدخلي الضيفين إلى مجلس الضيوف ، أما البوليس ، فيكونون أتوا من الثكنة المجاورة للبيت ، ليدلا عليه الطارقين .

هنالك خرجت الخادمة ، وأنا رفعتُ ما كان أمامي من ورق وغيره ، ثم دخلتُ على الضيفين ، فإذا هما لا يسرُّ مرآهما ، ولا يبشر قدومهما ، رجلان من أعوان النقمة ، وجنود العذاب ، أعرفهما من وجهيهما اللذين محا الله تعالى منهما آيةَ الأنس ، وأجالَ في أديميهما صبيباً غسَّاقاً ، وأسكنَ نفسيهما من السوء ما يكون معواناً لهما على أكل لحوم الناس ، وشرب دمائهم ، أعوذ بالله من مثل تلك الوجوه ، الضيفانِ الطارقان

أحدُهما محمد علي بك ، الذي كان رئيسَ الهيئة التحقيقية بنظارة الضابطة ، وثانيهما إسماعيل حقي أفندي ، الذي كان مفتش البوليس في متصرفية غلطة سراي. تلقيتُهما بما يُتلقى بهِ الزائرُ غيرُ المعروفِ ، وناولتُهما السيكارات ، وأسقيتهما القهوةَ ، وهما في محادثتهما لي يقلِّبان أوراقاً وجرائِدَ كانت على خوانٍ قائمٍ في وسط القاعة. وقد أحسَّ قلبي أنَّ وراءَ هذه الزيارة ما لا أحبُّ ، فأبديتُ التغابي ، وآثرتُ الصمت ، حتى إذا فرغا مما يكرَمُ بهِ الضيفُ ، التفتَ نحوي محمد علي بك وقال: شفيق باشا ناظر الضابطة يقرِئكُ السلام ، ويقول لك: إنّ السلطانَ أمره بتفتيش أوراقِكَ ، وأخذِ ما كان مخالِفاً لرضائِه منها ، والباشا يعلم أنك لا تدَّخرُ شيئاً يغضِبُ مولانا الأعظم ، ولكن لا بدَّ من الطاعةِ ، والجري على مشيئتِه ، وها نحن عندَك نرجو إذنك في التفتيش.

فقال إسماعيل حقي أفندي: أترى ولي الدين بك يشكُّ في محبة الباشا له ، وإيثاره إياه على كل عزيزٍ عنده ، ما أظنهُ مانعنا عن خدمةٍ يعلم أننا مكرهان عليها ، ولو خيّرنا فيها لما اختار أحدُنا أن يحرِمهُ راحتهُ ، ويكدر عليه صفاءه.

قلت: لا بأسَ عليكما ، لكما ما سألتما ، ولي إليكما رجاء ، فأعيناني على أكذوبةٍ تنفعني ولا تضركما.

فقالا: ما هي؟

قلت: سأقول لامرأتي إنّ ناظرَ الضابطة محبٌّ لي، وإنه اتصل بهِ أن البوليسُ سيفتشُ بيتي في هذه الأيام، فأرسلكما إليَّ لتأخذا له ما يكون عندي من الكُتبِ والأوراقِ فيخفيها عنده، ويعيدُها إليَّ بعد انقضاء تلك المحنة.

فقالا: لك ما سألت.

هنالك دخلتُ على امرأتي، وخاطبتُها على ما توافقنا عليهِ، فلم تنفع الحيلةُ، وفطنتْ لها، ولكنّها تجلدت تجلداً لا تقوى عليهِ السيدات، وقعدت في فراشها، وقالت: أدخلهما، فدخل الرجلان، وأمالا رأسيهما سلاماً، فلم ترد سلامهما، ثم أوغلا في التفتيش، فما أشكلَ عليهما فهمُ كتابٍ أو جريدةٍ أو ورقةٍ إلاَّ أخذاها، ولما تدانيا من الصناديق، التي بها ملابسُ سيدةِ البيتِ أعرضا عنها، ولم يمد أحدُهما إليها يداً، وقد وقع نظرهما على مسدس لي كان على خِوانٍ هناك، فأخذاه أيضاً، ثم دخلا حجرةَ والدتي، وطلبا أن ينظرا الصندوق الذي كان فيها. قلت: هذا صندوقٌ فيهِ ثيابُ والدتي. قالا: كلا. ليسَ الصندوقُ صندوقَ ثياب، ولا بدَّ من أن نراه. فتركتُهما وشأنهما، وقد وجدا بهِ كلَّ شيءٍ. . . . تلك أوراقٌ وكتبٌ وصورٌ منها ما كتبهُ الأحرارُ، ومنها ما كتبتُه أنا، ووجدا

صورةً عبد الحميد الفوطوغرافية في أوائل أيام ملكه ، وصورة السلطان مراد الخامس ، الذي قضى شهيد السجن بجراغان ، وغير ذلك مما يطول شرحهُ ، ويهولُ الخائنين ذكرُه.

فلما وقع نظرُ الرجلين على هذه الأوراق ، لمعت أعينهما ، وأفترّتْ نواجذُهما سروراً ، وكان محمد علي أخبثَ الرجلين ، فجعل يقلِّبُ الأوراقَ بين يديه ، ويهزُّ رأسَه كمن هاله أمرٌ عظيم. فقلت في نفسي: ماله يعطو كما يعطو حمارُ الوحش ، وما لهذه الرأس تدور بين كتفيه ، وكأن تحتها لولباً يديرها. فالتفتَ نحوي وقال: وجدنا عندك أكثر مما أملنا.

فلم أجاوبه بكلمة. ثم استخرج صاحبه من الصندوق كيساً صغيراً ، كانت به أوراق بخط والدي المرحوم ، وصكوك وعقودٌ وغيرها ، فحاولتُ استرجاعَ الكيس ، غير أني لم أفلح. وإذ فرغ كلاهما من جمع الورق ، جعلا ما أخذاه في كيس كبير ، وختما عليه بالشمع الأحمر ، وختمتُ كذلك معهما ، واحتملا حملهما ، وودعاني ذاهبين.

ثم حين عاودت حجرة امرأتي ، وجدتها تنتفض انتفاضَ العصفور في ليلةِ قرٍّ ممطرةٍ ، حتى لم أشكَ أنها ستقضي بين يديَّ. فصِحْتُ بوالدتي لتعينني على مساعفة تلك المسكينة بشيءٍ من الدواء ، وإذا هي لا تقدرُ أن تنهضَ من مكانها ،

فأدركتني الخادمةُ ، وأخذتْ تعالجُ معي المرأتين ، حتى هدأ روعُهما ، وسكنتْ الرعدة في جسديهما ، ولكن بعد أن كادتْ الروحُ تزهق.

وما تكامل الصباح في ضيائه إلاَّ أقبلت أمي وامرأتي تبكيان إلى جانبي ، فنهيتهما عن البكاء ، وقلت: اصبرا ، لعلَّ لنا في جوانب هذا المأزق مُنفرجاً ، وأخذتْ امرأتي تنصحُ لي بالسفر قبل أن يتعاظمَ الأمرُ ، وقالت: نحن امرأتان ، ولا يلحقُ بنا من الحكومة أذًى ، ولا نلبثُ أن نلحقَ بك إذا بلغتَ مأمنك.

قلت: وكيفَ السبيل إلى ذلك؟ هذه دارنا أقامتْ على جوانبها الأرصاد ، وإنّ بالباب لقوماً ألف السهاد محاجرهم ، لا يفارقون مصراعيهِ قيدَ شبرٍ ، وما مشيتُ في الطريقِ إلاَّ رأيتُ ورائي قوماً يطلبونني بأوجههم الكاسفة ، وأعينهم الخائنة ، يلازمونني ملازمةَ الظل ، حتى لأتمنى أن تخسفَ بي الأرضُ ، فأتوارى عن أبصارهم. ثم هبي أنّي أحكمتُ الحيلة ، ودانتْ لي فجاج الأرض ، وصرتُ إلى حيثُ لا يطولُ إليَّ باعُ الظالم المطارِد ، فما الحيلة في سفرك مع أمي وهذين الطفلين؟ تظلون ، وليس عندكم من يعولكم ! ولا تدعكم الحكومة حتى تلحقوا بي ، وتمنع عنكم ما أبعث بهِ إليكم من المالِ ، ولا ألبثُ أن أعودَ صاغِراً، فتكونَ العودةُ الثانيةُ شراً من الأولى.

فقالتا: وماذا تريد أن تصنعَ؟

فقلت: سأنظرُ في أمري، عسى أن أهتديَ إلى ما فيهِ خلاصُنا، هذا وعدٌ وعدتُ بهِ من عندي، وأنا غيرُ واثق بإنجازه.

ولما كان المساء مضيتُ إلى أبي الهدى، فلما رآني صاحَ بي: ما وراءك: قلت: ورائي ما يسوءُ كلَّ صديقٍ، ويسرُّ كلَّ عدوٍّ.

قال: وما ذلك؟

فقصصت عليه القصة، لم أدع منها حرفاً إلَّا ذكرتُهُ، فأطرقَ يفكِّرُ، وبدتْ على وجهه كآبةٌ استكبرتُها في نفسي، ثم رفعَ طرفَهُ إليَّ، وقال: وهل وجدوا عندك الكتابَ؟

(يريدُ كتاباً كنت أخبرتُهُ أني وضعتُهُ وسميتُهُ «العصر الجديد» أتيتُ فيهِ على بعض الوقائعِ التي جرت بين مصر وفَروق[1]، ولكني لم أتعرض فيهِ لعبدِ الحميد بسوءٍ. وهذا كتابٌ كنتُ أنفذتُهُ إلى مصرَ ليطبَع فيها. ولكن تلاعبتْ بهِ الأيدي، ولم يُسمع له ذكر).

قلت: يا سيدي! جرت عادتي أن أكتبَ من غيرِ تسويد،

---

(١) إستانبول.

وذلك أني أنقلُ سانحاتي في إبّاناتها ، واقتصدُ من الزمان بقدر ما أستطيع .

فقال: أوه ، لقد اخطأتَ الصوابَ ، وددتُ لو عثر الرجلان عندك على تسويدِ هذا الكتاب ، فتفوزَ يومئذٍ فوزاً عظيماً ، يا ليتني علمتُ ذلك من قبلُ. ثم صاح: يا غلام! فدخل خادمُهُ ، فقال: عليَّ بحسن خالد الساعة ، فما غاب الخادِمُ إلاَّ عاد ومعهُ ابنُ أبي الهدى ، فأقبل حتى جلسَ إلى جانبي ، وكان أبوه مطرِقاً ، ويمينُه تعبثَ بلحيتِه ، فانتبه على سعلةٍ سعلها ابنهُ ، ليعلمهُ بمكانِه ، وقال: جئت يا حسن؟

فقال: ممتثلاً أمرك يا مولاي .

فأخذ أبو الهدى يقصُّ على ابنهِ ما سمعَ مني ، فما أتمهُ إلاَّ ابتدره ابنهُ مستعلماً: والكتاب؟

فقال: أخبرني البك أنّهم لم يجدوه ، واعتذر لي بأنّهُ لم يتعوَّدْ تسويدَ ما يكتبُ .

فقال: قضي الأمرُ ، ولا حيلةَ في تلافي ما فات .

وإذا لم يكن من الجلد بد ، أقبلَ عليَّ الرجلان يعزياني ، وقال أبو الهدى: لا تخفْ ، لن يبلغَ الشرُّ بنا غايته ، وإنّ في الكنانة لسهاماً أعددتُها للأيام المحجلة ، فكن بمكانِكَ من

النجدة ، لا تذهب بذماء قلبك هذه العظائمُ ، وسأبيِّتُ الليلة تدبيراً يتحداه الفوز ، وتسير على إثره الرغائب ، فشكرتُ للرجل دعواه ، ونهضتُ راجعاً إلى منزلي.

وبعد هذا كله اعترضني معضلٌ أشكلَ عليَّ استخراجُ غامضِه ، واستنتاجُ الصواب من ثنيات شكوكه ، وذلك أمرُ أبي الهدى ، قلت: إنْ كانَ الرجلُ أسرَّ عني بغضَه ، وأضمرَ لي انتقامَه ، فما حمله على إفضائه إليَّ بأسرارٍ يضاربُ الرجالُ دونها بالسيوف؟

وإنْ كان مخلِصاً لي في ودّه ، مستصفياً سريرتَه ، فما هذا اللعب الذي أراه؟ من أين جاء أبا الهدى أنَّ الشرطة ستدخل داري ، وأنها ستأخذ أوراقي ، حتى أعلمني بذلك قبلَ وقوعهِ؟

وما لبثتُ في استطلاع هذا السر طويل زمن ، بل قيضَ لي الله من أطلعني على مكنونه ، وأسرّ إليَّ بنجواه[1].

١٥ ـ ذكر الشيخ المجاهد رضا الرفاعي الحلبي بعد عودته من منفاه في إستانبول[2] أنه وجد في إحدى المكتبات في

(١) [المعلوم والمجهول (٢: ٦ ـ ٢١) باختصار].

(٢) كانت سلطات الاستعمار الفرنسي قد نفت الشيخ رضا إلى تركية ، لأنه كان من قادة الثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسي.

إستانبول كتيباً بالعربية اسمه «قصة تقبيل الرفاعي ليد المصطفى ﷺ» وهو يتلخص فيما يلي:

كان الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أحمد الرفاعي رحمهما الله تعالى متعاصرين، وكان الجيلاني أكبرَ سناً من الرفاعي، وكان كلٌّ واحد منهما يرسل إلى الآخر الرسائل الشفهية والخطيّة الدالّة على التعظيم والتبجيل، ولكنهما لم يلتقيا.

ولما ذهب الرفاعي إلى الحج سنة (٥٥٠هـ)، وبعد أن قضى مناسك الحج، ذهب إلى المدينة للزيارة، ولما سلّم على الرسول الأعظم ﷺ رأى أمامه شيخاً جليلاً مهيباً، فسأل: من يكون هذا الشيخ؟ فقالوا له: إنه الشيخ عبد القادر الجيلاني، ففرح الرفاعي فرحاً عظيماً، وتوجّه نحو الجيلاني قائلاً:

في حالةِ البعدِ روحي كنتُ أرْسِلُها
تقبّل الأرضَ عنّي وهي نائبتي

وهذه دولةُ الأشباحِ قد حَضَرَتْ
فامدُدْ يمينَكَ كي تحظَى بها شَفَتي

فمدّ الشيخ الجيلاني يَدَه إلى الرفاعي مسلِّماً، فأخذ الرفاعي يدَ الشيخ عبد القادر وقبّلها أمام الناس.

فجاء بعد حينٍ من الدهر بعضُ المغالين في محبة الشيخ

الرفاعي وقلب القصة ليجعل اليد الممدودة هي يد النبي ﷺ.

ولو صحّت رواية هؤلاء الغلاة لذكرها الرفاعيُّ في كتبه! إذ هي كرامة وأيُّ كرامة، ولذكرَها المؤرخون المعاصرون له، لأنّها من الحوادث العظام الخارقة للعادة.

أمّا أن يتفرَّد بذكرها الواسطيُّ، ويرويها بصيغة الشك (قيل) فهذا يدلُّ على أنّ القصةَ لم تثبت كما ذكر ذلك الشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله تعالى.

* * *

مصادر أخرى ترجمت لأبي الهدى الصيادي[1]

آ ـ الكتب :

١ ـ جميل العظم : «السر المصون» (١١٢) .

٢ ـ الزركلي : «الأعلام» (٦ : ٣٢٤ ـ ٣٢٥) .

٣ ـ جرجي زيدان : «تاريخ آداب اللغة العربية» (٤ : ٢٩٥) .

٤ ـ سركيس : «معجم المطبوعات» (٣٥٣ ـ ٣٥٦) .

٥ ـ مجاهد : «الأعلام الشرقية» (٣ : ١١٧ ـ ١١٩) .

ب ـ المجلات :

١ ـ «المقتبس» (١ : ٣٥٦) .

٢ ـ «المنار» (١ : ٥٩٨ ـ ٦٠١) و(٣ : ٤٧١ ـ ٤٧٣) .

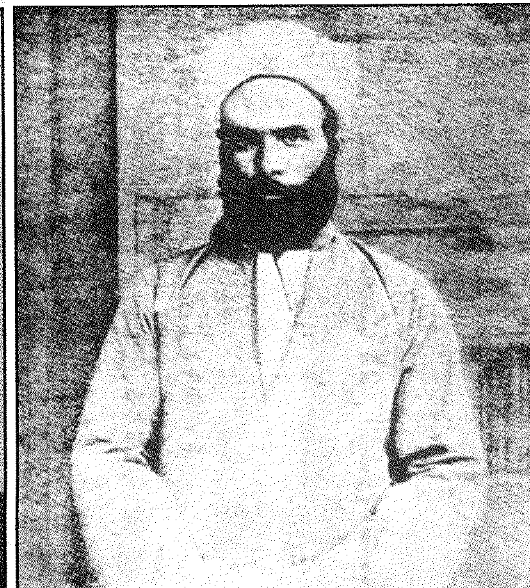
٣ ـ «الهلال» (١ : ٣٠٥ ـ ٣٠٩) .

٤ ـ «الحديث» (٢٤ : ٢٥ ـ ٣٦) .

٥ ـ «الضاد» (٢٣ : ٣٨١ ـ ٣٨٦) .

* * *

(١) ستكون هذه التراجم في جزء ثانٍ من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .



محمد عبده



جمال الدين الأفغاني

الفهارس

١ - فهرس الأشعار

٢ ـ الأعـــلام

* * *

٣ ـ فهرس الأماكن والبلدان

* * *

٤ ـ فهرس الكتب والمطبوعات

* * *

٥ ـ فهرس الموضوعات

* * *

أبو الهدى الصيادي

١٨٤٩ ـ ١٩٠٩

- أعظمُ شخصيَّةٍ صوفيَّة في دار السلطنة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كان فيها مالئَ الدنيا وشاغلَ الناسِ.

- اتَّصفَ بالذكاءِ النادر ، والنفوذِ الواسع، والكرمِ بلا حدود، والدهاءِ العظيم.

- اختلف فيه الناس ما بين محبٍّ غالٍ ينظرُ بعين الرِّضا فلا يرى إلا محاسنَ ، وبين مبغضٍ قالٍ ينظرُ بعين السّخطِ فلا يرى إلا معايب

- أمّا الحقيقة فلا يمكن معرفتها إلا بتتبُّعِ أخباره، وما كتبه عنه عارفوه ومعاصروه.

وهذا الكتاب هو الخطوة الأولى نحو التاريخ الصحيح لهذه الشخصية المتميِّزة.

الناشر

دار البشائر
للطباعة والتوزيع والنشر
سورية ـ دمشق ص.ب ٤٩٢٦
هاتف ٢٢١٦٦٦٨/٩ ـ فاكس ٢٣١٦١٩٦